

مطبوعات



قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سمعده



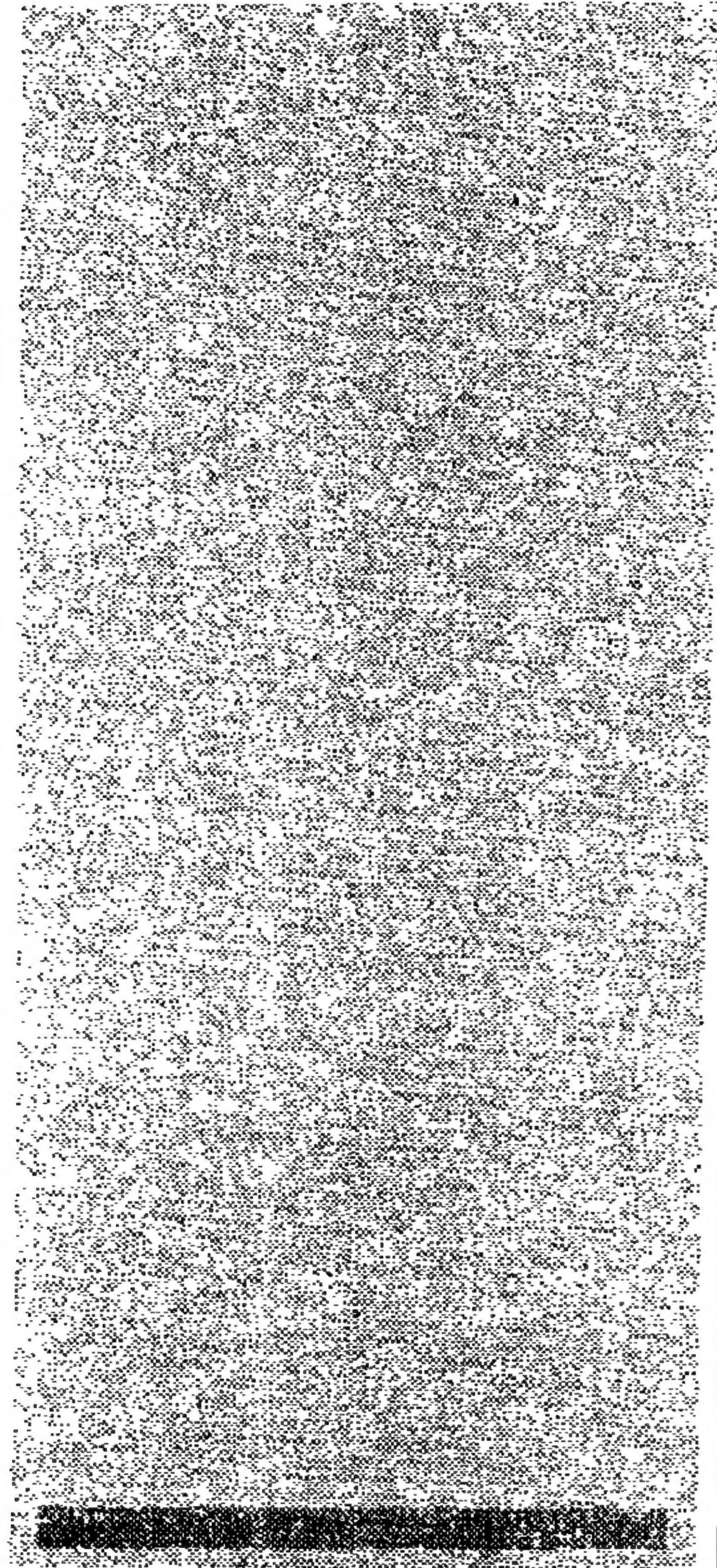
قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

إحسان عيد القدوس

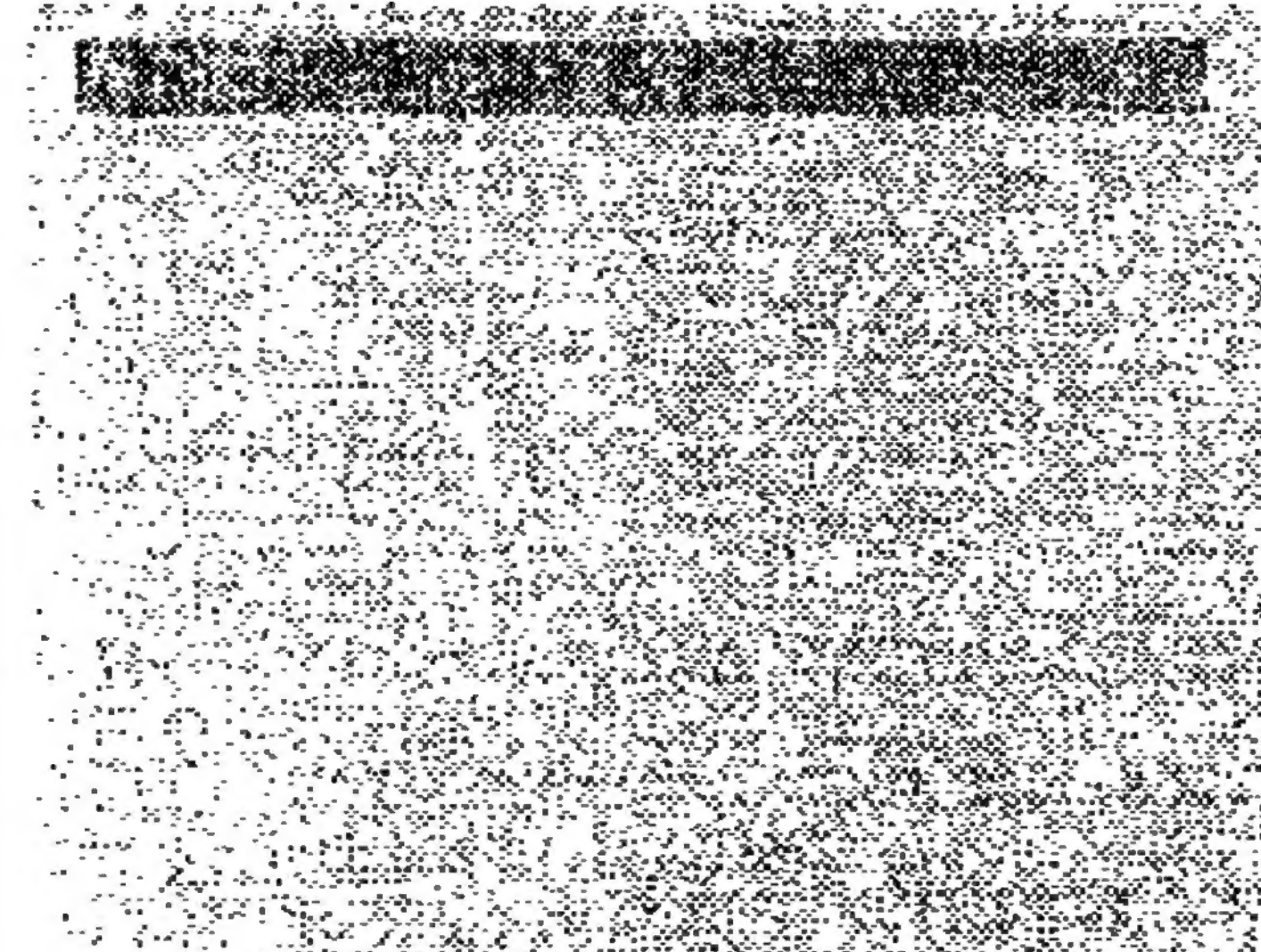
عطية من الصفيح

مجموعة قصص تصور
قطاعات مختلفة من
المجتمع، وتكشف خبايا
النفس البشرية، وتحدث
الواقع الإنساني



الغلاف بريشة الفنان :

عمرو فهمي



علبة من الصفيح الصدئ ..

خرجت من القرية.
ولن أعود.

ولست حزينا.. ولا أسفا.. بالعكس.. إنى أحس
براحة غريبة، وأعصابى هادئة كما لم تهدأ من
قبل، وابتساماة كبيرة تنطلق فى صدرى، وتلقى بظلها على
شفتي.. أحس بإحساس الأب الذى اكتشف فجأة أن ابنه قد
كبر وأصبح رجلا قويا.. والأب هو دائما آخر من يكتشف أن
ابنه قد أصبح رجلا.. رجلا لم يعد فى حاجة إلى أبيه!!
والواقع أنى لم أتعمد الخروج من القرية، ولم أكن قد
اتخذت قرارا بعدم العودة إليها إنما كل هذا حدث فجأة.
كنت جالسا فى المندرة مع شقيقى الأكبر عبدالرحمن،
ومعنا الشيخ حسنين مدرس المدرسة الإلزامية، ومحمد
أبوعوف، وعبدالله رضوان، وأحمد الرفاعى.. وكان أخى
عبدالرحمن يتصدر المجلس كعادته منذ وفاة أبى، مهيبا رزينا،
جالسا على الأريكة العتيقة، وقد طوى إحدى ساقيه تحته،

ورفع ساقه الأخرى وثناها، وألقى ذراعه على ركبته، وترك مسبحته تتدلى من يده، وقد تباعدت حباتها فوق الخيط الذي يربطها، فكلما ألقى حبة منها اصطدمت بالحبة التي تحتها في صوت مسموع.. وكانت تمضي الساعات ولا يصدر عن أخى صوت، إلا صوت حبات مسبحته وهي تصطدم بعضها ببعض.. فإذا توقف هذا الصوت، كان هذا إيذاناً بأن أخى يهم أن يتكلم، فيرهف الجالسون أسماعهم، ويمدون نحوه أعناقهم، في تلهف واهتمام.. رغم أن أكثر ما يقوله أخى لا يستحق الاهتمام !!

وفجأة قال محمد أبو عوف :

— مش برضه نشوف طريقة تقوم بيها محامى للواد رزق. واهتزت أصابع أخى، وهي تعبت بمسبحته، وتسارعت دقات حباتها وهي تصطدم بعضها ببعض.

وقال الشيخ حسنين وهو يملأ شذقيه بحروف كلماته :

— رزق معتوه ومجنون، وهو معفى من المسئولية شرعا، سواء بمحام، أو بغير محام.

وقال أحمد الرفاعى :

— والله أنا لسه مش مصدق.. حد كان يفتكر أن الواد رزق يعمل العملة دى.

وقال عبدالله رضوان وصوته القوى ينضح بالسخط :

— احنا المحقوقين.. كنا سايبينه طايح فى الكفر كله واحنا عارفين أنه مجنون.

ورد محمد أبو عوف فى عصبية :

— يعنى حد كان عارف أن جنانه يوصل لحد كده.. ما هو طول عمره عايش فى الكفر، ما حدش شاف منه حاجة تخوف.

وأحسست أنى لم أعد أستطيع أن أسمع مزيدا فى موضوع رزق.. منذ أسبوع والقرية كلها تتحدث عن رزق.. وما يقال يعاد.. وكل ما يقال كلام ساذج.. إن أحدا لن يفهم مشكلة رزق إلا أنا، وبرغم ذلك فإنى لا أستطيع أن أشرح فهمى لها، لأن أحدا من أبناء القرية لن يفهمنى.

وأحسست أيضا أنى لم أعد أطيق سماع دقات حبات مسبحة أخى عبدالرحمن.. خيل إلى أنها دقات خطوات الفناء.. دقات قلب عالم يموت.. وأحسست بها تقع على أعصابى، وتدفعنى إلى التحدى.. تحدى الفناء.. تحدى العالم الذى يموت.. تحدى أخى.. وأنا حريص دائما على ألا أتحدى أخى.. فقامت فجأة من مجلسى، وتمتمت دون أن ألتفت إلى أحد :
- عن أذنكم.

وتوقفت دقات المسبحة، وشعرت بعينى أخى تتبعاننى إلى أن وصلت إلى الباب، ثم ارتفع صوته مهيبا رزينا يشقه خيط ساخر :

- على فين يا مأمون ؟

وأجبت وأنا ألتفت إليه لفتة سريعة دون أن ألتقى بعينه :

- داخل جوه شوية.

وقال محمد أبو عوف :

- ما تتأخرش يا سى مأمون.. عايزين نرسى على حل فى حكاية الواد رزق.
ولم أرد عليه.

خرجت من المندرة، ولكنى لم أتجه إلى داخل البيت.. خرجت من البيت كله، وسرت فى أزقة القرية، ورأسى منكس فوق صدرى، وعيناي على الأرض، اتتبع بهما أقدام الفلاحين الذين

يمرون بى.. الأقدام الحافية الكبيرة، السمرء المشققة.. وخيل
إلى وأنا أتتبع هذه الأقدام وهى تتحرك، كأن الأرض نفسها
تتحرك.. تسير.. تزحف.. وأسمع من حولى همهمات.. السلام
عليكم.. العواف.. شى.. حاء.. هع.. وأهمهم مع المهممين، وأنا
أحس احساسا غريبا بأن هذه المهمة ليست سوى صوت
احتكاك التروس التى تحرك قرينتنا.. تروس بطيئة.. ولكن
الحركة أكيدة.. واللون الأسمر.. لون الطين.. يملأ عيني
المنكستين.. الأرض سمرء.. والجدران سمر.. والأقدام سمر..
وخيل لى أنى لو رفعت عيني فسأرى السماء سمرء.
وتوقفت عيناى عند قدمين.. قدمين صغيرتين، ولكنهما
سمرءان أيضا، ومشققتان أيضا.. ورفعت عيني لألتقى بوجه
«سبيلة»، وهو يطل على من تحت صفيحة الماء التى تحملها..
إنها دائما تحمل شيئا فوق رأسها.

ووقفت قبالتها أملا عيني منها.. عيناها المكحلتان.. شفاتها
الرقيقتان الغامقتان.. ووجهها الهادىء الصبور، وقد اختلطت
صفرتها بسمرته.. وابتسامتها المهتزة الخجولة التى تحاول أن
تخفف بها من نظرة استغائة كبيرة تطل من عينيها.. إنى دائما
أرى هذه النظرة فى عينيها.. نظرة الاستغائة.. تستغيث بى..
منذ كنا أطفالا وهى تستغيث بى.. ولم أستطع أبدا إغاثتها..
وبرغم ذلك فهى لم تفقد الأمل.. إنها لا تزال تستغيث بى.. ولم
تصدق أبدا أنى أنا الآخر كنت أستغيث بها، وأنى كنت أكرم
استغائتى فى صدرى.. وكلانا كان أضعف من أن يغيث الآخر..
وطالت وقفتى قبالتها برهة.. حاولت أن أقول شيئا.. ولكنى
لم أقله.. واهتزت شفاتها كأنها هى الأخرى تحاول أن تقول
شيئا.. ولم تقله.. وبقينا صامتين.. ابتسامتى اليائسة تلتقى

بابتسامتها المسكينة، ونظرتى المستسلمة تلتقى بنظرتها
المستغيثة.. ثم اهتزت ذراعها التى تسند صفيحة الماء فوق
رأسها، فانسكب خيط من الماء فوق جلبابها الأسود.. وارتعشت
رموشها فى ارتباك، وانطلقت قطرات الخجل فى وجنتيها،
وتمتت ببضع كلمات لم تصل إلى أذنى، ثم استدارت وسارت
فى طريقها.

وانتابنى شعور جارف بأننى لن أرى سبيلة بعد اليوم..
لا أدري لماذا، فلم أكن حتى هذه اللحظة قد قررت أن أترك
القرية، ولا أعود.. ووجدت نفسى ألتفت وراءها وأنظر إلى
قوامها المفرد نظرة طويلة حزينة.. نظرة وداع.. ثم انتبهت،
وتلفت حولى كأنى خشيت أن يكون أحد قد ضبط نظرتى.. ثم
عدت أنكس رأسى فوق صدرى، وأسير..

وتجاوزت فى سيرى أزقة القرية، وأخذت أسير على حافة
المصرف.. عيناي منكستان على الأرض أتتبع بهما أقدام
الفلاحين التى تمر بى.. ولم أرفع رأسى إلا عندما مررت
بضريح أبى.

إن لأبى ضريحا كبيرا فى القرية.. مزار.. أقيم خارج منطقة
المقابر، على حافة المصرف.. وله قبة خضراء، وفوق القبة
هلال، وبجواره مصلى صغير فرش بالحصر.. وأهل القرية
والقرى المجاورة يعتبرون أبى وليا من أولياء الله.. له كرامات..
كرامات سيدى محمد القماش.. وينذرون له النذور..
ويتمسحون بأعتابه.

وأبى لم يكن وليا من أولياء الله.. كان رجلا صالحا، طيبا،
عنيذا.. ولكنه لم يكن أبدا وليا من أولياء الله.. وليس هناك أحد
يؤمن بشخصية أبى ويقدرها حق قدرها، مثلى.. وليس هناك

أحد أحبه مثلما أحبيته.. وبرغم ذلك فأنا الوحيد في القرية كلها الذي لا يؤمن بأن أبى ولى من أولياء الله.. حتى أمى آمنت بأنه كان أحد أولياء الله، وأخذت تذيع في القرية حكايات عن كراماته.. وهى ليست حكايات كاذبة، ولكنها أيضا ليست كرامات، إنما جهل أمى وسيطرة شخصية أبى عليها، صور لها هذه الوقائع التى كان بطلها أبى، كأنها كرامات.. وأخى استراح إلى اعتبار أبى من أولياء الله، وعاش فى ظل هذه الخرافة وحاول أن يستغلها، بل حاول أن يكون خليفته فى الولاية، فقلده فى تفاصيل حياته، وأصبح يدعى المهابة والرزانة مثله، ويمسك بمسبحته، ويرتدى عمامته، ويجلس جلسته.. وشارك أمى فى رواية الحكايات عن كرامات أبيه الشيخ محمد القماش.. ولكن حكايات أخى كانت كاذبة، مغالى فى كذبها، وكان هو أول من يعلم أنها كاذبة.. ومع مرور السنين.. وخلال اثنى عشر عاما فقط ضاعت شخصية أبى الحقيقية.. وضاعت القضية التى وقف حياته عليها والتى أكسبته حب واحترام الفلاحين، وأصبحت شخصيته شخصية وهمية خرافية.. شخصية رجل مشعوذ مجذوب.

ووقفت أنظر إلى ضريح أبى من بعيد.. ولم أقرأ له الفاتحة كما تعود أن يقرأها كل من يمر به.. ولكنى ابتسمت له.. ابتسمت له كأنى أواسيه فى محنته، وفى شخصيته الحلوة القوية التى ضاعت وسط الخرافات التى بعثرت حوله.. ابتسمت له كأنى أشجعه على احتمال مصيره، فقد كنت دائما مقتنعا بأن أبى لا يمكن أن يكون مستتريجا تحت هذه القبة الخضراء الكبيرة، ولا إلى صوت النساء وهن يتمسحن به ليتشفعن لهن حتى يحملن ويلدن!

ثم تجاوزت ضريح أبى، وسرت على حافة المصرف، إلى أن التقيت بدوى أبو خليل راكبا حماره، عائدا إلى القرية.. وما كاد بدوى يحيينى حتى قلت له كأنى أطلق أمنية ظلت حبيسة فى صدرى أمدا طويلا :

— أول ما توصل الكفر، فوت على أخويا عبدالرحمن، وقول له إنى نزلت مصر.

وفى هذه اللحظة فقط عرفت أنى قررت أن أترك القرية، وعرفت أيضا أنى لن أعود إليها.. ورفعت رأسى، وسرت فى خطى سريعة حازمة نحو محطة القطار.. وقد ارتاح صدرى واستقرت نفسى ووضح الطريق أمامى.

ولم أتنبيه إلى أنى مررت بلبابى الجوخ، وفوق رأسى الطاقية الصوف، إلا بعد أن أخذت مقعدى فى القطار.. وابتسمت.. وتخيلت ضحكة مرفت عندما ترانى فى الجلباب.. إن أحدا من أهل القاهرة لم يرنى أبدا مرتديا زى القرية.. بل إن كثيرين من أصدقائى فى القاهرة لا يعلمون أنى فلاح.. الذين يعلمون هم فقط الذين شاركونى فى أكل الفطير المشلتت الذى تعودت أمى أن ترسله إلى ..

ولكن صورة مرفت وصورة مجتمع القاهرة كله اختفت سريعا من خيالى. ونسيت أنى مازلت مرتديا الجلباب وفوق رأسى الطاقية.. وعدت أهيم فى قصتى مع القرية.. أو على الأصح، قصة القرية معى.



وقصة القرية معى تبدأ دائما بوجه سبيلة.. وسبيلة هى حبى الأول، وربما كانت حبى الوحيد، فكل ما صادفنى بعد ذلك من علاقات عاطفية لم يرتفع أبدا إلى مستوى العاطفة التى

ربطتني بسبيلة.. إنه حب تفتحت عليه عيناى وأحاسيسى، منذ تفتح وعيى للحياة.. حياتى لا تبدأ بوجه أمى، ولا بوجه أبى، ولا بوجه القرية كلها.. بل إنى أحس اليوم كلما همت مع ذكرياتى البعيدة، أحس كأنى لم أر وجه أمى ولا وجه أبى إلا بعد أن رأيت وجه سبيلة.. وربما كانت نوازع الاستقلال، ومحاولة بناء الحياة الفردية تبدأ مع الطفل منذ ولادته، وكانت سبيلة هى أول خطوة لى نحو الاستقلال بحياتى، أول احساس بشخصيتى فى الحياة.. ولذلك فحياتى تبدأ منذ الأيام التى كنت ألعب فيها مع سبيلة فوق أكوام السباح فى الساحة التى تقع أمام زريبة الدائرة.. دائرة الأمير ولى الدين سامح.. وكنت أشارك معها فى تحميل السباح فوق ظهر الحمار، ونسير معا ومعنا الحمار إلى الغيط القريب، لنفرغ حمولة السباح.. ثم نعود معتلين ظهر الحمار.. هى فى المقدمة وأنا خلفها.. ولا أذكر فيم كنا نتكلم أيامها، ولا ماذا كان يضحكنا، وماذا كان يبكينا.. ولكننا لم نكن نفتشرك أبدا.. وكنت أعود إلى البيت لأواجه صرخة أمى وهى تنظر فى هلع إلى جلبابى المتسخ :

- يا واد أنت مش حاتبطل لعب فوق كوم السباح.

ولم أكن أستطيع أن أبتعد عن أكوام السباح، إلا إذا ابتعدت عن سبيلة، فأبوها يعمل كلاف فى زريبة الدائرة، وهى تعمل معه.. إن أكوام السباح بالنسبة لنا ليست مرتع لهو، ولكنها مكان عمل.. برغم أننا أيامها كنا نحس باللهم أكثر مما نحس بالعمل.

ولم تكن حقيقة أن أبا سبيلة هو مجرد كلاف فقير، وأنا ابن الشيخ القماش الذى يملك أربعين فدانا.. بل إنه المالك الوحيد فى القرية.. ولم تكن هذه الحقيقة تثير بيننا أى مشكلة..

لم تكن طفولتنا البريئة تستطيع أن تتبين الحبال الغليظة
الخشنة التي تزحف تحت أقدامنا وتلتف حول عمرينا كلما
كبرنا، لتشدنا أحداً بعيداً عن الآخر.

وإني أنكر يوماً، عندما كنت في العاشرة من عمري، أن قلت
لسبيلة ونحن عائدان من الغيط فوق ظهر الحمار :

- بكره تكبرى يا سبيلة وأتجوزك وأضربك كل يوم علقه
زى عم مدبولى ما بيضرب مراته.

وقالت سبيلة وهى تدير رأسها إلى :

- ما أنا كبرت خلاص يا مأمون.. ده أنا أكبر من نفيسة
بنت عمى بسنتين.

وكانت سبيلة أيامها فى السابعة من عمرها.

وبعد أن أصبحت أنا فى السادسة عشرة، وأصبحت سبيلة
فى الثالثة عشرة.. عدنا نتحدث عن الزواج.. وكانت سبيلة
يومها جالسة بجانب القرن فى دارنا تساعد نساء البيت فى
الخبيز، وكنت أنتظرها فى الحوش المجاور.. ولما خرجت لحقت
بها، ووقفنا نتحدث، وهى ترخى عينيها عنى، ولمسة حمراء
تسرى تحت بشرتها السمراء، وقلت ضاحكا :

- احنا مش كنا اتفقنا على الجواز يا بت.

وأجابت وهى تحنى رأسها :

- ودى تيجى.. إيش جاب لجاب.. ده أنا خدامتك يا سى
مأمون!

ويومها تنبعت لأول مرة إلى أن سبيلة تخاطبني بلقب
«سى».. سى مأمون.. ولقب «سى» ليس بسيطاً.. ليس هينا..
إنه يمثل جذرانا عالية سوداء تفصل أهل القرية بعضهم عن
بعض .. جذرانا سوداء اسمها «سى».. وجذرانا أخرى اسمها

« سعادة البية » .. وجدراننا الثالثة اسمها « سعادة الباشا » ..
وجدراننا رابعة اسمها « أفندينا » .. والغريب أنه كلما ارتفعت
الألقاب انخفضت الجدران .. فالجدار الذى يفصل بين « البية »
و « الباشا » ، أقل ارتفاعا من الجدار الذى يفصل بين « سى »
و « اللاسى » .. الجدار الذى يفصل بينى وبين سبيلة ، جدار عال ..
عال جدا .. شاهق .. أعلى من الهرم .. أعلى من الجدار الذى
يفصل بينى وبين ابنة ناظر دائرة أفندينا .

ولكن .. من الذى علم سبيلة أن تنادينى بلقب « سى » ..
لا أحد .. لا أنا طلبت منها أن تنادينى « سى » .. ولا أبوها علمها
كيف تنطقها .. ولا أبى .. لا أحد .. ولكن عقلها تفتح فسمعت
الناس فى دنياها ينادوننى « سى » .. ووجدت البنات فى سننها
ومن طبقتها يعتبرن أنفسهن خادמות لى .. ولأبى .. ولأمى ..
ولكل عائلتنا .. فاستسلمت فى هدوء ، وانزوت مع أهلها تحت
الجدار الأسود العالى ، ورددت فى خنوع « أنا خدامتك يا سى
مأمون » !

والغريب أنى لم أكتشف هذه الجدران العالية السوداء فى
عينى سبيلة وحدها .. ولكنى اكتشفتها فجأة أمام عينى أنا
أيضا .. فى صدرى .. أنا أيضا أقف خلف الجدار الأسود العالى ،
وانزوى تحته .. أقف فى الناحية الأخرى التى لا تقف فيها
سبيلة .. بينى وبينها هذا الجدار .. ووجدت نفسى لا أحاول أن
اتخطاه .. لا أحاول أن أهدمه .. إنما أستسلم له ، كما استسلمت
له سبيلة من الناحية الأخرى .. وأحسست أن كل هذا الحب
الذى أحمله لسبيلة لا يكفى لهدم الجدار الأسود .. بل أحسست
أن الحب أيضا كان معترفا بهذا الجدار .. وأنه نشأ وتربى فى
ظله .. وإنى دون أن أتعمد ، ودون أن أدري ، كنت أسير دائما مع

سبيلة على ناحيتي الجدار الأسود.. وإن حديثي عن الزواج بها لم يكن حديثا يعبر في صدق عن مستقبل أرسمه بل حديث أمنيات خيالية ليس له أثر في واقعي النفسي.. كما أتحدث عن الجنة.. أو عن اعتلائي عرش مصر.. مجرد أمنية بعيدة تنطلق من عقدة اجتماعية لم أفكر يوما في حلها.

وبرغم ذلك فقد مر بنا عمر لم نكن نرى فيه هذا الجدار.. عمر كنا خلاله نلعب معا فوق أكوام السباخ، ونركب معا الحمارة.. ولم تكن سبيلة تناديني بلقب «سى» ولا كانت تعتبر نفسها خادمتي.. كانت تعتبر نفسها حبيبتي وزوجتي.. عمر كنا فيه أطفالا.. وربما كان الأطفال هم وحدهم الذين يستطيعون اختراق هذه الجدران السوداء العالية.. لا.. إنهم لا يخترقونها.. إنهم يلعبون فوقها.. ونحن لم نعد نلعب.. لم نعد أطفالا.

وتركت يومها سبيلة، وأنا أحس بعاطفتي نحوها ثقيلة ولها طعم جديد.. ثقيلة ثقل اليأس، ولها طعم اليأس.. طعم مر.. وقضيت عمري بعد ذلك أحاول أن أتعالى على هذه العاطفة.. حتى لا أصدم بهذه الجدران السوداء.. ولكني كنت كلما أمعنت في التعالى على عواطفى، أحسست بنفسي أهبط.. أنخفض.. أنزل في الواطى.



ويومها خرجت أسير بين الحقول على حافة المصرف، أحمل في صدري هذا اليأس الثقيل.. إلى أن سمعت صوت رزق يناديني من تحت شجرة الجميز بصوته الذى تمزقه عاهته :
- على فين يا مأمون.
واتجهت إليه جلست بجانبه صامتا.

وتركنى رزق كعادته غارقا فى الصمت دون أن يحاول أن ينقذنى منه.. ورزق لا يزال ينادينى باسمى مجردا.. لا يضيف إليه لقب «سى».. ربما لأنه عبيط.. عبيط القرية.. عقله لم يكبر حتى يرى هذه الجدران السوداء العالية.

ورزق نشأ فلاحا فقيرا يتيما.. أكتع.. يسير وهو يرفع كتفه اليسرى، ويعرج على قدمه اليمنى، وفمه مفتوح فى بلاهة، يسيل منه لعابه بشكل منفر.. وأعتقد أهل القرية أن فى رزق «شئ لله».. وتركوه يتجول فى الأزقة يفعل ما يريد.. ويدخل أى بيت ليأكل عندما يريد أن يأكل.. وينام عندما يريد أن ينام.. ولكنه كان يفضل دائما أن يبقى تحت شجرة الجميز، خارج القرية، لا يقوم من تحتها إلا تحت اصرار معدته الخاوية.. وكان من حق رزق أن يقول أى كلام.. وأهل القرية يضحكون على كل كلام يقوله.. وكان دائما - منذ كان طفلا - يحمل تحت إبطه علبه من الصفيح.. علبه متأكلة، صدئة، قذرة، لم يكن أحد من أهل القرية يعلم ما بها.. ولم يكن رزق يسمح لأحد بأن يرى ما فى علبته أو حتى يلمسها.. وهى دائما تحت إبطه.. يأكل وهى تحت إبطه، وينام وهى تحت إبطه، ويلعب وهى تحت إبطه.. أصبحت هذه العلبه قطعة منه.. وأهل القرية يتندرون عليها.. على العلبه.. ويحكون عنها الحكايات.. ويتوهمون أشياء كثيرة غريبة فى داخلها.. دون أن يستطيع أحد أن يرى ما فيها، ولا أن يلمسها.

أنا الوحيد الذى كان لى حق لمس علبه رزق.

أنا الوحيد الذى كنت أعلم ما بداخلها.

رزق هو الذى أعطانى حق لمس علبته، وهو الذى فتحها لى لأرى ما بداخلها.. فقد كنت صديقه الوحيد.. وقد تعودت عبطه

منذ طفولتي حتى لم أعد أعتبره عبيطا، بل كنت ألعب معه وأتحدث، كما ألعب وأتحدث مع بقية أطفال القرية.. وقد حدث وأنا في العاشرة من عمري، ورزق يكبرني بحاولي عامين.. أن التفت بعض الأطفال حوله وهم يصرخون «العبيط أهو.. أهو» وبدأوا يقذفونه بالحجارة.. ثم يقتربون منه ويصفعونه على قفاه.. وهو يجرى منهم بقدمه العرجاء، وكتفه الكتعاء، ويصرخ صرخات كصرخات الأخرس، ويرفع إحدى يديه في الهواء ليحمي رأسه من الطوب.. ويده الأخرى تحتضن الصندوق الصفيح.. وجئت أنا ساعتها بالصدفة.. فاشتبكت مع الأطفال في معركة دفاعا عن رزق.. ضربتهم.. ولكنهم ضربوني أيضا.. وأسالوا الدم من وجهي.. وبعد أن أنصرف المعتدون.. سرت إلى المصرف وأنحيت أغسل وجهي من دمائي، ورزق بجانبى ينظر إلى نظرات حب. حب لم أراه في عيني أى صديق حتى اليوم.. وفمه مفتوح يسيل منه لعابه.. ثم جذب اللعبة الصفيح من تحت إبطه.. ومد يده بها إلي.. ولمستها كأنى أتبرك بها.

واتسعت الابتسامة البلهاء بين شفتيه.. ثم اقترب منى أكثر.. وتلفت حوله فى تردد وخوف، وعندما لم ير أحدا حولنا، فتح غطاء اللعبة أمامى.. كأنه يفتح لى حياته كلها لشاركه فيها.

وكبرت.. وكبر رزق، وعاهته تكبر معه.. وكلما كبرت عاهته استأنسها أكثر.. أصبحت أحس بأن رزق ليس عبيطا.. كما يقول أهل القرية.. وليس متعابطا أيضا.. ولكن فى عبطه خيطا من النظرة المباشرة إلى الأعماق.. وجراءة عجيبة لا تتوافر فى أحد من أهل القرية.. جراءة تصل به إلى الصدق مباشرة دون

لف أو دوران.. جرأة العبيط.. ربما لم يكن عبيطا إطلاقا ولكنه
فيلسوف رفعته فلسفته فوق مستوى البشر فبدأ كالعبيط..
جريئا، أمعن في جرأته إلى حد أن الناس لم تعد تصدق
جرأته.. لابد أن هذه الجرأة هي أحد مظاهر العبيط.. ولا بد أنه
عبيط.

وكان رزق هو الوحيد من أهل القرية، بل من أهل المديرية
الذى يستطيع أن يسب سعادة كامل بك مرتضى، ناظر دائرة
الأمير ولى الدين سامح.. ويسبه فى وجهه.. وقد وقف أمامه
مرة وهو يهم بركوب «الكرتة»، وصرخ :

- يا راجل بطل أكل العيال.. أحسن تطق تموت.. العيال
لحمهم مسموم!

ورفع شيخ الخفر كفه الغليظة وهوى بها على قفا رزق..
وكنتم بقية الفلاحين الذين سمعوه ابتساماتهم.. وما كاد سعادة
البيه الناظر يتعد حتى انطلقوا يضحكون على عبط رزق..
ولكنى واثق أنهم بلا وعى منهم كانوا يحسون فى أعماق
ضحكاتهم بطعم مر.. طعم الصدق الذى نطق به رزق.. فسعادة
البيه كان يأكل عيالهم فعلا.. أرزاق عيالهم.. حتى أبى.. الشيخ
محمد القماش، بكل جلالة وقاره، كان رزق يتجرا عليه
ويصرخ فى وجهه :

- أرفع رأسك يا شيخ.. اتق الله واوع تسود ذقنك البيضة..
اتق الله.. اتق الله.. اوع ذقنك البيضة تسود.

ولم يكن أبى يضحك لكلمات رزق، بل كان يطأطئ رأسه
كأنه يفكر فيها.. أو كأنه يخاف أن يضع عينيه فى عيني رزق..
وكان رزق يمر برجال القرية وهم متجمعون حول
المصاطب فى المساء، فيقول محيا :

- العواف يا نسوان.

وأحيانا أخرى يمر بهم فيقول :

- مساء الخير يا رجالة.

ولم يكن أحد منهم يدرى متى يحييهم رزق تحية
«النسوان» ولا متى يحييهم تحية «الرجال» فهم يضحكون
دائما كلما مر بهم، وكلما قرأ عليهم التحية.. ولكنى كنت واثقا
بأن كلا منهم كان يحس أنه تصرف فى يومه تصرف
النسوان، عندما يحييه رزق بتحية النسوان.. وتصرف تصرف
الرجال عندما يحييه رزق بتحية الرجال.
وكان رزق فى نظرى - برغم عبطه - هو أكثر الناس فهما
لمشكلة قريتنا.

ومشكلة قريتنا كانت فى وجودها ضمن دائرة الأمير ولى
الدين سامح.. وقد كانت حدود دائرة الأمير فى الماضى، تقف
خارج حدود المركز.. ولكنها بدأت تمتد، وتتسع.. فكان كامل بك
مرتضى يشتري الأرض من أصحابها ويضمها إلى أملاك
الدائرة.. حتى اشترى كل الأراضى المحيطة بقريتنا.. والناس
تبيع إما عن حاجة للبيع، أو تحت ضغط التهديد والإرهاب
ومضايقات الجهات الرسمية.. ثم بدأ كامل بك مرتضى يزحف
على زمام قريتنا.. وكان فيها خمسة ملاك سقطوا بسرعة
الواحد بعد الآخر.. لم يبق منهم سوى أبى.. الشيخ محمد
القماش.. والأربعين فدانا التى يملكها.

ووقف أبى فى عناد يرفض أن يبيع أرضه.

وفشل كامل مرتضى فى إغرائه بالمال.. لقد عرض عليه فى
الفدان الواحد، ألف جنيه.. ولكن أبى ظل على عناده.
واشتعلت الحرب بينهما.

كل ما يمكن أن يفعله كامل مرتضى، فعله.. سرق منا البهائم، وكان كل من فى القرية يعلم أن رجال الدائرة هم الذين سرقوها.. وسلط علينا بنك التسليف.. و.. وفعل الكثير.. ولكن أبى ظل صامدا فى قسوة.. وكان يستمد قوته من أهل القرية أنفسهم.. فقد كانوا يؤمنون به.. يؤمنون به كعالم وفقه فى الدين.. ويؤمنون به كزعيم.. ويؤمنون به كولى من أولياء الله الصالحين.. وكانوا يلجأون إليه فى أخص شئونهم.. حتى المرأة التى يمتنع زوجها عن معاشرتها كانت تلجأ إليه.. ولم يكن هذا الإيمان عن خداع، أو عن بله، فقد كان أبى يحب أهل قريته فعلا، ويتعصب لهم، وقد عاش فى القرية طول عمره، لا يغيب عنها إلا يوما أو يومين كل عام يذهب خلالهما إلى المركز أو إلى القاهرة.. ثم يعود إلى القرية، لينحنى كل أهلها - رجالها ونسائها وأطفالها - يقبلون يده.. وقد زادهم موقفه من ناظر الدائرة وتحديه له، إيمانا به.. وبيته مفتوح لهم جميعا.. لكل أهل القرية.. وفى كل مساء كانت توضع صوانى العشاء فى القاعة الكبرى، ويلتف حولها كل من يريد من أهل القرية.. عشرون.. ثلاثون.. أربعون.. وقبل أن توضع أطباق الطعام فوق الصوانى، كان أبى يدخل إلى القاعة بقامته المهيبة، وذقنه الناصعة البياض، وفى يده عود صغير من الحطب ويدور بين الجالسين، ثم يلمس كتف أحدهم بعود الحطب، ويقول فى صوت وقور هادئ :

- قوم أنت روح يا أبو اسماعيل.

ويحنى أبو اسماعيل رأسه ويقوم يجرى خارج القاعة متعثرا فى جلبابه وعيناه ساقطتان بين قدميه.
ثم يلمس أبى كتفا آخر بعود الحطب :

- روح يا واد يا شحاتة.

ويخرج أبى من بين الجالسين خمسة أو ستة، وأحيانا لا يخرج أحدا، ثم يتصدر القاعة، ويأكل مع أهله.. أهل قريته. وكان كل من فى القرية يخشى لمسة عود الحطب الذى يحمله الشيخ محمد القماش، أكثر مما يخشى حبل المشنقة.. فقد كانت هذه اللمسة تعنى غضب الله.. فالشيخ القماش ولى من أولياء الله، فإذا طرد أحدا من بيته، فقد طرد من بيت الله.. من جنة الله.. وحق عليه العذاب المقيم.. وكان هذا هو اعتقاد أهل القرية فعلا.. وكانوا يجلسون حول صوانى العشاء قبل أن يدخل أبى، وهم يرتعشون، كل منهم ينتظر حكم الله ويخشى غضبه ونقمته.. ولكن الواقع أن أبى لم يكن يتصرف هذا التصرف إيمانا منه بأنه فعلا ولى من أولياء الله.. ولا افتعالا لصورة من صور الشعوذة التى قد تجوز على عقول الفلاحين، ولكنه كان يطرد من بيته كل من يعلم أنه باع نفسه للدائرة وأصبح عميلا لها ينقل إليها الأخبار، ويشترك فى مؤامراتها، ولم يجد عقابا لمثل هذا الإنسان أخف من أن يحرمه من الأكل على مائدته.. ولم يكن أبى يهمله أن يبيع الفلاح عمله للدائرة، فالفلاح يجب أن يعمل مهما بخس أجره، وما دامت الدائرة هى التى تملك كل الأرض فهو مضطر أن يعمل لها.. ولكن هناك فرقا بين أن يبيع الإنسان عمله، وأن يبيع نفسه.. ولم يكن أبى يعاقب إلا من يبيع نفسه.. وهو عقاب لم تكن قيمته الحرمان من الطعام، فالطعام الذى كنا نقدمه لم يكن دسما، ولم نكن أغنياء إلى حد أن نقدم طعاما دسما لكل هؤلاء الناس كل ليلة.. ولا كان العقاب يقصد به أبى أن ينزل غضب الله على أحد، ولكنه كان عقابا أدبيا، فكل من كان يطرد من بيت القماش، كان

يزدري من أهل القرية جميعا.. وكثيرون منهم كانوا لا يطيقون هذا العقاب طويلا. فيعودون إلى بيتنا بعد أسبوع أو أسبوعين بعد أن يتطهروا ويستردوا نفوسهم.. وكان أبي يحس بمن تطهر منهم فيفسح له مكانا واسعا حول صوان العشاء.. والذين لا يتطهرون كانوا غالبا ما يرحلون من القرية إلى إحدى القرى الأخرى التي تقع في أملاك الدائرة. كانت هذه هي قوة أبي.

وقد حدث يوما أن أمر كامل بك مرتضى رجاله بقطع المياه عن أرضنا.. وأمر بتشغيل مكينات الري التي تملكها الدائرة ليل نهار حتى تشفط كل المياه قبل أن تصل إلينا.. وكانت هذه المياه تلقى في أرض ليست في حاجة إليها.. بل كانت تفسد الأرض التي تلقى فيها.. إلى هذا الحد بلغ العناد.

وفي المساء خرج رجال القرية صامتين، وكل منهم يحمل طنбора أو جردل شادوف.. جمعوا كل طنابير القرية، وسرقوا بعضهم من مخازن الدائرة.. ثم تسلل بعضهم إلى أرض الدائرة، وغطسوا في التربة ونزعوا منها مواسير مكينات الري.. ثم ألقى الرجال بالطنابير والشواديغ في مياه «الجنابية» التي تدفقت فيها المياه، وبدءوا يعملون.. أكثر من عشرين طنбора وعشرين شادوفا.. عملوا طول الليل.

وفي الصباح، كانت أرضنا كلها قد ارتوت. وكان الرجال قد رفعوا الطنابير وجردل الشواديغ، وأعادوا مواسير المكينات إلى مكانها. و.. وجن كامل مرتضى.

وعاد كامل مرتضى وأصدر أمرا بأن كل من يعمل من الفلاحين في أرض الشيخ القماش، لا يعمل في أراضي

الدائرة.. وأصبح يسلط عليهم رجال المركز.. ولم نياس..
أصبح الرجال يعملون في أرضنا بالليل.. دون أن يدري أحد.
حوادث كثيرة.

وأخي عبدالرحمن يحمل بندقية ومعه أثنان من رجالنا،
يطوفون طول الليل حول الأرض، وزريبة البهائم، والمخزن،
ليصدوا اعتداءات رجال الدائرة.
وبرغم ذلك.

برغم كل ذلك.

لم يكن أبي ثائرا على الأمير.. الأمير ولي الدين سامح..
كان ثائرا على كامل بك مرتضى وحده.. وكان يؤمن بأن
لو انزاح كامل بك مرتضى من منصبه، فستتصلح الأمور.. بل
كان أبي يكتب كثيرا من العرائض والاسترحامات إلى الأمير
يشكو له ظلم ناظر الدائرة، ويطالب بعزله.. بل إن أبي حاول
أكثر من مرة أن يتفاوض مع كامل بك مرتضى وذهب إليه في
السراي بنفسه أكثر من مرة.
وفي آخر مرة ذهبت معه.

ذهبنا إلى سراي الأمير التي تقع فيها مكاتب الدائرة.
وجلست بجانب أبي على دكة خشبية بجوار باب مكتب
كامل بك مرتضى.. جلسنا طويلا.. من الساعة العاشرة صباحا
حتى الثانية بعد الظهر.. لم يقدم خلالها فنجان قهوة إلى أبي..
ولا أهتم به أحد.. ثم فجأة فتح باب المكتب وخرج كامل
مرتضى، منقوشا، سميئا، له كرش ضخمة، ووجهه لون
طربوشه الطويل المعوج فوق رأسه، ووقف أمام أبي ينظر إليه
في قرف، وقد هم أبي واقفا أمامه.. وقال كامل مرتضى في
عجرفة تنطلق من أنفه كالصفير :

- نعم.. افندم.

وقال أبى فى دعة :

- أنا قلت يمكن سعادتك مش عارف اللي بيحصل آيه،
أصل..

وقاطعه كامل مرتضى صارخا :

- أنا عارف كل حاجة.. اسمع يا راجل يا دجال أنت، إذا
ما كنتش حتبطل نمردة، وتمشى زى الجزمة القديمة، أنا
حاوديك فى داهية، حاحط ذقنك فى الطين.. فاهم.
وارتعش أبى فى غضب، وقال فى صوت يحاول جهده ألا
يكون صارخا :

- أنت ما تقدرش تعمل حاجة.. فيه اللي أكبر منك.. واللى
أكبر من اللي أكبر منك.

وصرخ كامل مرتضى :

- أنت بترد على يا راجل يا دجال.

ثم رفع كفه وهوى بها على صدغ أبى.

ووجدت نفسى أهجم على كامل مرتضى أضربه بيدي فى
كرشه، وأضربه بقدمي فى ساقه.

وكامل مرتضى يصرخ :

- امش اطلع بره.. خدوا الراجل ده بره.

وأبى حنى رأسه صامتا.

وجذبنا رجال الدائرة إلى الخارج.

وظل أبى صامتا، وأنا صامت بجانبه أقاوم دموعي بكل
إرادتي، وما كدنا نقترّب من القرية، حتى تركته، وجريت إلى
شجرة الجميز، وألقيت بنفسى تحتها.. دفنت رأسي فى
ترابها.. وبكيت.. بكيت كثيرا.

وعندما انتهت كل دموعي، ورفعت رأسي، وجدت رزق جالسا بجانبى ينظر إلى بعينين حزينتين، وفمه مفتوح إلى آخره يسيل منه لعابه.. وقلت وأنا مازلت أنهنه بالبكاء :

- ضربوا الشيخ القماش يا رزق.. الرجل ضرب أبويا.. ضربه قدامى..

وأحسست بأسياخ حادة من الكراهية تنطلق ساعتها فى صدرى.. الكراهية والحد.. الحد على كامل مرتضى.. وعلى الأمير.. وعلى الملك.. وعلى الدنيا كلها.

ورزق ينظر إلى صامتا.

ثم لمعت عيناه فجأة.. انزاحت منهما النظرة الحزينة، وحلت محلها نظرة مرحة ضاحكة.. ثم أخرج من عب جلاببه الممزق القدر، حبة جوافة، وقال فى بلاهة :

- خد دى.

ولا أدري لماذا نظرت إلى رزق ساعتها كأنه منقذى الوحيد. وأخذت منه حبة الجوافة صامتا، وفى عيني تساؤل، كأنى أسأله عن الطريق.

وبعد يومين.

يومين فقط.

استيقظت القرية كلها على لهب حريق كبير، يشتعل هناك.. بعيدا.. فى زراعة الدائرة.. وخرج الناس كلهم إلى أطراف القرية يراقبون السنة النار وهى تلتهم فى سرعة وجنون أعواد القمح الصفراء التى كانت على وشك الحصاد.. وأتفت أبحث بين الناس عن رزق.. ولكن رزق لم يكن بين الناس.. ولم يهتم أحد غيرى بالبحث عنه.

واستمر الحريق يوما وليلة.. والتهم أكثر من مائة فدان قمح. فقد كانت الأعواد جافة والرياح هائجة.

وجن كامل مرتضى.

وجن الأمير في القاهرة.

وجنت وزارة الداخلية، والمدير، والمأمور، والضابط، والعمدة، وشيخ الخفر.

ودار تحقيق قاس سريع.

وكان يمكن أن يقبض على أبي.. ولكن أبي كان قد سافر منذ يومين إلى القاهرة ليحاول أن يقابل الأمير ليشكو له كامل مرتضى، وثبت أنه قضى هذين اليومين على باب الأمير.

لم تثبت التهمة على أحد.

حجزوا العشرات في المركز، ولم تثبت التهمة على أحد.

ولم يكن أحد يعلم من أشعل الحريق.. أبي كان صادقا وهو يقسم أنه لا يعلم من الجاني.. وكل الناس لا يعلمون. أنا وحدي الذي كنت أعلم.

إنه رزق.

وذهبت ليلة الحريق أبحث عن رزق في كل بيت من بيوت القرية، فلم أجده.. وذهبت إلى شجرة الجميز وانتظرته تحتها.. انتظرته طويلا.. وعند الفجر رأيته قادما من بعيد يعرج على ساقه اليمنى، ويرفع كتفه الكتعاء، وصندوقه الصفيح تحت أبطه.. وما كاد يقترب حتى لمحت عينيه متسعيتين اتساعا غريبا، تطلان من خلال الطين الذي يكسو وجهه وتلمعان لمعة الجنون، وصرخ بمجرد أن رأيته :

— شفت النار يا مأمون.. النار.. النار.. النار أكبر من كرش كامل مرتضى.. أكبر.

وجلس بجانبى تحت الشجرة.
وقلت له مبتسما كأنى أستدرجه :
- كنت فين يا رزق ؟
ونظر إلى بعينيه المجنونتين، ثم قال بصوته المحشرج الذى
يتعثر فى عاهته :
- النار يا مأمون.. النار.. النار..
ثم مدد جسده على الأرض، وألقى رأسه على ساقى، ونام..
كالطفل البرىء.. وفمه لا يزال مفتوحا ولعابه يسيل.. وعلبته
الصفيح الصدئة فى يده يضغط عليها بكل أصابعه.
وركزت عيني فوق العلبة الصفيح.
إنى أعلم ما فيها.
أنا الوحيد فى القرية كلها الذى يعلم ما فى العلبة الصفيح
الصدئة.

وقد حفظت سر رزق.
ومع الأيام حفظ التحقيق فى حادث الحريق، وأضيف إلى
رصيد كرامات أبى كرامة جديدة، فقد انتشرت بين الفلاحين
قصة تقول إن الشيخ القماش ذهب وهو فى القاهرة إلى
ضريح الحسين، وأشعل عودا من الثقاب وألقاه فى الهواء،
فسقط العود مشتعلا فى بلدنا وأحرق قمح الدائرة.



وزوجوا «سبيلة» وهى فى الرابعة عشرة من عمرها..
زوجوها إلى كلاف كأبيها يعمل فى زرائب الدائرة.
واستسلمت لزواجها.. حاولت قدر طاقتى أن أقنع نفسى
بأن الأمر لا يهمنى.. تجمدت.. وازددت انطواء تحت الجدار
الأسود العالى الذى يفصل بينى وبينها.. وأصبحت أتعمد أن

أتجنبها.. ألا ألتقى بها.. كأنى كنت أخشى لو واجهتها أن ينهار
الجدار العالى.. كأنى فى دخيلة نفسى كنت حريصا على
الإبقاء على هذا الجدار العالى أكثر من حرصى على الإبقاء على
حبنى.

ولكننا التقينا.. فى صباح يوم زواجها.. التقينا فى حوش
دارنا.. ووقفت أمامى صامدة، تنظر إلى بعينيها المستغيثتين..
وكانت استغاثتهما فى هذا اليوم أكبر وأعنف.. استغاثه
كالصراخ.. ولم أستطع أن أواجه نظرتها طويلا.. ماذا أستطيع
أن أفعل.. كيف أغيتها وأغيت نفسى.. لا شيء أستطيعه.. هذه
الجدر العالية قائمة، وستظل قائمة.. إنها أقوى منى ومنها..
ومن القرية كلها.. ومن مصر كلها.. ومن العالم أجمع..
وتمتت :

- حاتتجوزى الليلة يابت.

وأكدت على كلمة «بت» كأنى أصلب الجدار العالى الذى
يقف بينى وبينها.

ولم ترد على .. ظلت تنظر إلى بعينيها المستغيثتين.
وعدت أتمتم :

- والله كبرتى واتجوزتى يا سبيلة.. مبروك..

ولم ترد على أيضا.. وسحبت عينيها المستغيثتين وجرت
من أمامى، قبل أن أرى دموعها.

وأصبحت لا أطيق حياتى فى القرية.

بدأت أشعر بطاقة ثورية هائلة تتللمل فى صدرى، وتهدر
كأنها بركان على وشك الانفجار.. لم يعد شيء يرضينى،
ولا شيء يكفينى.. وهذا الشعب الصغير الذى يحيط به -
شعب القرية - أصبح يمثل حدودا ضيقة تلتف حولى كقضبان

السجن.. وعناد أبى وصلابته لم يعد يكفى لإقناعى.. إنى اتطلع إلى حدود أوسع.. إلى معركة أكبر.. وفترات طويلة من الزهق، والملل تنهشنى .

إلى أن نلت الشهادة التوجيهية ، والتحقت بكلية التجارة ، وانتقلت إلى القاهرة لأقيم فى شقة صغيرة استأجرها لى أبى فى حى المنيرة.

وخلال الأسابيع الأولى من إقامتى فى القاهرة التقيت بعبد الحميد أبو الذهب.. طالب فى كلية الحقوق.. يكبرنى بثلاثة أعوام.. من عندنا.. من الدقهلية.. وهو جاد فى مظهره.. تبرق عيناه الضيقتان وسط وجهه الأبيض، وشفتاه الرفيعتان مزمومتان دائما كأنه يخفى خلفهما قنبلة، وأنفه الكبير مشفوط دائما كأنه يضيق بالهواء الذى يتنفسه وشعرات قد سقطت عن رأسه كأنها احترقت بنار فكره.. وبرغم مظهره الجاد فلم يكن عبد الحميد متزمتا لا ثقیل الظل، بل كان يبدو أحيانا مرحا، وكان يشارك زملاءه فى لهوهم وفى لعب البوكر والكونكان والكومى.. وكانت له قدرة عجيبة على اكتساب قلوب الناس.. وهو لم يكتسب قلبى فحسب، بل كسب اقتناعى.. وعلمنى.. علمنى الثورة.. وربما كان أول ما تعلمته منه هو أن كل هذه المظاهر السياسية والاجتماعية التى تحيط بى، ليست ظواهر طبيعية.. ليست حقائق علمية كدوران الأرض، وشروق الشمس.. ولكن الذى يصنع الحياة السياسية والاجتماعية هو الإنسان.. وهى تتشكل حسب قيمة الإنسان فى بلده.. حسب قدرته.. وحسب حاجته.. حسب ضعفه أو قوته.. واقتنعت.. اقتنعت بأن الملك ليس جالسا على عرشه لأن الطبيعة أرادت له أن يجلس عليه.. وهذه الأحزاب ليست كواكب نثرها الله فى

السماء.. وهذه الشخصيات الزعامية التي كانت تملؤنى رهبة وأنا أردد اسمها فى القرية، ليست شخصيات أنبياء، ولا رسل، ولا عباقر، إنها مجرد ناس.. وكل شىء يمكن تغييره.. أسهل مما تغير فردة الحذاء.

وبدأت تجتاحنى شهوة عارمة للتغيير.. تغيير كل شىء.. حتى التقاليد الاجتماعية التى عشت حريصا عليها طول عمرى، يجب أن تتغير.. والسخط يستبد بى.. سخط عنيف يعذبنى.. يحرقنى.. وينطلق كالألسنة النار ليحرق كل من حولى.. وكفرت بكل شىء.. كفر فيه مقت، وفيه كراهية، وفيه ازدراء.. لم أعد أومن بشىء إلا بمعان مجردة، ليس لها شكل، وليس لها مقر.. الحرية.. العدالة.. الشعب.. التقدم.. و.. و.. وأسير دائما خلف عبدالحميد.. يأخذنى معه إلى اجتماعات الثوار.. وأشترك معه فى تدبير المظاهرات، وطبع المنشورات وتوزيعها، وتدبير عمليات التخريب.. وكنت عنيفا حادا، واكتسبت اسما كبيرا بين ثوار الطلبة، وقبض على أكثر من مرة.. ويفرج عنى لأعود أكثر عنفا وحدة، ومجال ثورتى يتسع أمامى.. إنه يتسع ليشمل مصر كلها.. ولكنى مازلت أحس فى قرارة نفسى بأن كل هذه الثورة تنطلق من قرىتي.. وأن أساس كل التغييرات التى أسعى إليها هو تغيير ما يجرى فى قرىتي.. أن أعزل كامل مرتضى.. وأن أذل الأمير ولى الدين سامح.. وأن أهدم أملاك الدائرة التى تحاول أن تمتد لتبتلع الأربعين فدانا التى نملكها.



وجاءت أمى لتزورنى فى القاهرة تحمل أسبطة الفطير المشلتت، والزبد والقشطة، والعسل، وقفص الفراخ والبط، وتجر وراءها سبيلا.

نعم، سبيلة.

حبيبتي سبيلة.

ونظرت إلى سبيلة فى هلع.. كنت أعلم لماذا جاءت بها أمى إلى.. فقد جرت التقاليد فى طبقتنا - طبقة أعيان الريف - عندما ترسل أحد أولادها إلى القاهرة ليتعلم، أن ترسل معه امرأة من الفلاحات.. قد تكون مطلقة، أو قد تكون زوجة.. ولا تكون أبدا بكرا.. لتخدمه، ولتشبع شبابه حماية له من نساء المدينة.. إنها تقاليد يقرها الآباء والأمهات ويقرها الفلاحون.. تقاليد، حتى لو كانت فى حقيقتها نوعا من الدعارة السرية.

وحاولت أن أجادل أمى :

- ليه يا أمه جبت معاك سبيلة.

ونظرت إلى أمى وقد شق وجهها الطيب ابتسامة خبيثة :

- أهى يا بنى تخدمك بدل ما تحتاج لحد من بتوع مصر..

دى بنت زى الجن.

قلت :

- بس دى مسئولية.. وأنا طول النهار برة البيت.. وأخاف

أسيبها لوحدها .

وقالت أمى وذكاؤها الطيب المسكين يلمع فى عينيها،

وابتسامتها الخبيثة تتسع :

- ما تخافش.. أنا ضمنها.. يعنى مش عارف سبيلة.

وعبثا حاولت إقناعها.

وقد عادت أمى إلى القرية بعد أيام، ورفضت بإصرار أن

تأخذ معها سبيلة.. تركتها لى.

وقضيت الليلة الأولى أتقلب فى فراشى.. عروقى تتمزق..

ضلوعى تنطبق على صدرى.. أكاد لا أستطيع أن ألتقط

أنفاسى.. وسبيلة راقدة فى المطبخ، على البلاط.. هل يمكن أن
أدعوها إلى فراشى.. هل يمكن أن ينقلب كل هذا الحب الذى
عشت فيه عمرى كله، إلى مجرد امرأة فى الفراش.

وقمت من فراشى وخرجت من الغرفة.. لا أدري لماذا.. ربما
أقنعت نفسى بأنى فى حاجة إلى كوب ماء.. وما كدت أفتح
غرفتى حتى وجدت سبيلة مكومة على الأرض بجانب الباب..
ورفعت إلى وجهها الذى يختلط فيه لون الأرض بلون المرض،
وفى عينيها هذه النظرة المستغيثة.

إنها تعلم لماذا جاءوا بها إلى.
إنها تعرف دورها، وقد ارتضته، كالقدر.
ووجدت نفسى أصرخ فيها وأنا أرتعش :
- قاعدة هنا ليه يا بت.

وقالت وهى تهب واقفة وتقف مرتعشة كعرشتى :
- يمكن تكون عايز حاجة يا سى مأمون.

ودون أن أدري، رفعت يدي وهويت على صدغها.. ثم أنهلت
عليها ضربا.. لم أكن أضربها.. كنت أضرب هذه التقاليد..
أضرب هذا الذل.. أضرب نفسى.. وأضرب حبي.. وأنا أصرخ :
- اوعى تانى مرة تخرجى من المطبخ من غير ما قولك..
انجرى قدامى.

وجرت من أمامى مذعورة.
ومضت ثلاث ليال وأنا أتعذب.
أتعذب بثورتى.
وأتعذب بشبابى.
وأتعذب بحبى.
وأتعذب بهذه التقاليد.

ثم لم أعد أطيع.. استيقظت فى الصباح، وصرخت فيها :
- لى هدومك يا بت.

ثم أخذتها وهى مستسلمة ودموعها تنبثق من عينيها
المستغيثتين، وعدت بها إلى القرية.. ركبت معها القطار حتى
محطة المركز، ثم تركتها تسير وحدها إلى الكفر وهى تتعثر
وتنتفض كالعصفور المبلل المكسور الجناح.. ولم أدخل أنا
القرية.. انتظرت فى محطة المركز حتى ركب القطار الذى عاد
إلى القاهرة.



ومرت سنوات.

سنوات عنيفة.. وثورتي تزداد حدة وتهورا.. لم أعد أرى
شيئا إلا بريق الثورة.. ولم أعد أريد شيئا إلا أن تشتد عاصفة
الثورة حتى تقتلع كل الأشجار، وكل البيوت وكل الجذور..
ودخلت السجن مرة أخرى.. وفى هذه المرة علم أبى، فجاء إلى
القاهرة ليتوسط حتى يفرج عني.. يتوسط لدى من.. لدى
الأمير ولى الدين سامح.. وقد أفرج عني فعلا، ولا أدري هل
أفرج عني بفضل وساطة الأمير، أو لأن الحكومة رأت الإفراج
عني بلا وساطة.. لا أدري.. ولكنى أحسست بدمائى كلها
تنزف من أعصابى عندما علمت أن أبى كان يتوسط لى لدى
الأمير.. إنه لا يعلم أن ثورتي ثورة على الأمير.. إنه لا يعلم أنى
سأسير إلى آخر الطريق حتى أحطم هذا الأمير، وكل الأمراء..
سواء سجنتم أو شنقت.. ومن هذا اليوم تعودت أن أحتفظ فى
البيت بمجموعة من الخطابات كتبتها مقدما إلى أبى، حتى إذا
سجنتم مرة أخرى تولى أحد أصدقائى إرسالها إليه الواحد بعد
الأخر، فيطمئن إلى أنى خارج السجن.

وأذكر أيامها أن أبى سألنى بعد أن أفرج عنى، وهو جالس
فى شقتى بالمنيرة، ومسبحته بين يديه، والوقار والهيبة
يكسوان وجهه، ولحيته البيضاء تشع نورا :
- أوعى يا بنى تكون شيوخى.

وسكت.. ترددت.. لم أدر بماذا أجيبه.. وعاد صوت أبى
الوقور يردد :

- إوعى يا بنى.. دول كفرة وملحدين.

وقلت فى اختصار وأنا أدير عينى عنه :

- لا.. مش شيوخى.

والواقع أنى لم أكن شيوخيا.. ولم أكن أيضا شيئا آخر..
لا شيوخى.. ولا إخوانى.. ولا وفدى.. ولا دستورى.. فقط
ثائر. ثائر من أجل المعانى المجردة التى تملأ رأسى، وقلبى،
وأعصابى.. الحرية.. العدالة.. التقدم.. مصر.

والثورة تستبد بى.

إلى أن حدثت.

تحققت ثورة ٢٣ يوليو.

وبسرعة.. أسرع من خيالى.. سقط كل شيء كالأوراق
الهشة المحترقة.. سقط الملك.. وسقط الأمراء.. وسقطت
الأحزاب.. وسقط كامل بك مرتضى.. وسقطت دائرة الأمير..
لقد استولت الثورة على كل الأرض، ووزعتها على الفلاحين..
صغار الفلاحين.

وذهبت إلى قريتنا لأحضر الاحتفال بتوزيع الأرض.

ولم يشهد أبى هذا اليوم.. لقد مات فى يوم ٢٦ يوليو.. بعد
الثورة بثلاثة أيام.. ودفنوه تحت هذه القبة الخضراء.

وفى هذا اليوم.. يوم الاحتفال بتوزيع الأرض.. اقترب منى

رزق العبيط، وفمه مفتوح، ولعابه يسيل، ثم نظر إلى بعينين خيل إلى أن فيهما لمحة من الخوف، وصاح كأنه رأى فى وجهى شيئاً أخافه :

— حاسب يا مأمون.. حاسب لتقع.

ثم ضحك ضحكة كبيرة كريهة وانصرف عني بسرعة كأنه يخاف منى.

ولم أعلق يومها أهمية، لما يقوله رزق.. إنه عبيط. وعدت إلى القاهرة وأنا أشعر براحة.. راحة عميقة حلوة شملت كل كيانى.. ارتخت أعصابى.. وهدأ قلبي.. وخمدت النار فى رأسى.. إنى أحس أنى أدت واجبى وانتهيت.. من حقى الآن أن أستريح.

ونعمت بهذه الراحة.

ولعلى نسيت قريننا.

تركت لأخى عبدالرحمن الأربعين فداناً كلها ليديرها.. وبقيت أنا فى القاهرة. مستريحاً.



وسنوات الراحة تتوالى.

وكان صديقى عبدالحميد قد عين رئيساً لمجلس إدارة شركة المعادن، ولم يرشحه لهذا المنصب كفاءته فهو كخريج فى كلية الحقوق ومحام سابق، لا يفهم شيئاً فى المعادن، وإن كان يدعى الفهم.. ولكن رشحه لهذا المنصب ماضيه الثورى، وهو ماض لا يستطيع أحد إنكاره.

وعيننى عبدالحميد، مديراً عاماً للشركة.. فى الواقع أنه عين فى الشركة كل أفراد شلتنا القديمة.. إن العمل يتطلب تفاهما

وتجانسا بين القائمين به خصوصا فى هذه المرحلة التى نجتازها، ولا يمكن أن يتحقق التفاهم والتجانس أكثر مما يتحقق بين أفراد الشلة الواحدة التى تزاملت منذ أيام الدراسة. وانتقلت من شقتى فى المنيرة.. إلى شقة كبيرة أنيقة فى الزمالك تطل على نادى الجزيرة.. شقة من شقق الحراسة دلتى عليها صديقى عبدالعزیز رفعت عضو مجلس إدارة شركة الحياة للتأمين، وهو من الثوار القدماء أيضا.. إنها شقة لقطة.. خمس غرف، والإيجار اثنا عشر جنيها فى الشهر.. ولم أرفع خلو رجل.. ولكنى كنت محتاجا لحوالى ألفى جنيه لأشتري أثاثا يليق «بالديكور» الذى تركه فيها صاحبها السابق الخواجة الذى هاجر من مصر.. وكان هذا سهلا أيضا فقد اقترضت المبلغ من بنك النهضة، بضمنان صديقى على المرجوشى، عضو مجلس إدارة البنك، وهو أيضا صديق قديم من الثوار. إن تأثيث شقة ليس أمرا هينا كما كنت أعتقد.. لقد قضيت ستة أشهر مشغولا بتأثيثها قبل أن أستطيع الانتقال إليها، والإقامة فيها.

وأخذنى صديقى عبدالحميد إلى النادى يوما.. نادى الجزيرة.. ليعرفنى بخطيبته الأنسة نيفين.. إنها ابنة فؤاد باشا خليل.. باشا سابقا طبعاً.. وكل شىء فيه سابق.. إنه وزير سابق من وزراء ما قبل الثورة.. وصاحب ألف فدان، سابقاً.. وصاحب نفوذ، سابقاً.

وعندما قدمنى عبدالحميد إلى نيفين، قدمنى أيضا إلى شقيقته مرفت.. وبسرعة أحسست كأنى واحد من العائلة.. عائلة مرفت.. أحسست بنفسى كأنى كنت أعرفها دائما.. كأنى كنت أبحث عنها دائما.. أتطلع إليها.. أتمناها.. إننا نتحدث حديثا

واحدا.. ونبدو كأنى أنا وهى تربينا فى بيت واحد.. ومررت
بخاطرى صورة السنين الماضية عندما كان يقف بينى وبين
مرفت جدار أسود عال.. جدار يفصل بين شاب يمتلك أبوه
أربعين فدانا، وفتاة يمتلك أبوها ألف فدان.. ووزير.. ولكن
الثورة حطمت هذا الجدار.. حطمت الجدار الذى يفصل بينى
وبين مرفت.. ولكن.. الثورة لم تحطم الجدار الأسود الذى
يفصل بينى وبين سبيلة.. لم تحطم الجدار الذى يفصل بين
«سى» و«اللاسى».. و..

وطردت كل هذه الخواطر من رأسى بسرعة.. مالى ومال
سبيلة الآن.. مالى ومال القرية.. إن عملى ومستوليتى هنا فى
القاهرة.

ولم أكن أذهب إلى القرية خلال هذه السنوات إلا مرة أو
مرتين فى العام.. لأقضى فى كل مرة، يوما أو يومين.. وكان
رزق العبيط كلما ذهبت يجرى إلى وهو يعرج بقدمه اليمنى،
ويرفع كتفه الكتعاء، العلية الصفيح الصدئة تحت إبطه، ثم
يخلق فى وجهى، ويصرخ بصوته المشلول :
- والله وقعت يا مأمون.

ثم يعود ويجرى من أمامى كأنه يهرب منى، وضحكته
المجنونة تمزق أذنى.

أف.. لقد بدأت أزهد من رزق.. لماذا يتركون هذا العبيط
مطلق السراح هكذا فى أزقة القرية.. إنه إنسان خطر.
وكنت أقضى اليوم أو اليومين فى القرية، وأنا أرقب أخى
ساخرا وهو يحاول أن يقلد أبى.. يجلس جلسته.. ويلبس
عمامته.. ويمسك مسبحته.. ويتحدث بصوته العميق المتزن..
ويمد فى كل ليلة صوانى العشاء. ولكن الملتفين حول

الصواني، تغيرت وجوههم.. إنهم ليسوا من أهل القرية وفلاحوها.. إنهم ضابط المركز، والعمدة، وموظفو الجمعية التعاونية، وأعضاء الاتحاد الاشتراكي، وموظفو الوحدة الاجتماعية.. و..

والفلاحون تمد لهم صوان أخرى في حوش الدار. إلى أن كانت هذه المرة الأخيرة التي زرت فيها القرية. ولا أدري كيف حدث ليلتها كل هذا.. لا أدري ماذا حدث لي، ولا أي شيطان ركبنى.. فقد ذهبت إلى غرفتي في الدار، بعد أن جلست مع أمي، وحضرت مجلس أخى.. وقبل أن أخلع ثيابي، رأيت سبيلة تمر في القاعة الخارجية، فناديتها.. واقتربت في خطوات مترددة ووقفت عند الباب، وهي تنظر إلى بهاتين العينين المستغيثتين.

وقلت لها بلهجة آمرة.. لهجة السيد.. إنى سيدها فعلا :
- خشى يا بت.

ووقفت جامدة عند الباب.

فتقدمت منها وجذبتها من يدها في عنف، وأنا أصرخ :
- باقولك خشى.

وأدخلتها غرفتي.

وأغلقت وراءها الباب.

وألقيتها على فراشي.

وشهوة قاسية، عريضة، مجنونة، تستبد بي.

لم أكن أشعر بجسد سبيلة.

ولكنى كنت أشعر بلذة قسوتى عليها.

ثم..

عندما أطلققتها.. وخرجت من غرفتي تترنح كالفرخة

المذبوحة.. أحسست بنفسي أتضاءل.. وأتضاءل.. إني صغير.
إني حقير.. وألم كوخز الإبر ينطلق في صدري.. ألم فظيع..
وانكفأت على وجهي أبكى..الرجل يبكى.. الثائر يبكى.. المدير
العام يبكى.

وخرجت في الصباح أطوف بالدار، منكس الرأس.. جلست
مع أمي وأنا لا أستطيع أن أرفع عيني إليها.. وجلست مع أخي
وأنا أنظر بين قدمي.. وقابلت الناس وجلست وجفوني
مسدلة.. كأني كنت أخشى أن يكتشف أحد أني انتهكت
عرضا.. عرض القرية كلها.

وجاء رزق العبيط إلى البيت، ونظر في وجهي ثم صرخ :
- كده يا مأمون.. كده تقع يا مأمون.

وهربت منه.

إني أخافه.

وسألني أخي في المساء قبل أن يتجه إلى القاعة حيث مدت
صواني العشاء :

- صحيح الكلام اللي بيقولوه ده.

قلت وأنا مازلت منكس الرأس :

- بيقولوا إيه.

وقال أخي في حدة :

- بيقولوا إنهم حايجددوا الملكية بعشرين فدانا.

ولم يكن سؤاله مجرد سؤال ، كان فيه تمرد، وسخط،

وتربص.. ورفعت رأسي في وجهه وفتحت عيني كأني رأيت

الطريق الذي يقودني إلى أن أرد للقرية عرضها الذي سلبته :

- ياريت يا شيخ.

وأشاح أخي بذراعه في وجهي وهو يقول :

- والله أنتم حاتودوا البلد فى داهية.
ثم قام إلى القاعة وأنا أسير خلفه، وأنظر إلى قفاه فى
شماتة.. شماتتى فيه يوم تحدد الملكية بعشرين فدانا.
وانتهى العشاء.

وانقض مجلس أخى.
وما كدنا نتصرف إلى النوم.. حتى علا صراخ عنيف فى
القرية، نزعنا جميعا من أسرتنا.. وجرينا إلى الخارج ورأينا
الناس متجمعين عند حافة القرية ينظرون إلى حريق بعيد.
إن الحريق فى أرضنا.
أرض أخى.

وهرع أخى إلى أرضه وخلفه خمسة من رجاله المدججين
بالسلاح.. وبقيت أنا فى مكانى، وعلى شففتى ابتسامة
مسكينة.. إنه نفس الحريق الذى شب منذ عشر سنوات.. ولكنه
شب هذه المرة فى أرضنا.. وأنا أعلم من الجانى.
إنه رزق.

رزق العبيط.
ولن أدل أحدا عليه.
ولكن.

لماذا أحرق رزق أرضنا ؟
وبقيت فى القرية لأكتشف ما جناه أخى عليها.
لقد استطاع أخى أن يضع جميع أفراد عائلتنا فى قائمة
المعدمين الذين وزعت عليهم الأرض، وأضاف إليهم أسماء
جميع من ظن أنهم يدينون له بالولاء.. وبعد أن تسلموا الأرض
استولى عليها لنفسه، أصبح هو الذى يزرعها.. هو الذى يعطى
الحب، والمياه، والكيماوى.. و.. و.. وفى آخر العام يختص

نفسه بمعظم الدخل، ويترك الفلاح بلا شيء.. وكان يؤجر أرضه للفلاحين بعقود سرية، ويطالب بالإيجار مقدما.. و.. و.. وضج أهل البلدة من جشع أخى.. وبدأوا يلتفون حول عوض إسماعيل.. إن عوض إسماعيل كان طفلا لا يتجاوز الثانية عشرة عندما تركت القرية منذ أكثر من عشر سنوات وهو يملك فى زمام القرية عشرة أفدنة، هو وإخوته.. وقد رفض أن يخضع لزعامة أخى وجشعه.. إنه يتحداه فى إصرار وعناد. كما كان أبى يتحدى كامل بك مرتضى.

وقبل أسبوع ذهب عوض اسماعيل إلى أخى، ليحاول اقناعه بعدالة مطالب أهل البلدة، فاحتد عليه أخى، وصفعه. كما صفع كامل مرتضى أبى.

وحرق رزق أرض أخى كما سبق أن حرق أرض الأمير. وقررت أن أعمل.. أن أتحرك.. أن أحاول استرداد صداقة الفلاحين وثقتهم بنا.. ولكن عبثا.. إنهم يستقبلوننى كما كانوا يستقبلون كامل مرتضى.. وينافقوننى.. ويكذبون على، كأنى عدو لهم لا يملكون إلا سلاح الكذب ليصدوا اعتداءه. بقيت شهرا فى القرية. ولا أمل..

ورزق ينظر فى وجهى ويصرخ :

— والله وقعت يا مأمون.

ثم يهرب منى.



وفى هذه الأثناء وقعت حادثة رزق.

لقد أراد بعض شباب القرية أن يداعبوه، فتركوه نائما تحت شجرة الجميز، وسرقوا عليه الصفيح من تحت ذراعه.

واستيقظ رزق.. وعندما لم يجد علبته، جن.. وجرى وراء الشبان، ولحق بواحد منهم، فأطبق على عنقه، وألقاه على الأرض، وظل يضغط على عنقه وهو يصيح «العلبة.. العلبه» إلى أن اختنق الشاب بين يديه ومات.

وقبضوا على رزق وهو لا يزال يصرخ بصوته المشلول :
- العلبه.. العلبه.

وهم يضربونه على قفاه.

وسجنوه فى سجن المركز.

وقد درت أياما أبحث عن علبه رزق.. العلبه الصفيح الصدئة.. إلى أن وجدتها ملقاة فوق أكوام السباح.. فحملتها وذهبت إلى المركز، وطلبت مقابلة رزق.. ومددت له يدى بها.. وما كاد يلمح علبته حتى انطلقت الفرحة فى عينيه.. والتقطها منى فى لهفة، وأخذ يمسح عليها بيده، ثم فتحها، وبعد أن اطمأن إلى ما فيها، أعاد إغلاقها.. ثم تردد قليلا ورفع إلى عينيه.. ورأيت فى عينيه هذا الحب الذى لم أره فى عينى صديق آخر.. ورأيت فى عينيه شيئا آخر.. رأيت فيهما هذه النظرة التى كان أبى يستقبل بها الفلاحين الذين يطردهم من بيته عندما يعودون إليه بعد أن يطهروا نفوسهم.. وأحسست كأن هذه النظرة.. تغسلنى.. تغسل روحى.. تغسل قلبى.. تغسل عقلى.. تطهرنى.

ومد رزق إلى يده بالعلبة، وقال بصوته المحشرج الذى تمرقه عاهته :

- خليها معاك.. أسانة.

قلت :

- دى علبتك يا رزق..

قال وهو يتسم ابتسامته البهاء :

– علبتنا احنا الاثنين.

ثم أدار لى ظهره، وتركنى، وسار بقدمه العرجاء ، وكتفه
الكتعاء، عائدا إلى سجن المركز.



والقطار يعود بى إلى القاهرة.

– العلبه الصفيح الصدئة فى جيبى.

لا أعلم إلى متى أستطيع أن أحتفظ بها، وهل لى من القوة
ما يعيننى على الاحتفاظ بها.

لا أدرى.

كل ما أدريه أنى لن أتزوج مرفت.

كل هذا الحب

متى رأيتها لأول مرة ؟ ..

لا أدري ..

ولا أدري متى اكتشفت أن مابيني وبينها

هو الحب.



لقد فتحت عيني على الحياة وهي فيها.. تسكن في حيننا..
حي حدائق القبة.. في نفس الشارع.. في البيت المجاور..
والعائلتان تتزاوران.. وهي صديقة لأختي..
وكنت أكبرها بعامين.

ووجدت نفسي دائما معها.. منذ كنت تلميذا في روضة
الأطفال، وأنا أعود من المدرسة لأجدها في بيتنا تلعب مع أختي..
وكنت ألعب معهما.. لا لم نكن نلعب.. كانت أختي عادة
تنصرف إلى اللعب، وأجلس أنا وصفية نتحدث.. ربما كنا نحكي
حكايات الأطفال.. ولكنه كان دائما حديثا هادئا ناعما.. ليس فيه
صراخ الأطفال ولا مشاداتهم.. وكانت صفية، ونحن مازلنا في

ذلك العمر، تشعرني دائما بأنى أكبر منها.. وأنى أفهم كل شئ لا تفهمه.. وكانت تستمع إلى كل ما أقوله وهى مبهورة مستسلمة، كأنى أفتح لها أبواب دنيا عجيبه.. وكنت أنا أحس - منذ ذلك العمر - بإحساس غامض بمسئوليتى عن صفية.. كنت أذكر نصيبى من مكسرات رمضان، ومن كعك العيد ومن قطع الشيكولاتة التى توزعها علينا أمى فى المناسبات، لأعطى لصفية.. وكنا عندما ننزل إلى الشارع.. لألعب أنا الكرة مع الأولاد، وتلعب هى الحجلة، أو «نط الحبل» مع البنات، أجد نفسى التفت بين الحين والحين باحثا عنها.. عن صفية.. كأنى أطمئن عليها.. فإذا حدث لها شئ.. أى شئ.. كأن وقعت وانجرحت ركبتها، أو عاكسها، أحد الأولاد، جرت إلى باكية، وهى تصرخ :

- محمد.. محمد..

ثم تشكو إلى..

وكنت دائما قادرا على أن أجفف دموعها، وأرضيها، وأحميها.. وكانت العائلتان معترفتين بهذا الصداقة، أو هذا الحب، أو هذا الاندماج.. لا أدري ماذا أسميه.. ماذا أسمى ما كان بينى وبين صفية ونحن مازلنا طفلين.. لا أدري.. فكانت أمى لا تسأل عنى إلا ويشمل سؤالها صفية :

- محمد وصفية راحو فين ؟..

وكانت أم صفية ترسل وراءنا الخادمة.

- روى شوقى محمد وصفية فين ؟

دائما، محمد وصفية.

وربما كانت هذه العاطفة الحلوة المبكرة هى التى جعلت منى

■ كل هذا الحب ■

هذا الطفل الهادئ، العاقل الذى تفتخر به أمى.. لقد كنت طفلاً أكبر من عمى.. لم أكن متعالياً على أصحابى الذين فى مثل عمى.. ولا جافاً.. لا.. كنت ألعب مع الأطفال، وأتحدث حديثهم، ولكنى كنت أكثر منهم جدية.. أو على الأصح كنت أكثر منهم اكتفاء وشبعاً عاطفياً.. لم أكن أرتكب حماقات الأطفال.. لم أفكر يوماً فى أن أعاكس المدرس.. أو أسرق شيئاً من وراء ظهر أمى.. فكنت رجلاً فى عمر الأطفال.

ثم لا أدري متى بدأ يتطور حبنى لصفية.. ربما عند ما بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة.. فقد بدأت أكتشف لون عينيها، وأنفها الصغير.. وشفتيها.. وتسريحة شعرها.. وبدأت أكتشف الثوب الذى ترتديه، والطريقة التى تنقل بها خطواتها فى مشيتها. وبدأ هذا الإحساس الجديد يقلقنى.. يحيرنى.. لم تعد صفية مجرد حقيقة بديهية فى حياتى، بل أصبحت موضوعاً يأخذ تفكيرى.. وبدأت أعانى اللهفة عليها.

لم أعد أعود إلى البيت وأنا واثق من أنى سأجد فيه صفية.. أصبحت أتساءل هل سأجدها فى البيت.. ويغوص قلبى عندما يداهمنى الاحتمال بأنى قد لا أجدها.. وعندما كنت طفلاً لم أكن واثقاً ولا حائراً.. ولم أكن أعود إلى البيت لا ملهوفاً، ولا غير ملهوف.. إن كل هذه العواطف والانفعالات.. الثقة والشك.. والتأكد والحيرة.. و.. و.. كل ذلك لا يخطر فى حياة الإنسان إلا عندما يبدأ الإنسان فى صنع حياته بنفسه.. والأطفال لا يصنعون الحياة، ولكن تصنع لهم الحياة. وكنت دائماً - إلا نادراً - أجدها فى البيت.

وكننت ألمح فى عينيها نفس الحيرة التى أعانيها.. الحيرة فى عواطف وأحاسيس بدأت تملأ صدرها كالبخار، دون أن تفهمها أو تعرف من أين انطلقت ولا إلى أين تستقر.. وكان يبدو أنها لم تعد تأتي إلى بيتنا تلقائيا، ولكنها كانت تأتي عن عمد، وقد بدأت تعرف أنها تأتي لقرانى، لا لتزور أختى.

وتطور حديثنا.. كبر.. لم يعد حديث أطفال.. ولا حديث ناضجين.. ولكنه حديث هذا العمر الحلو الذى يختلط فيه الخيال بالواقع، وتبدو فيه البديهيات كأنها اكتشافات، ويبدو فيه كل شئ كأنه شئ جديد يثير الدهشة.. ولكن صفية خلال أحاديثنا لم تتغير، إنها لا تزال دائما تشعرنى بأنى الأكبر منها.. وأنى أفهم كل شئ لا تفهمه.. وأنى المسئول عنها.. تكاد تشعرنى بأنى رجلها.

وأنا أكبر.

وكلما كبرت عذبنى شئ غامض لم أكن أدري سره.. ولكنى أشعر به كلما استوعبت عيناى تفاصيل أكثر من الخطوط التى ترسم صفية.. خطوط وجهها.. وخطوط قوامها.. وهذه الخصلة من شعرها الناعم التى تقع أحيانا فوق جبينها، فتزيحها بيدها كأنها تنهرها.. وهذه النظرة المتسائلة المترقبة التى تطل من عينيها كأنها تبحث عن شئ جديد.. وهذه الابتسامة الهادئة الناعسة التى ترقد فى استسلام بين شفتيها، كأنها مستسلمة لى.

وقد عرفت الآن أنى أحب صفية.

ولكنه ليس الحب الذى يعذبنى.. إنه شئ آخر.

شئ ربما كان داخل الحب، وربما كان خارجه.
وكان هذا الشئ يتطلب كل إرادتى، إرادتى الفجة الصغيرة
لأقاومه.. وكلما شعرت بحاجتى لبذل مجهود أكبر فى المقاومة،
انتابنى شعور غريب بالخوف.. نعم، الخوف.. لا أدري من
ماذا.. ولكن بدأت تمر على فترات كثيرة أشعر فيها بهذا
الخوف.. الخوف على حبي.

وفى هذه السن.. وكنت فى الخامسة عشرة، وصفية فى
الثالثة عشرة.. لاحظت لأول مرة أنها قد بدأت تسوى حاجبيها
بالمقاط وثمرت على غير عادتى، وصرخت فيها :

- إيه اللي عاملاه فى حواجبك ده ؟

ونظرت إلى بعينين مرتعشتين وقالت فى ذهول :

- مش عاجبينك ؟

قلت وأنا ما زلت أصرخ :

- لا.. مش عاجبنى.

ونظرت إلى صفية برهة ثم انبثقت الدموع من عينيها،
وجرت من أمامى وهى تبكى.

ولم أشعر يومها بدموع صفية، ولا جريت وراءها
لأصالحها، فقد وقعت ساعتها فى نوبة عارمة من هذا الخوف..
الخوف الذى بدأ ينتابنى منذ شهور.. ولكنه فى هذا اليوم كان
خوفا أكبر.. أحسست أنى بدأت أكتشف سر هذا الخوف.. إن
صفية تكبر أسرع مما أكبر.. إنها ليست أصغر منى.. إنها
أكبر.. وستكبر أكثر.. وأكثر ولن أستطيع أن ألحق بها أبدا..
ستضيع منى.

ولم تعد صفية إلى تسوية حاجبيها بالملقاط.
وكنت ألحظ الشعيرات الخضراء تنبت حول حاجبيها دون
أن تنزعها، فلا أبتسم لها، ولا أعلق بشئ.. ولا حتى أشعر
بالامتنان لها لأنها أطاعت كلامي.. فقد كنت أشعر بالغضب..
الغضب منها لأنها تكبر في عمرها أسرع مما أكبر في عمري..
وامتناعها عن تسوية حاجبيها لن يوقف سرعة عمرها.. لن
يعيدها إلى عمري..

وجاءت يوما.. ودخلت هي وأختي إلى حجرتي.. وكنت
جالسا إلى مكتبي أستذكر دروسي.. والتفت إليهما وبدأنا
نتحدث.. وقد كنت ألاحظ في نفسي أني بدأت أتحدث كلما
كانت صفية معي بلهجة فيها كثير من التعالي والغرور، كأنني
أحاول دائما أن أقنعها بأنني أكبر منها، ومازلت أفهم
مالاتفهمه.. مازلت رجليها.

وتركتنا أختي وخرجت من الحجرة لبعض شأنها، كما
تعودت أن تفعل في كثير من الأحيان.. لا تعمدا منها، ولكن لأن
صفية لم تكن أبدا ضيفة في بيتنا.. إنها واحدة منا.

وانحنيت صفية على مكتبي تقلب في الكتاب الذي أقرأ فيه..
كما تعودت أن تفعل منذ كانت طفلة.. ووجدت نفسي فجأة
أعاني هذا العذاب الذي عانيت منه طويلا.. أعانيه وصفية قريبة
جدا مني.. كتحققها تلامس كتفي.. وعطر أنفاسها يملأ أنفي..
وشعرها الناعم المسترسل يهف على وجهي.. وهي تتكلم..
ولكني لا أسمعها.. إن كل حواسي مركزة في استجماع إرادتي
لأقاوم بها هذا العذاب الذي يمزق عروقي.. وبدأ كلام صفية

يتقطع.. ثم صمقت.. وأنا صامت.. ومضت برهة طويلة..
طويلة.. ونحن صامتان.. ثم رفعت إلى عينيها.. والتقت نظراتنا
لقاء طويلا.. صامتا.. وأنفاسنا مبهورة.. وشئ كصهد النار
يلف وجهينا.. ثم اقتربنا، وجهى من وجهها.. ثم استقر خدها
على خدى.. برهة.. لحظة.. ثم رفعت وجهها فى انتفاضة كأنها
خافت أن تحرقها النار، وجرت متعثرة خارج الغرفة.. خارج
البيت.

وكانت هذه قبلتنا الأولى.

أول قبلة فى حياتها.

وأول قبلة فى حياتى.

ولم تكن قبلة.

كانت مجرد لمسة.

وانحنيت فوق مكتبى أرتعش.

ولم أستطع النوم ليلتها.

إنى مازلت أرتعش.. وفى طيات رعشتى أشياء كثيرة.. فيها
عذاب، وفيها فرحة.. فرحة كبيرة.

وفى اليوم التالى جاءت خادمة صفية الصغيرة إلى بيتنا
تبحث عني.. وأعطتنى كتابا قالت إن صفية ترسله لى كما
وعدتنى.. كتاب من كتب المدرسة لا قيمة له.. وقبل أن أتعجب
اكتشفت أن بين صفحات الكتاب خطابا كتبه لى صفية.

أول كتاب تكتبه لى.

وبدأنا عصر الخطابات.

والعجيب أن هذه الخطابات أبعدت بيننا أكثر مما قربتنا..

فلم تعد صفية تأتي إلى بيتنا كل يوم كما تعودت.. ربما لأن حبنا منذ أن تلامسنا بدأ يرتبط بالواقع الإنساني.. وهو واقع نخافه نحن الاثنين منذ أن اكتشفناه.. نخافه ونتعذب به.

وعندما جاءت صفية بعد أربعة أو خمسة أيام، تبادلنا خلالها في كل يوم خطابا.. جاءت - لا كواحدة منا - ولكنها جاءت كأنها ضيفة.. اختارت ثوبا أنيقا لا تلبسه إلا وهي ضيفة.. وصفت شعرها بعناية كأنها ذاهبة إلى حفلة.. وعندما نظرت إلى حاجبيها لاحظت أنها عادت وسوتهما بالملقاط.. ولم أثر.. ولم أغضب.. لقد شعرت يومها أنها سوتهما من أجلى.. حتى عندما شعرت أنها تجملت بحيث تبدو كبيرة.. لم أغضب، فقد شعرت أيضا أنها كبرت من أجلى.

ولم نستطع يومها ولا بعدها، أن نتبادل النظرات بنفس البساطة التي كنا نتبادلها بها.. ولم نستطع حديثنا أن يتصل بيننا بنفس السهولة التي كانت تجري بها.. كان كل منا يعلم أنه أصبح في حاجة إلى أكثر من النظرات. وأكثر من الأحاديث.. وكل منا يترقب اللحظة التي ستتركنا فيها أختى وحدنا.. وربما خيل إلينا يومها أن أختى تتباطأ في الخروج عن عمد.. لتغيظنا. وبرغم ذلك فعندما خرجت أختى تسمرنا في مكاننا.. احترنا ماذا نصنع.. كيف أقوم من مكاني إليها، وكيف تقوم من مكانها إلي.. بل ربما احترنا فيما نريد.. ماذا يريد أحدهنا من الآخر.. ولفتنا عاصفة عصبية من الارتباك، والخفر واللهفة.. ولم أعد أستطيع أن أنظر في عينيها.. ولم تعد تستطيع أن تنظر في عيني.. ثم فجأة.. وكأننا خفنا أن يسرقنا الزمن

ونشيخ ونحن متباعدان.. اندفع أحدنا إلى الآخر.. ورقد خدها على خدي.. وقلبي يخفق بخفقات قلبها.. ثم طافت شفتاي تمسحان على خدها.. من الذي علمنا أن الشفاه تحمل كل هذه الحساسية.. كل هذه المعاني.. كل هذه الدنيا.. لست أدري.. ورئتاي تتنفسان من أنفاسها.. وأعصابي تنبض بنبضات أعصابها.. ثم فجأة أيضا ابتعدنا أحدنا عن الآخر.. كيف تنتهي القبله.. ولماذا تنتهي.. بل لماذا تتوقف، لست أدري.. وهي تنظر إلى بعينين مبهورتين، مالبثتا أن ارتختا ونامتا تحت جفניה كأنهما طفلتان شبيعتا.. وخرجت أنا من الحجرة في خطوات بطيئة كأني أسير على قطع من السحاب.. وذهبت إلى حجرتي.. ورقدت في فراشي.. مستسلما في هدوء إلى رعشتي.. رعشة قلبي.

وكان هذا هو كل ما بيننا.

هذه القبلات.

وهذه الخطابات.



وكنت في الثامنة عشرة، وصفية في السادسة عشرة، عندما خطبت، خطبت صفية إلى رجل يكبرني باثني عشر عاما، ويكبرها بأربعة عشر عاما.

وتلقيت الخبر في استسلام عجيب، كأنه حدث كنت أنتظره منذ زمن طويل.. ربما منذ ولدت.. وكان إحساسي بانتظاره مختبئا في منطقة اللاشعور.. أشياء كثيرة ننتظرها دون أن نحس بانتظارها.. الموت.. إننا ننتظر الموت دون أن نتعمد

انتظاره.. ومهما بكينا وصرخنا فإننا لانستطيع أن نصد الموت.. ولا نحاول أن نعيد الحياة. إننا فى قرارة أنفسنا مستسلمون له، وكنا دائماً فى انتظاره.. وكذلك.. زواج صفية من رجل آخر.. وكانت التقاليد الاجتماعية متمكنة منها ومنى إلى حد الإيمان.. كالإيمان بالموت.. فلم نحاول أن نثور، كما لا يثور الناس على الموت.. ولم نحاول أن نهرب، كما لا يهرب الناس من الموت.

وحدد يوم الزفاف على عجل.. بعد أسبوعين.. فالرجل مسافر فى بعثة إلى إنجلترا وسيصحب صفية معه. ولم أر صفية خلال هذين الأسبوعين.. وكنت خلالهما أعيش صامتاً واجماً كالمصعوق وأتحرك فى خطوات بطيئة متئدة كأنى أحكم الحكماء أو كأن فى صدرى قنبلة أخشى أن تنفجر لأقل حركة.

وفى صباح يوم زفافها جاءت.
جاءت إلى بيتنا.

شعرها مهوش فوق رأسها.. ووجهها ممتقع.. وبصمات الأرق تحت عينيها.. وشفاتها ترتعشان وقد بهت لونهما. واتجهت إلى غرفتى مباشرة، كأن ليس فى البيت أحد غيرى. وألقت نفسها بين ذراعى.. ورأسها على كتفى.. ثم أجهشت بالبكاء.. وهى تتمتم :
- محمد.. محمد..

ثم أخذت وجهى بين كتفيها.. وأصابعها ترتعش.. وألقت بشفتيها بين شفتى.. قبلة كبيرة عصبية عنيفة.. ليس لها طعم،

عنقها يغلب طعمها.. كأنها كانت تحاول أن تأخذ منى فى قبلة
واحدة مايكفيها عمرها كله بعيدا عنى وأختى كانت واقفة على
الباب، تنظر إلينا، وتبكي..

إن أختى خطبت فى نفس العام.. قبل صفية.. ومن يدرى
ربما كان لها هى الأخرى حب ودعته.

وأنا جامد.. لا يستطيع إحساسى أن يلتقط شيئا.. ولا حتى
قبلة صفية.. لم أبك معها.. ولا لففتها بذراعى.. ولا بادلتها
قبلتها.. ولا كلمة.. إنى جامد.. كل شئ فى قد توقف.. وكل
ماحولى توقف.. إنى ميت.

وجرت صفية خارجة من البيت تتعثر فى دموعها.
وأنا جامد.

ميت.

وفى المساء كان مفروضا أن أذهب إلى حفل الزفاف.. وأمى
تتعجلنى - ياللا يامحمد.. مايصحش نروح متأخرين.. ده احنا
أهل.

وخرجت وراء أبى أمى وأختى.. وأنا مازلت جامدا.. تائها..
أسير فى خطوات ساهمة وثيدة، وفى صدرى هذه القنبلة التى
أخشى فى كل خطوة أن تنفجر.. وما كدت أقترب من بيت
صفية حتى دهمتنى أضواء الزينة.. حرقت عيني وأصابتنى
برعشة كرعشة الحمى وخفت.. هلع.. أحسست بالمصاييح
الملونة كأنها عيون شياطين تنطلق فى وجهى.. كأنها فوهات
مدافع تطلق على النار.
وتراجعت فى خوف.

تركت أبى وأمى وأختى يدخلون.. واستدرت أنا وجريت..
جريت بكل قواى.. قواى.. جريت إلى أن اجتزت حى حدائق
القبة.. ثم هدأت خطاى وأنا أتجه إلى حى العباسية.. وسرت..
سرت طويلا.. وأسياخ من الألم تشق كل قطعة منى.. سرت
إلى أن وصلت إلى صحراء العباسية.. وأقدامى قد ثقلت وهى
تتعثر فوق الرمال.. والليل يتكاثف حولى حتى لم أعد أرى
شيئا.. والألم.. ألم قاس..

ثم شعرت بشئ يسقط على الرمال.. إنه أنا.. وإذا بى أبكى..
أبكى فى عنف.. كل قطعة منى ترتعش وتبكى معى..
وكانت المرة الأولى التى أبكى فيها كل هذا البكاء.. والمرة
الأخيرة.

ورطب البكاء أعضابى.. هدأت.. وسكت عنى الألم.. ورفعت
رأسى الذى وقع منى فوق الرمال، وإذا بى ألمح نورا.. نور
ينطلق من داخلى.. من صدرى.. إنه نور الحب.. إن الحب
لا يزال معى.. لم يأخذ أحد الحب منى، الحب لم يتزوج رجلا
آخر.

والحب هو صفية.

وشعرت بابتسامة تمسح الأسى من شفتى.. ورموشى تهتز
وتتنفض عنها الدموع، كما تهتز أجنحة العصفير لتنفض عنها
الندى.

وعدت.

هادئا.. مستقرا.. تملأ السكينة نفسى.. ورقدت فى فراشى
لأقرأ كتابا.. والحب يحملنى فى حنان ودعة إلى النوم.



كم مضى ؟

عشر سنوات..

وقد حدثت أثناء هذه السنوات أشياء كثيرة.. نلت
بكالوريوس الهندسة.. واشتغلت مهندسا فى إحدى الشركات..
وتزوجت أختى وأصبح لها بيت وأولاد.. وأحيل أبى إلى المعاش،
وقضل أن يأخذ أمى وبقينا فى بلدتنا.. واستأجرت أنا شقة
صغيرة فى شارع القصر العينى، جمعت فيها كل حياتى..
كتبى.. واسطواناتى.. ومائدة الرسم.. وهذه الأشياء الصغيرة
الكثيرة التى تخلق من كل فرد شخصية متميزة مستقلة بذاتها.
شئ واحد لم يتغير خلال هذه السنوات.

حبى.

صفية.

إنى أعيش فى انتظارها كل يوم.. ليس انتظارا.. ولكنه
انتظار يسرى فى هدوء خلال أعصابى، كما تتردد أنفاسى.
انتظار كانتظار المتصوف للقاء ربه.. انتظار حلو هادئ،
مستسلم.. وكلما دق جرس الباب مر بى خاطر سريع.. إنها قد
تكون صفية.. وكلما دق جرس التليفون رفعت السماعة بلهفة
فقد تكون صفية.. وكلما ذهبت إلى زيارة أختى خيل إلى أنى
سأجد صفية معها.. وكلما ذهبت إلى حدائق القبة ومررت
ببيتنا القديم خيل إلى أنى سأجد صفية تطل من الشرفة..
وأخرج خطاباتها وأقرأها ولم أكن أقرأها بعينى.. ولكنى
أقرأها بأذنى.. إنى أسمعها.. ليس مجرد خيال.. ولكنى
أسمعها.. كان صوتها حقيقة يملأ كيانى كله.. ثم أعود وأنتظر.

كان هذا الانتظار هو نبضى..
ولم تدخل حياتى خلال هذه السنوات العشر أية امرأة.
ولا حتى امرأة عابرة.
هل هذا شذوذ.. أبدا.. إن الذى يرسم تصرفاتنا هو
ما نريده.. وأنا لا أريد أية امرأة.. إنى أنتظر صفية.
وأمى تلح علىّ فى كل يوم أن أتزوج.. وأضحك.. إن أمى تعتقد
أن فى الدنيا فتاة أخرى غير صفية.. لا.. لا.. بالنسبة لى.. لا.
وفى يوم..

بعد عشر سنوات.
دق جرس التليفون فى مكتبى بالشركة.
وما كدت أسمع كلمة : ألو.. حتى صرخت :
- صفية.

لقد عرفت صوتها قبل أن تتكلم وبعد عشر سنوات من الصمت.
وقلنا فى التليفون كلاما كثيرا مرتبكا، كأننا كنا نحاول فى
هذه اللحظات أن نسترد كل ما فاتنا من كلام خلال عشر
سنوات.. ومن ضحكات.. ومن عتاب.. و.
واتفقنا ببساطة على اللقاء فى مقهى هادىء منزو فى
شارع الهرم.

هى التى اختارت هذا المقهى للقائنا.. وقالت لى إنها كانت
تمر بهذا المقهى منذ خمس سنوات.. وكلما مرت به تمنّت أن
تجلس فيه معى.. رفضت أن تدخله إلا معى.
والتقينا.

ووقفنا ينظر كل منا للآخر وبين شفاهنا ابتسامتان
حائرتان مترددتان لا تدريان أى معنى تحملانه.

ولكنى وجدت نفسى أعود عبر الزمن إلى عمر الثامنة عشرة.. وصفية تعود إلى السادسة عشرة.. ربما كانت صفية قد سمعت قليلا، وربما كان فى حديثها معان لم أسمعها منها من قبل.. ولكنها لا تزال فى عمر السادسة عشرة.. لم تمر بنا عشر سنوات.. لم نفترق أبدا.. إنها كانت معى بالأمس.

ويدي فى يديها.

ونتكلم.

لم تترك يدي يدها.

ولم نكف عن الكلام.

وأصبحت تتصل بى كل صباح بالتليفون.

وعشت فى كل تفاصيل حياتها.

وعاشت فى كل تفاصيل حياتى.

ثم كان لقاءنا الثانى بعد أسبوعين.

فى شقتى.

وأحاسيسنا أكثر نضجا.

وقبلاتنا أكثر وعيا.

وكانت صفية أول امرأة فى حياتى.. كما كانت أول فتاة فى

حياتى.. الفتاة الوحيدة، والمرأة الوحيدة.

وصفية !!؟

لا.. لا تقلها.. لم يكن فى حياة صفية رجل آخر.. إنك لا تفهم

ما تقول.. إنك تعلم أن كل إنسان له حياة عامة يعطيها للمجتمع،

وحياة خاصة يحتفظ بها لنفسه.. إنه دين عليك نحو المجتمع

الإنسانى أن تخصص جزءا من حياتك له.. والجزء العام.. أو

■ كل هذا الحسب ■

الحياة العامة.. وإلا كنت إنساناً أنانياً تافهاً.. ودين المجتمع الإنساني نحوك أن يترك لك حياتك الخاصة تتصرف فيها كما تريد ما دمت لا تعتدى بتصرفاتك على أحد.. وحياتي العامة التي أعطيها للمجتمع، هو عملي كمهندس.. والحياة العامة التي تعطيها صفية للمجتمع.. هو عملها كزوجة وأم.. ليس معنى هذا «رجل آخر».. إنه مجرد عمل.. كعملي في الشركة.. وأنا أحترم زوج صفية احترامى لرئيس الشركة.. ما دام يقوم بواجبه نحو الشركة.. صحيح أنه في حالات كثيرة تستطيع المرأة أن تجمع في بيتها بين حياتها الخاصة وحياتها العامة.. كأن تتزوج رجلاً تحبه.. ولكنها إذا لم تستطع ذلك فإن هذا لا يحرمها من حياتها الخاصة، ولا يعفيها من واجبها نحو تقديم حياتها العامة للمجتمع.. أن تقدم للمجتمع شيئاً.. ولو كانت صفية قد استكملت دراستها وقدمت للمجتمع عملاً، كأن تكون طبيبة لأعفاها هذا من الزواج من شخص لا تحبه.. ولكنها لم تكن تستطيع أن تقدم للمجتمع إلا عملها كزوجة وأم.. فاضطرت.

هل تفهمنى ؟

إنى أرفض أى تفسير آخر.. وأرفض كلمة «رجل آخر».. إنه عمل.. مجرد عمل.. مهما تسامت فيه العواطف، فهو عمل.. وانتظمت الحياة.. هادئة، حلوة، رقيقة، بينى وبين صفية.. كانت تحادثنى صباح كل يوم فى التليفون.. لا تحادثنى فى المساء، ولا فى أيام الجمع.. ونتلاقى فى فترات متباعدة.. أحياناً كل أسبوعين.. وأحياناً كل شهر.. وكانت أحياناً تسافر مع زوجها عندما ينتدب للعمل فى الخارج.. وتغيب شهوراً..

■ كل هذا الحسب ■

وفي مرة غابت سنتين.. وأنا أنتظر.. هذا الانتظار الذي يسرى
في هدوء خلال أعصابي، كما تسرى أنفاسي..
ولم نعتد على أحد بحبنا.
بالعكس.

إنى عندما استكملت سعادتي بحبي، استطعت أن أقدم
إنتاجا أكثر في عملي.. وعندما سعدت صفية استطاعت أن
تضفي على بيتها وأولادها سعادة أكبر.. أن الإنسان الناقص
لا يمكن أن يقدم شيئا كاملا.. وأنا لم أكتمل إلا بصفية..
ولم تكتمل صفية إلا بي.. وعند ما اكتملنا استطعنا أن نقدم
للناس عملا كاملا، يسعدهم كسعادتنا.



كم مضى ؟

عشرون عاما.

أصبحت في الثامنة والخمسين من عمري، وصفية في
السادسة والخمسين.

واتصلت بي بالتليفون وصوتها يرتعش.

لقد مات الزوج ؟؟

وكنت أول من تبلغه النبأ كعادتها منذ كانت طفلة.. تلجأ إليّ
كلما ألمّ بها حدث.

وحزنت صفية على زوجها حزنا عميقا صادقا.

وحزنت معها.. حزنا حقيقيا، لا رياء فيه.

ومضى أكثر من عام قبل أن يتبدد جزننا إلى ذكرى عاطرة.

وأنا وصفية كما نحن.. تتصل بي صباح كل يوم في

■ كل هذا الحب ■

التليفون.. لم تكن تتصل بى فى المساء، ولا فى أيام الجمع..
حتى بعد أن مات الزوج.. ثم كنا نلتقى فى فترات متباعدة..
أحياناً كل أسبوعين وأحياناً كل شهر.

ثم قلت لها :

– أظن من حقنا نتجوز بأه يا صفية.

ورفعت إلى عينيها الناعستين الهادئتين، وصمتت.

ولم يكن هناك ما يمنع من زواجنا.. فأولادها قد كبروا
واستقل كل منهم فى بيته.. وهى مصممة على ألا تعيش مع
أحد منهم.. إنها تعيش فى بيتها وحيدة مع مربية أولادها.
ولكنها ظلت صامته.

وعدت أقول :

– إيه رأيك ؟!

وتلوننت وجنتها بلون الخفر، وقالت وهى ترخى رموشها
فوق عينيها :

– مش عارفه يامحمد.. أنا عمرى مافكرت إننا نتجوز..
متهاياً لى إن حبنا أكبر من الجواز.
قلت :

– حبنا من حقه يستريح ولو اليومين اللى فا ضلين.

قالت :

– أنا خايفة يا محمد.. خايفة على حبنا من الجواز.. مش
عارفة ليه.. بعد ده كله، نبتدى حاجة جديدة.

وفى الواقع أنى كنت أشاركها نفس الخوف.. ونفس التردد.
لقد عاش حبنا طويلاً، واكتسب عادات معينة، وطريقة

■ كل هذا الحب ■

للتعبير عن نفسه.. وارتقى بنا إلى أعلى قمم السمو.. قمم أعلى من كل القمم التي وضعها المجتمع للحياة الفاضلة.. وربما لو نزلنا بحبنا إلى تقاليد المجتمع، لفقد روعته.. وفقد صلابته وعناده.. فقد أفضل مافيه.

ولم نتزوج.

أصرت صفية على ألا نتزوج.

ومضت ست سنوات ولم يزد علينا شيء، إلا أنى بدأت أقوم لها ببعض مطالب حياتها التي لا يستطيع أن يقوم بها إلا رجل. ولم تقدمنى صفية إلى أولادها بعد أن مات زوجها، ولكنها كانت تحدثهم عنى قليلا كصديق من أصدقاء عائلتها منذ أيام حدائق القبة.

ثم مرضت صفية.

وعندما مضى أكثر من شهر وهى لا تستطيع أن تغادر الفراش.. صممت على أن أزورها.. وكانت المرة الأولى التى أزورها فيها فى بيتها.. دخلت البيت كأنى أدخل قدس الأقداس، خاشعا لرهبته.

وقالت فى ضعف :

- ماكنتش عيزاك تشوفنى وأنا عيانة يا محمد.

إنها لا تدرى.

لا تدرى أنى مازلت أراها إلى اليوم كما كانت وهى فى السادسة عشرة.. أراها بعينى، لا بخيالى، ولا بأوهام حبى، أرى عينيها الناعستين الهادئتين، ووجنتيها العاليتين، وشفتيها المكتنزتين الملوئين بالحب، وبشرتها الناعمة السمراء،

وشعرها الأسود المسترسل.. إنها لم تكبر أبدا.. أبدا.. إنها
الفتاة التي أحبها.
وذات ليلة.

صحوت منزعجا من نومي.. وارتديت ثيابي بسرعة،
وجريت إلى الجراج، وقدت سيارتي إليها.. إلى صفية..
والساعة حوالى الثالثة صباحا.
فضغط على جرس الباب.
وعدت أضغط بإصرار
يجب أن أراها الآن.. الآن.

وفتحت لى بعد فترة طويلة، المربية العجوز.. وهرعت إلى
غرفتها وكانت راقدة فى فراشها.. بيضاء فى لون الفل،
وشفتاها ترتعشان.. وفتحت عينيها عند ما اقتربت منها..
وبرقت ابتسامة خاطفة بين شفتيها.. وسمعتها تهمس.
- محمد.

ثم ارتخت يدها فى يدي.



إنى الآن فى السادسة والستين من عمري.
وقد مضت أربع سنوات وأنا فى انتظار صفية.. هذا
الانتظار الهادئ المتصوف الذى يسرى فى أعصابى كما
تسرى أنفاسى.. وأنا واثق أنها ستأتى يوما وتدعونى إلى
لقائها فى مقهى صغير منزو ترفض أن تجلس فيه إلا معى.
مقهى فى الجنة.

الله .. الله .. يا ست

بدأ أفراد الشلة يتوافدون على منزل السيد المهندس محمد برعى أحد مديري العموم بوزارة الأشغال.. وقد تعودوا أن يجتمعوا فى مثل هذا اليوم من كل شهر، فى منزل أحدهم، لسماع حفل السيدة أم كلثوم المذاعة من الراديو. □
وكان أول الواقدين السيد إسماعيل سكر مدير مكتب وزير الأوقاف والسيدة حرمه.. واستقبله محمد برعى فاتحا ذراعيه، واحتضنه إلى صدره صائحا :
- ازيك يا أبو السباع.. وحشتنا.
وتبادلت حرم إسماعيل سكر وحرم محمد برعى طرقة القبلات.
وقالت حرم محمد برعى :
- ازيك يا إنصاف.. ازى عروستنا الحلوة.
وقالت إنصاف وشفثاها مشدودتان إلى آخرهما ترسم ابتسامة مفتعلة :

- ازيك إنتى يا دودى، وإزى الولاد.
وشدتها دودى من يدها وجلسا فى الركن البعيد من غرفة
الصالون.. وأخذ محمد برعى صديقه اسماعيل سكر وجلسا
فى الركن الآخر بجانب الراديو.. وهو يقول :
- اقعد يا اسماعيل.. إزى الحال.. خصموا منك كام الشهر
ده.. وتنهد إسماعيل قائلاً :
- ميتين خمسة وأربعين قرش.. زيادة ضريبة الدفاع،
والادخار.
وقال محمد برعى وهو يقهقه :
- يعنى كمان حفلتين لأم كلثوم والماهية ما يفضلش منها
حاجة.
وقال اسماعيل :
- والله ما فى حاجة بتخفف المصايب إلا أم كلثوم.. الواحد
يقبض من هنا، ويتغم.. ويفضل مغموم لغاية ما يسمع الست.
ودق جرس الباب، ثم دخل الأستاذ عبدالعزيز على المحامى،
والسيدة حرمه.. وتكررت الأحضان وطرقعة القبلات.. ثم
وصل السيد شكرى ناجى، الموظف بالاستعلامات والسيدة
حرمه.. والدكتور رفعت عبدالله طبيب مستشفى الرمد والسيدة
حرمه.. وتجمعت السيدات فى الركن البعيد، والتف الرجال فى
الركن الآخر حول الراديو.
وعاد محمد برعى يقول :
- اللى عايز أعرفه الخصومات اللى نازلة ترف على
الماهيات دى آخرتها إيه.
وقال السيد شكرى :
- أنا مش مجننى إلا الادخار ده.. طيب واحد مش عايز
يدخر حد شريكه.

وقال الاستاذ عبدالعزيز :

- يا جماعة، لا تنظروا إلى الموضوع من وجهة المصلحة الفردية.. البلد عليها التزامات كثير ولازم كلنا نتحملها.

وقال الدكتور رفعت :

- التزامات إيه بأه يا سي عبدالعزيز.. آه.. قول لنا إيه هي الالتزامات دي.

وأطلقت دودي ضحكة مجلجلة لوت أعناق الرجال.. ثم خفضت صوتها وقالت :

- ده الراجل يا حبة عيني ماخدش منهم يومين.. ويا أختي ماتعرفيش إزاي لفوه.. وراح متجوز الست الكركوبة.

وقالت قدرية حرم السيد شكرى ناجى :

- يعنى بالميت ما يجيش عندها أربعين سنة.

وقالت إنصاف :

- وأكثر.

وقالت خديجة حرم الاستاذ عبدالعزيز :

- إنما صحيح حاتعمل فرح وزفة ؟

وقالت سوسن حرم الدكتور رفعت :

- دي كانت تبقى فضيحة.. دي تبقى فضيحة. دي تالت جواز.. فرح إيه وهباب إيه.

وارتفع صوت إسماعيل سكر :

- الساعة كام يا جماعة.. اوعى تكون الست ابتدت.

ونظر شكرى ناجى فى ساعته وقال :

- ياه.. الساعة عشرة ونص.. دي زمانها ابتدت من زمان.

وقام محمد برعى وأدار مفتاح الراديو، ثم التفت قائلاً :

- طيب لو كانت البلد عليها التزامات، وكلنا لازم نتحملها

يبقى لازمة الأرباح اللي بيوزعوها دي إيه.. طيب ما بلاش
أرباح، ويسيبوا ماهيتنا فى حالها.
وقال الأستاذ عبدالعزیز :
- الأرباح دي لها هدف تانى.. هدفها إشعار العمال بأنهم
ملاك.

وقال شكرى ناجى :
- واشمعنى يا أخى العمال وموظفى الشركات يبقوا ملاك..
واحنا يا بتوع الحكومة.. احنا يا للى شايلىن الهم على دماغنا،
اشمعنى احنا كمان ما نبقاش ملاك.. ليه ما يوزعوش علينا
نسبة من أرباح الحكومة..

وقال الدكتور رفعت :
- مش مفروض الحكومة تربح..
وقال محمد برعى :
- بلاش نقول ربح.. نسميه دخل.. نسميه إيراد.. الحكومة
إيرادها بيزيد كل سنة، ليه ما يوزعوش علينا نسبة من زيادة
الإيراد، باعتباره أرباح.

وقال الأستاذ عبدالعزیز :
- يا جماعة ماتنسوش أن الموظفين كانوا دايمًا متمتعين
بضمانات كافية.. عندهم معاشات، وأجازات وحماية من
الرفق.. إنما العمال ماكانش عندهم حاجة أبدا.. ومن حقهم
أنهم ياخدوا حقهم.

وقال شكرى ناجى :
- طيب بلاش الموظفين.. الفلاحين.. فلاحين الإصلاح
الزراعى.. مش الإصلاح الزراعى بيحقق أرباح .. طيب

■ الله .. الله .. يا ست ■

الفلاحين اللى بيشتغلوا فيه واللى ما أخذوش خمس فدادين
ما بياخدوش أرباح ليه.

وقال الدكتور رفعت :

– والله الكلام دم لازم يتكتب فى الجرايد.

وقال الأستاذ رفعت :

سيبك من الجرايد.. كل اللى بيتكتب فى الجرايد نوع من
اللى نسميه مقالات تبريرية.. يعنى الحاجة تتعمل الأول
وبعدين الصحافة تبررها، تقول اتعملت ليه.. ما عندناش
مقالات توجيهية.. ولا كاتب توجيهي.

وقال شكرى ناجى موظف الاستعلامات :

– لا.. مالکش حق يارفعت.. الجرايد مش ساكتة.. ده احنا

عندنا كل يوم ميت شكوى من الجرايد يبيعها الوزراء
ورؤساء مجالس الإدارات.. هو بس.

وقطعت حديثه دوى وقد قامت تطوف بعربة الشيكولاتة.

وقال الدكتور رفعت وهو يلوك قطعة من الحلوى فى فمه :

– ما تخرجش من الموضوع.. تعرفوا العامل النهاردة

بتوصل ماهيته كام.. أربعين وخمسين جنيه.. وامبارح عبدالله
خليل المهندس فى مطبعة النهضة قاللى إن الأسطى عندهم
ماهيته وصلت لمائة جنيه.

وقال اسماعيل :

– والله أنا بافكر ما ادخلش ابنى الجامعة ووديه يتعلم
صنعة.

وقال عبدالعزيز :

– صح.. ده اللى لازم يحصل.. جامعة إيه وبتاع إيه.

وقال محمد برعى :

- برضه يا عبدالعزيز.. يعنى لو جالك عامل يخطب بنتك
ترضى .

وقال عبدالعزيز :

- ما أرضاش ليه.. مادام بيكسب، ويقدر يعيشها كويس.
وقالت دودى وهى تسحب صندوق الشيكولاتة من تحت
يده :

- إزاي بأه يا عبدالعزيز بيه.. بأه ده كلام.. الأصل برضه
عليه عمل.

وقال عبدالعزيز :

- أصل إيه يا دودى هانم.. ده كلام بتاع زمان.

وقال محمد رفعت :

- والثقافة .

وقال عبدالعزيز :

- الثقافة فى القراية، مش فى الشهادة.. يعنى أنا كنت
اتثقت فى كلية الحقوق.. أبدا والله، لولا الكام كتاب اللي
قريتهم كان زمانى حمار.

وابتعدت دودى بعلة الشيكولاتة واتجهت إلى ركن
السيدات.. واستقبلتها إنصاف قائلة :

- إلا قوليلى يا دودى.. أنتى لقيتى رز الشهر ده .

وقالت دودى :

- أبدا والله يا أختى.. بعث الواد النهاردة الصبح رجع من
غير رز.. إنما أنا دايما عاملة حسابى.. مخزنة شهرين لقدام.

وقالت قدرية :

- أنا مريحة نفسى.. عملت ماهية ثابتة للموظف بتاع
الجمعية. جنيه فى الشهر.. ومافيش جنس حاجة أطلبها

مالقيهاش... وأول الحاجة ما تنزل الجمعية، أبس ألاقها عندي
في البيت.

وقالت خديجة :

– أنا الشهر اللي فات كنت حاجيب لهم البوليس..

وقالت إنصاف :

– أوعى.. ده اللي بيحجب البوليس.. بيفضل بعد كده جعان

طول عمره.. الموظفين بتوع الجمعية بيطلعوا دينه.. أوعى
تروحي للبوليس.

وقالت سوسن :

– أنا يا أختي عارفة الحاجات دي كلها بتروح فين.. دي

الحاجة يدوبك تنزل الجمعية أول الشهر، تبصى ماتلقيهاش
بعد ساعتين.

وقالت دودي ضاحكة :

– يمكن بيودوها غزة بدل البرفانات وعلب البلوبيف اللي

بتيجي من هناك.

وقالت إنصاف :

– يا أختي الناس هي اللي فجعانة.. والفلوس بقت كتير في

إيديين اللي يسوي واللي ما يسواش.. وكل واحد همه على
بطنه.

ومد محمد برعي عنقه من ركن الرجال، صائحا :

– مش نتعشى بأه يا دودي !

وقالت دودي :

– هي الوصلة خلصت.

والتقت محمد برعي إلى الراديو، ثم عاد إليها قائلا :

– آه.. خلصت من زمان.

وقالت دودي :

- طيب اتفضلوا.

وقام الجميع يتدافعون إلى حجرة الطعام.. وقال الدكتور
رفعت للأستاذ عبدالعزيز :

- تفتكر الست حاتغني إيه الوصلة الجاية ؟

وقال عبدالعزيز :

- أمل حياتي طبعاً.

وقال شكرى :

- يا سلام.. عظيمة الست دى.

المدرسة الحديثة

أنا رجل حرفتى الكلام .
لست محاميا .

لا .. إن المحامى يتحرك لسانه فى أفق ضيق
محدود ، ومهما كان عبقرىا فإن عبقريته سجيئة
وراء قضبان من نصوص القوانين .. أما أنا ☐
فلسانى مطلق ، وعبقريتى مطلقة .. إنى أضع العالم كله على
طرف لسانى ، وعبقريتى تجوب السماء والأرض بلا حدود ..
وبلا قوانين .. بلا أى شىء .ولست خطيبا .

لا .. إن الخطيب يخاطب عواطف الجماهير .. أما أنا
فحرفتى مخاطبة عقول الناس .. ليس كل الناس .. إنى أكره
مخاطبة كل الناس .. ولكنى أخاطب مجموعة الأفراد الذين
يملكون مصائر الناس .. الأفراد العباقرة الممتازين ، الذين
تتطلب مخاطبتهم عبقرية خاصة ، عبقرية إنسان موهوب ..
ويساوى إقناع الواحد منهم ، إقناع شعب بأكمله . والانتصار
على واحد منهم - الانتصار بالمنطق - يساوى الانتصار على
أمة .. يساوى فتح بلد واحتلاله .. أما الخطيب فهو ليس أكثر

من راعى ماشية .. كل قدرته - مهما تفوق - هو أن يتجه بالماشية إلى حيث يريد .. ثم إن الخطيب يحتاج إلى صوت عال .. وأنا أكره الصوت العالى .. حديثى كله همس .. وصدقونى أن الكلمة الخفيفة الصوت أقوى ألف مرة من الكلمة العالية .. أقوى من كل صراخ العالم ، لو قالها لسان موهوب مثل لسانى.

أنا - ببساطة - دبلوماسى .

لست وزيرا ولا سفيرا .. لا يمكن أن أضحي بمواهبى لأحمل هذه الأعباء الإدارية ، وأعباء البروتوكول وأعباء التحركات والإجراءات الرسمية التى حملها الوزير أو السفير .. وبرغم ذلك فإن لى مركزا فى حكومتى لا يقل خطورة عن مركز الوزير أو السفير .. مركز خاص ممتاز ، برغم أنى لا أتردد كثيرا على الحفلات الرسمية .. ولا يشاهدنى أحد فى الاجتماعات العامة ، ولا تتحدث عنى الصحف إلا نادرا .. ولكنى دائما فى مقابلات .. مقابلات هادئة حول فنجان شاي أو فنجان قهوة أو كأس من النبيذ .. مقابلات تنتهى دائما بحدث كبير .. حدث سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى .. ولا يهم بعد ذلك أن صورتي لا تبدو فى هذا الحدث .. وأن الفضل فيه لا ينسب إلى .. لا يهم ..

وفى كل حكومات العالم رجل مثلى .. رجال لهم أهميتهم القصوى .. ولكنهم لا يظهرون على المسرح ، إنهم دائما بين الكواليس البعيدة ، الهادئة .. الخافتة الضوء .. فى لقاءات مع رجال الدول الأخرى .. ويتكلمون . والكلام ليس مجرد حرفة .

إنه فن .

فن اختيار الكلمة .

وفن النطق بالكلمة .

إن اختيار الكلمة ، بمثابة اختيار اللون عند ما يهم الرسام برسم لوحة .. الكلمة هي اللون الذي يرسم آراءك ، ويرسم أهدافك .. والنطق بها بمثابة وضع اللون على اللوحة .. هل تضعه في خط عريض .. أو تضعه في خط رفيع .. وهل تضعه فاقعا أو تضعه خافتا .. وهل تضعه في جرة فرشاة واحدة متصلة .. أو تضعه في نقط مبعثرة .. و .. وأنت تختار الكلمة بعقلك .. أما لسانك فهو الفرشاة التي ترسم بها كلامك .
إنه فن .

فن كبير .

وهو فن يتطلب إعدادا خاصا لا يستطيعه أى واحد من هواة الكلام .. إنه يتطلب كنزا من المعلومات .. ليس فقط معلومات عن الموضوع الذى تتكلم فيه .. بل معلومات عن كل موضوع ، حتى نكون دائما على استعداد لنتكلم فى أى موضوع .. وأنا - بكل تواضع - أحمل فى رأسى معلومات تكفى لتوزع على ألف رجل كل منهم متخصص فى موضوع ، ويحمل فيه شهادة دكتوراه .. إن رأسى أنسكلوبديا قائمة بذاتها .. لا تقل اتساعا عن دائرة المعارف البريطانية .

والكلام فن يتطلب أيضا إجابة أكبر عدد من اللغات ، فإنك عندما تتحدث بنفس لغة محدثك تستطيع أن تكسبه بسهولة أكثر .. ثم إن استعانتك بمترجم تفقدك ثلاثة أرباع تأثيرك .. إن المترجم صديق تشك دائما فى خيانتة لك مع زوجتك .. وأنا أكره المترجمين ، ولا أثق فيهم ولست فى حاجة إليهم .. إنى أجيد سبع لغات .. أجيدها قراءة وكتابة وكلاما .. فما حاجتى إلى مترجم .

وفن الكلام يحتاج أيضا إلى قدرة على التمثيل .. لا يكفى

أن تتكلم بلسانك .. بل بعينيك .. ويديك .. وأنفك .. وليس معنى هذا أن تقوم بحركات تمثيلية بحيث تبدو كممثل .. لا .. ولكن يجب أن يبدو الصدق فى عينيك عندما تريد أن تبدو صادقا حتى لو كان كل كلامك كذبا .. ويجب أن يبدو التساهل على وجهك حتى لو لم تكن متساهلا .. و.. و.. لا تنس أبدا أن الذى تتحدث إليه ينظر إليك بعينه ، وأن كلامك يجب أن تكون له صورة على وجهك .

وأخيرا فإن فن الكلام يحتاج إلى مرونة .. مرونة فى كل شىء حتى فى مبادئك .. فليس المهم هو المبادئ .. ولكن المهم هو أن تصل إلى ما تريد .. وبعد هذا فإن الخطيئة يمكن أن تلبسها ثوب الفضيلة .. والنفاق يمكن أن تلبسه ثوب الصداقة .. و.. إن ألعن أنواع المتحدثين هم هؤلاء الذين يتحدثون باسم المبادئ ، إنهم غالبا لا يصلون إلى شىء . إنه فن شاق .

وثقوا أنى ألث عقب كل لقاء أتكم فيه .. إن ما يتطلبه الكلام من القدرة على تركيز الذهن .. والسيطرة التامة على خلية من خلايا عقلك وعضلاتك ، عملية منهكة .. عنيفة .. إنى أحتاج إلى راحة ست ساعات على الأقل عقب كل ساعة كلام .. وبرغم ذلك فإن تعبى لا يهم مادمت أستطيع أن أرسم بلسانى هذه اللوحات الرائعة .. اللوحات التى أقنعت وآمن بها كل من تحدثت إليهم ، وانتهت بعقد كثير من المعاهدات بين حكومتى والحكومات الأجنبية ، وكثير من الاتفاقات التجارية والمالية ، بل حلت كثيرا من الأزمات السياسية .

ولا تعتقدوا أنى كبير فى السن .. لا .. فبرغم موهبتى ونجاحى ، فأنا اليوم لا أتجاوز الأربعين من عمرى ، وكنت فى الثامنة والثلاثين من عمرى عندما التقيت بكوثر لأول مرة .

التقيت بها فى حفل صغير ضم بعض الرجال الدبلوماسيين - أمثالى - وزوجاتهم .. ووقعت عليها عيناي وهى ترقص « التويست » .. آسف لعلها كانت ترقص « الياسانوفيا » .. ووجدت نفسى ألتبعتها باهتمام كبير حتى إنى - ربما لأول مرة - نسيت أن وزير خارجية بولونيا يجلس بجانبى وأنها فرصة مناسبة لأرسم له بلسانى لوحة من لوحاتى .

إن كوثر رائعة .. إن جسدها ينساب وهى ترقص كأنه قطعة موسيقية قائمة بذاتها .. وكل قطعة من جسدها ترقص فى رقة وبساطة وحلاوة حتى أصابع يديها ترقص .. ليس فيها قطعة واحدة ليست متأثرة باللحن ومنساقاة إليه .. واستنتجت أن كوثر لا بد أن تكون كريمة أحد الزملاء المدعويين .. فعمرها لا يمكن أن يزيد على الثانية والعشرين .. والأسلوب الذى ترقص به لا يمكن أن يكون أسلوب سيدة متزوجة .. ونظرات عينيها فيها هذه اللمعة وهذا النشاط الذى لا تجده فى الزوجات ، وشعرها الفاتح الساقط على عينيها لا يمكن أن يكون شعر زوجة .. إنى خبير ، وأستطيع أن أفرق بين « الزوجة » و « الكريمة » فى لمحة واحدة .

وأخذت أسائل نفسى : ترى كريمة من من الزملاء ؟

وقبل أن تدلنى فراستى على أبيها انتهت الرقصة .. وجاءت كوثر وجلست بجانبى ولا أدري هل جاءت بجانبى بمجرد الصدفة ، أو لأن المقعد الذى اختارته كان أقرب مقعد إليها ، أو أنها تعمدت أن تختارنى لتجلس بجانبى .. لا يهم .. لقد التقت إليها وعلى فمى هذه الابتسامة التى تعودت أن أفتح بها قلب محدثى وأجذب بها اهتمامه .. إنى أثق كثيرا فى هذه الابتسامة .. إنها فى قوة الافتتاحية الموسيقية التى تعزف قبل رفع الستار عن الأوبرا .. ولكن يبدو أن كوثر كانت مشغولة

عن ابتسامتى .. فقد جلست بجانبى وهى تدق على الأرض
بقدمها الصغيرة الأنيقة على نغمات الموسيقى الراقصة ..
وجسدها يتمايل فى هزات رشيقة .. وتطرق بأصابعها بين
الحين والحين .. وهى تغنى فى صوت خفيض هامس :
- تويست .. تويست ..

لا يهم .. إنى واثق أنى أستطيع أن أرسم لها بلسانى لوحة
شائقة تبهرها وتجذب انتباهها .. وقد كنت دائما قادرا على أن
أبهر النساء .. بل إنى كنت أتعهد أن اجتذب اهتمام السيدات
كوسيلة من وسائل إقناع أزواجهن ، وكان مبدئى : « إذا
كسبت الزوجة فقد كسبت الزوج » ، وقد كسبت جميع زوجات
الرجال الكبار الذين كلفتنى حكومتى بالتحدث إليهم ..

وقلت لكوثر بادئا الحديث معها ، وقد وضعت فى عيني
نظرة فيها بعض البريق ، وبعض الحنان ، وبعض الجدية ،
وجعلت صوتى مليئا ولكن لا يخلو من المرح :

- إنتى بترقصى مدهش يا آنسة .. تعرفى أن الرقصات
الحديثة دى زى التويست والباسانوف ، دى فى الواقع مش
حديثة .. دى مأخوذة من الفولكلور الإنسانى .. أقدم فولكلور
فى العالم .. يعنى أيام ما كان الإنسان لسه عايش فى الغابة ..
كان يرقص كده . وعلشان كده أول ما ظهرت الرقصات دى
كانت قريبة من قلب الإنسان و ..

وقاطعتنى كوثر قائلة بسرعة :

- واحد قلبه وقف نزل يزقه .. ها .. ها ..

وانطلقت تضحك ، ضحكات رقيقة ناعمة لها صوت كصوت
الأجراس المعلقة فى رقاب البقر وهى ترعى فى جبال سويسرا .
وارتبكت أنا ..

الواقع كانت مفاجأة لى .. ولكنى تماكنت نفسى بسرعة ،
وضحكت معها .

ثم كفت كوثر عن الضحك ، وعادت تتمايل وتدق بقدميها على أنغام الموسيقى الراقصة .. وعدت أنا إلى رسم لوحتي بلساني ، وقلت :

الواقع مش بس الرقص هو اللي أصبح يستمد خطواته من الفولكلور القديم .. الحلى مثلا .. يعنى الأساور اللي بنشوفها النهارده فى إيدين السقات و .. وعادت كوثر تقاطعنى قائلة :

- مرة واحدة حلق والثانى غويشة .. ها .. ها ..
وسخسخت على نفسها من الضحك ..
وارتبكت مرة ثانية ، ولكنى بسرعة ضحكت معها ..
سخسخت أنا الآخر .. ثم عدت أقول بعد أن أفقنا من السخسخة:

- أنا مرة كنت فى إنجلترا وزرت قصر اللورد .
وقاطعتنى كوثر
- واحد نوبة راح قصر الدوبارة اتكعبل .. ها .. ها ..
واستطردت بسرعة :
- واحد نوبة ربي قراخ فى قفص صدره ، ها .. ها .. ها ..
و ..

- واحد راح سينما رياتو نزلت .. ها .. ها ..
و ..
- واحد قالوا له الصالون الأخضر فاتح ، راح لقاء غامق ..
ها .. ها .. ها ..

ولم تسكت إلا عند ما تقدم لها أحد الضيوف وطلبها للرقص .

وتركتنى مذهولا ..
لا يمكن أن تكون كوثر سخيفة وتافهة إلى هذا الحد .

لا .. ليست سخيقة ولا تافهة .. افهموني ، كل ما هنالك أن
كوثر تؤمن بمدرسة فنية غير المدرسة التي أوّمن بها .. إنها من
أنصار المدرسة التجريدية .. والتجريد في الرسم معناه أن
تجرد اللوحة من الموضوع ، وتقتصر فيها على الألوان
والخطوط . وتأثير الألوان والخطوط يغنى عن الموضوع .. أى
أن تضع اللون الأسود ، بجانب الأبيض ، بجانب الأخضر ،
بجانب الأسود .. وهذا يكفى .. يكفى لتكوين لوحة رائعة ..
لوحة تجريدية .. وكذلك فى فن الكلام ، إنك تستطيع أن تجرد
كلامك من الموضوع ، ثم تنتقى مجموعة من الألفاظ تضعها
بجانب بعضها البعض بحيث تترك تأثيرا على السامع .. أى
تأثير .. تأثير بلا موضوع .. وهذه هى المدرسة الحديثة ..
والمدرسة الحديثة فى الرسم لها أنصار كثيرون ، وبعض
اللوحات التجريدية تباع بالآلاف الجنيهات ، وكذلك المدرسة
الحديثة فى الكلام ، لها أنصار كثيرون ، ولها تأثير كبير .
وبدأت أراجع كلام كوثر :

- واحد حلق والثانى غويشة .. ها .. ها .. ها ..

ضحكت فعلا .. ضحكات من كل قلبى .

- واحد قلبه وقف نزل يزقه .. ها .. ها .. ها ..

إنى أضحك .. أضحك كما لم أضحك قط فى عمري .. إن

المدرسة التجريدية لها تأثير كبير .. تأثير مباشر .

وكوثر ليست تافهة ولا سخيقة ، إنها من أكبر أنصار
المدرسة التجريدية .

ولا أطيل عليكم .

لقد تزوجت كوثر .

ومضى عام ونحن نكاد نطير من السعادة .. إننا فى جنة
صنعناها من حبنا ومن توافق أمرجتنا وشخصياتنا . وإيماني

■ المدرسة الحديثة ■

بالمدرسة التجريدية يشدد ، وقد جمعت خلال هذا العام من لوحات الكلام التجريدي ، عشرات .. مئات .. ربما أكثر مما جمعت كوثر طول حياتها .

ثم لا أدري ماذا حدث .

ماذا حدث حتى تطردني حكومتى من عملى هذه الطردة الشنيعة ، دون ذنب جنيته ، وبعد أن خدمت عشر سنوات ساهمت خلالها فى عقد كثير من المعاهدات والاتفاقات وحل كثير من الأزمات .

كل ما أذكره أن الوزير استدعانى مرة إلى مكتبه ، وبدأ يحدثنى عن الأوضاع السياسية فى الكونغو وقال فى ضمن كلامه:

— إن مبادئ المرحوم لومومبا لا تزال ..
وقاطعته قائلاً :

— واحد لومومبا والثانى مالوش .. ها .. ها .. ها .
إنها لوحة تجريدية رائعة ..

ولكن الوزير لم يضحك .. لقد نظر إلى نظرة هائلة ، وزم شفتيه فى قرف .. لا يهم .. إن سيادته ليس من أنصار المدرسة التجريدية فى الكلام .. وأنا برغم إيمانى بالمدرسة التجريدية ، لست متعصبا لها ، إنى أقبل جميع المدارس الأخرى واحترمها .

ولكن السيد الوزير ظل ينظر إلى هذه النظرة الهائلة ، وشفته مزمومتان فى قرف .. ثم أنهى المقابلة فجأة ، وصرفنى من مكتبه .

وفى اليوم التالى تلقيت خطاب الاستغناء عن خدماتى .
لماذا ؟

لست أدري .

غابة من السيقان ..

لم أكن أبدا هذا الإنسان.
كنت دائما إنسانا مثاليا.. ربما منذ ولدت وأنا
مثالى.. ولم أكن أدري أنني مثالى.. لم أر صورة
أخرى من صور الحياة حتى أقارن بينها وبين ☐
صورة حياتى، ثم اكتشفت من المقارنة أنني مثالى.. أبدا.. كنت
أعتقد أن الحياة كلها هى هذه الحياة التى أعيشها، الحياة
الهادئة، الجادة.. طريقها نور، وسماؤها عفة، وأرضها علم
وثقافة وعمل.

وبيتنا الكبير هادئ دائما، نظيف دائما، لم ترتفع فيه يوما
كلمة نابية، ولا دوى فيه صراخ، ولا مر بين جدرانها حادث
يمكن أن يضع معانى الفضيلة والعفة موضع مناقشة.. وأبى
يملا البيت بهيبته، وطيبة قلبه، وإحساسه الكبير بالمسئولية..
وأبى تملؤه بجمالها، وحنانها، وبأرقى صورة من صور
الأمومة الطاهرة.. وأنا أذهب إلى المدرسة وأعود لأستذكر
دروسى ثم أشغل نفسى بهوايتى للرسم، أو أذهب إلى النادي

القريب لألعب التنس.. وهى هواية ثانية من هواياتى.. أو أنزل إلى ورشة النجارة الصغيرة التى أقامها لى أبى فى البديروم، لأصنع أشياء من الخشب.. فقد كانت النجارة هوايتى الثالثة.. أو أقرأ، فالقراءة أيضا إحدى هواياتى.. وإخوتى لكل منهم هوايته التى يشجعهم عليها أبى.. وكلنا نعيش فى هذا العالم المثالى النظيف.. عالم كله حب، وكله طهر، وعفة، وفضيلة، ومتع راقية عميقة.. متعة العقل.. متعة الروح.. متعة الرضا عن النفس.. متعة المثالية.

إلى أن تخرجت فى كلية الحقوق.

وعملت محاميا فى مكتب أبى.

ومكتبنا - أقصد مكتب أبى - كبيتنا.. مكتب نظيف، عف، مثالى.. لم يدخله أبدا مجرم، ولا تولى الدفاع أبدا عن جان.. وليس بين دوسيهاته قضية مخدرات أو زنا، أو أى قضية أخرى من هذه القضايا التى تمس الفضيلة والشرف.. كانت كل قضايانا قضايا أنيقة مهذبة، تقوم على خلاف فى تفسير القانون، أو على أخطاء فى الإجراءات، أكثر مما تقوم على نية الإجرام والتعدى.. قضايا الشركات والضرائب، والاستشارات القانونية للهيئات المحلية والأجنبية.. و.. و.. وكان أبى - رحمه الله - يقول لى دائما إن المحامى يجب أن يكون أولا قاضيا، يحكم فى القضية التى تعرض أمامه، قبل أن يعرضها على المحكمة.. ليس من مهمة المحامى أبدا أن يستغل علمه بالقانون ليتحايل على العدالة، ولا أن يبرىء مجرما.. إن مهمته هى نفس مهمة القاضى.. وكما يعد القاضى حيثيات حكمه.. فكذلك يعد المحامى دفاعه عن حكمه.. ولذلك سميت المحاماة : « القضاء الواقف » ، لأن القضاء الآخر « قضاء جالس » ..

وعلى هذا الأساس كان أبى يرفض كثيرا من القضايا التى يأتى بها أصحابها إلى مكتبنا.. يرفضها مهما بلغ إغراء الأتعاب التى تعرض عليه.

وسلكت سلوك أبى فى المحاماة، السلوك العف النزيه الجاد.. وتفوقت.. تفوقت لأنى أحببت عملى.. بل إن المحاماة لم تعد مجرد عمل.. بل أصبحت هواية أضمتها إلى مجموعة هواياتى الكثيرة.. وعندما توفى والدى إلى رحمة الله، لم أخسر موكلا واحدا من موكلية.. كلهم وثقوا بى ثقتهم بأبى.. وفى نفس العام الذى تخرجت فيه فى كلية الحقوق، تزوجت نيفين.

تزوجت وأنا فى الثالثة والعشرين من عمري.. وكانت نيفين أجمل فتاة التقت بها عيناى فى حياتى.. وبرغم ذلك لم يكن جمالها هو كل شىء.. كان فيها هذا العبير الهادئ العميق الذى يفوح من بنات الناس الأصلاء.. عبير الحنان.. الطهر.. التعفف.. الرقة.. الطيبة.. الفهم.. عبير المثالية.. كانت نيفين مثالية مثلى.. ولم نكن فى حاجة إلى أكثر من نظرة واحدة لنشعر بارتباطنا إلى الأبد.. رباط الحب الأكيد، الحلو، الرائق كقطرات الندى.. وأصبحت زوجا مثاليا.

أذهب إلى المحاكم فى الصباح، وأعود فى الساعة الواحدة لأتناول طعام الغداء، وأستريح قليلا ثم أذهب إلى النادى لألعب التنس.. وفى المساء أذهب إلى المكتب لأبقى فيه حتى التاسعة وأعود إلى بيتى لأجلس مع أولادى، أو أمارس إحدى هواياتى، إن لم تكن - نيفين وأنا - مدعوين على العشاء عند أحد من أصدقائنا الكثيرين.

خمسة عشر عاما مرت وأنا هذا الزوج المثالى.. عشتها بين
عينى نيفين الهادئتين، وابتسامتها الحلوة، وحنانها الفياض،
وروحها النقية. وأولادنا حولنا ملائكة، أى والله.. ملائكة.
إلى أن دخلت حياتى سميحة.

سميحة هانم.. حرم المهندس المعروف مصطفى الشريف.
جاءت إلى مكتبى تستشيرنى فى مشكلة خاصة بضريبة
التركات المستحقة عليها بعد وفاة والدها.. ولم أكن أعرفها..
ولكنى كنت أسمع عن زوجها المهندس الكبير مصطفى
الشريف.. وكنت أحد المعجبين بفنه المعماري الرائع.. ومن أجل
زوجها، واسمه الكبير، استقبلتها باهتمام واحترام شديد.

ولا أدري كيف وجدت نفسى بعد دقائق من دخولها إلى
مكتبى، أستمع إليها وهى تحدثنى فى مواضيع بعيدة كل البعد
عن ضريبة التركات.. كانت تحدثنى عن حياتها العائلية، وعن
الناس الذين تعرفهم وعن الأفلام، وعن الكتب.. وكان حديثها
من هذا النوع الذكى الذى يشدك إليه.. ولا تمل.. الحديث الذى
يوقظ انتباهك كلما فتر.. ويثير فيك كل ما تملكه من عواطف..
إثارة عابرة.. لقد جعلتنى أضحك.. وجعلتنى أحزن.. وارتفعت
بى وانخفضت بى.. إنى لم أقابل أبدا مثل هذه السيدة..
واكتشفنا أنه مرت بنا ساعة.. ربما أكثر.. ونحن لم ننته بعد
من بحث موضوع ضريبة التركات.

وانصرفت على أن تعود.

وليلتها قلت لزوجتى نيفين :

— جاءت إلى المكتب الليلة سميحة هانم حرم المهندس

مصطفى الشريف.. أتعرفينها ؟

قالت فى صوتها الهادىء ولسانها العف :

- سمعت عنها .

قلت :

- إنها سيدة مليئة بالحيوية.

وقالت نيفين :

- كلها نشاط.. إنها فى كل مكان.

والواقع أن سميحة لم تترك فى أثرا بعد لقائنا الأول إلا
انبهارى بشخصيتها الفشيطة المتدفقة.. انبهار كاد يتلاشى مع
الصباح.

ثم عادت سميحة.

وعادت مرة أخرى.

إنها قطعاً ليست أجمل من نيفين.. ولكن فيها شيئاً.. ليس
فى نيفين هذا التدفق.. هذه القدرة الطاغية على جذب كل
خيوط انتباهك.. وتحريك مشاعرك.. إنه شيء ليس فى نيفين.
وكانت هذه هى المرة الأولى التى أقارن فيها بين نيفين وأى
امرأة أخرى.. بل كانت المرة الأولى التى أعتقد فيها أن هناك أى
امرأة يمكن أن تقارن بنيفين.. أكثر.. كانت المرة الأولى التى
أرى فيها بعينين يقظتين متعمدتين امرأة أخرى غير نيفين.
وجاءت سميحة ذات مساء.

وجلست تستولى على كل اهتمامى.. كأنها تنيمنى تنويماً
مغناطيسياً.. ثم قالت :

- ليس معى سيارتى.. هل توصلنى بسيارتك.

ونظرت فى ساعتى.. التاسعة، موعد انتهاء العمل.

- لا مانع.

وركبت بجانبى، وحديثها لا يكف عنى.. تجعلنى أضحك
وتجعلنى أفكر معها.. أفكر فى أشياء تافهة لم يكن يخطر ببالى

أنى سأفكر فيها يوما.. الأزياء، نجوم السينما، أى شىء..
ووقفت بها أمام بيتها.. وقالت فى بساطة :
- هل لك فى كأس ؟

وترددت.. فعادت تقول :

- قد نستطيع فى جلسة عائلية أن نحصر تفكيرنا فى
موضوعنا.. أقصد قضية الضرائب.
وعدت أنظر فى ساعتى..

التاسعة والنصف.

أستطيع أن أتأخر قليلا عن البيت.

ودخلت معها.. وكنت أعتقد أنى سأقابل زوجها المهندس
مصطفى الشريف.. ولكنه لم يكن فى البيت.. إنه فى
الاسكندرية.

وعدنا إلى حديثنا.

وشىء أكثر صراحة ينطلق من عينيها، وينطلق فى كلماتها..
ولم أكن ساذجا إلى هذا الحد.. إنى أعرف بالضبط ماذا تريد..
ويجب أن أقاوم.. يجب.. إنى رجل مثالى.. وزوج مثالى.. وهى
زوجة.. وزوجها معروف.. إنى أحترم زوجها.. ولكنى كنت قد
نسيت الزوج.. نسيت ريماء من أول لقاء.. إن شخصيتها الطاغية
لا تترك مجالا لذكر زوجها.. ومقاومتى تضعف.. وتضعف..
إلى أن وجدت عمرى كله ينهار.. ثمانية وثلاثون عاما من
المثالية تتساقط هشة كالأوراق المحترقة.

وعدت إلى بيتى.

ولأول مرة لا أستطيع أن أواجه نيفين بعينى.. ولا أولادى..
عيناى منكستان.. رأسى منكس.. قلبى منكس.. ضميرى
منكس.. فى ضميرى حسرة صارخة كأنى خسرت كل رأس

مالى على مائدة القمار فى لحظة واحدة.. ولم يكن لى رأس
مال أعز على من مثاليتى.
ولم أنم..

ونسيت فى الصباح أن أقبل أولادى.. وأقبل نيفين.. وجرت
نيفين ورائى، ولحقت بى عند الباب وهى تنتظر إلى فى دهشة
بريئة.. ومدت إلى خدها، فقبلتها قبلة سريعة كأنى كنت أخشى
على خدها الطاهر أن تلوثة شفتاى.
وكان يحب أن أقاوم.
أقاوم سميحة.

وقد استطعت أن أقاومها فى التليفون، ولكنى لم أستطع أن
أستمر فى مقاومتها عندما جاءت إلى مكتبى بنفسها لتأخذنى
إليها.. إن سحرا طاغيا يرقد فى عينيها السوداوين الكبيرتين..
سحر الخطيئة.. وانهرت.. أنا الذى كنت أفخر دائما بقوة
إرادتى.. انهرت.. ربما لأن كل قوى فوقه من هو أقوى منه..
وهاتان العينان السوداوان الكبيرتان أقوى منى.
والانهيار يأكل أعصابى.

إنى أتغير.. إنى لم أعد هذا الإنسان الهادىء الطاهر المثالى..
إنى إنسان عصبى.. تافه.. ضائع.. أهملت جميع هواياتى بما
فيها هواية الحمامة.. أسرح كثيرا.. وكلما وخزنى ضميرى
صرخت فى وجه نيفين.. كأنى أحاول أن أسكت صوت
الضمير تحت صوت الصراخ.. أو كأن نيفين هى ضميرى الذى
أحاول أن أسكته. وهى تنظر إلى فى رهبة تشوبها الشفقة،
وفى عينيها تساؤل حائر.. ماذا بى.. لعل مريض..

وسميحة تتحدث كثيرا عن نيفين.
إنها تريد أن تتعرف إليها.

- لماذا ؟

- لأزداد قربا منك.. يا حبيبي.

ولم أرد.

إنى لا أريد أن أجز خطيئتي إلى بيتي.

ثم فوجئت يوما بنيفين تقول لى فى صوتها الهادىء،
ولسانها العف :

- أتدرى.. تعرفت اليوم إلى سميحة هانم حرم المهندس
مصطفى الشريف.. إنها سيدة رائعة.. دعوتها غدا إلى الشاى
مع بعض الصديقات.. دعوة للسيدات فقط.
وذعرت.

لقد وصلت الخطيئة إلى بيتي.

ولكن.

هل الخطيئة هى سميحة ؟

وأنا.. ألسن النصف الآخر من الخطيئة.. وأنا أقيم فى هذا
البيت.. فلماذا لا تأتى إليه سميحة أيضا.
وسكت.

وجاءت سميحة.

وزوجتى مبهورة بها.. إنها تتحدث عنها كأنها تسير فى
مظاهرة تهتف باسمها.. تحيا سميحة.. تعيش سميحة.. إلى
الأمام يا سميحة.. وشعرت بنوع من الزهو الخبيث المريض،
وزوجتى تتحدث عن إعجابها بسميحة.. شعرت كأن زوجتى
تهنئنى على ذوقى فى اختيار النساء.. كأنها تهنئنى على هذا
الانتصار يوم تلت سميحة..

وسميحة تتحدث كل يوم فى التليفون مع زوجتى.. فى
البيت.

وتتحدث معي كل يوم في التليفون.. في المكتب.
ثم مفاجأة أخرى.

إن سميحة تدعونا - زوجتي وأنا - إلى العشاء عندها.
وقد وجهت سميحة الدعوة عن طريق زوجتي دون أن
تخبرني بها.. كأنها بذكائها النسائي كانت تعلم أن زوجتي
أقدر على إقناعي بقبول الدعوة.
لا.. لن أقبلها.. إنني مشغول.. مشغول.
وزوجتي تلح.

ثم فوجئت بالمهندس مصطفى الشريف يتحدث إلي في
التليفون.. وارتعشت يدي التي تحمل السماعة عندما نطق
اسمه.. وسقط قلبي.. ولكنه يشكرني.. يشكرني على اهتمامي
بقضية زوجته ويكرر دعوة سميحة التي وجهتها إلى زوجتي..
كل الأصول روعيت.
هي دعت زوجتي.
وزوجها دعاني.
فلا أستطيع الرفض.

ونذهبنا.. وكل شيء مني ليس في مكانه.. ابتسامتي ليست
في مكانها المعتاد فوق شففتي.. ونظرتي ليست في مكانها
المعتاد من عيني، وقلبي ليس في مكانه المعتاد بين ضلوعي..
وأشياء في داخلي ترتعش.. كأنني آلة انفكت صواميلها..
وخفت.. خفت أن يلمح الناس عي وجهي بصمات خطيئتي..
خفت أن يكون في صدري ميكروفون يذيع على الناس كل
ما فيه من أسرار.

ولكن لا شيء حدث.
سميحة تبدو طبيعية.. مرحة، رائعة.

ولابد أنى أنا الآخر أبدو طبيعيا.

إن الخطيئة تتحرك ببساطة فى بيوت الناس دون أن يلمحها أحد.. الخطيئة ليس لها وجه.. ليس لها رائحة.. ليس لها صوت.

وراعتنى هذه البساطة التى يمكن أن تعيش بها الخطيئة فى المجتمعات، ووجدت نفسى أتساءل.. إذا كانت هذه هى حال الخطيئة فى المجتمع.. لماذا لا يكون فى هذا الحفل خطايا أخرى غير خطيئتى أنا وسميحة.. لماذا أفترض أنى بين كل هؤلاء المدعوين الزوج الخائن الوحيد.. ولماذا أفترض أن سميحة هى الزوجة الخائنة الوحيدة؟

وبدأت دون أن أشعر أبحث عن خطايا الناس فى تصرفاتهم، وفى كلماتهم، وفى نظراتهم.. إن فلانا ينظر إلى فلانة طويلا.. وفلانة تركت يدها مدة أطول من المعتاد فى يد فلان وهى تصافحه.. و..

وأصبحت هذه هى هوايتى الجديدة.
هوايتى الوحيدة.

وقد أصبحنا - نيقين وأنا - نخرج كل مساء مع سميحة وزوجها.. وكنت أضحك فى صدرى ونحن نتحرك معا.. إن عددنا ليس أربعة.. عددنا ستة.. زوج وزوجته، وزوج آخر وزوجته، ثم عشيق وعشيقتة.. والمجموع ستة لا أربعة.. ها.. ها.. فلسفة، عبقرية.. وفى كل مكان كنا نذهب إليه، سواء ذهبنا إلى حفلة أو إلى سينما أو إلى ملهى.. أبدأ فى ممارسة هوايتى.. اكتشف خطايا الناس، واستنتجها من تصرفاتهم وهمساتهم.. وكنت أجد لذة فى ممارسة هذه الهواية.. لذة فائقة.. أسابيع طويلة مرت وأنا أمارسها.. ولذتى بها تكبر.

ثم..

وكنا مدعوين نحن الأربعة.. آسف نحن الستة.. إلى حفل ساهر.. وسقطت عيناى على وجه نيفين.. زوجتى نيفين.. وإذا بى أتساءل : لما أعقيت نيفين من هوايتى.. لماذا لم أبحث فيها هى الأخرى عن الخطيئة.. لماذا.. لأنها مثالية ؟ ولكنى كنت أنا الآخر مثاليا، ولم أعف عن الخطيئة.. ربما هى الأخرى وقعت كما وقعت ؟

وبدأت أنظر إلى نيفين بعينين جديدتين.
وخيل إلى أنى أرى فى عينيها نفس اللمعة التى أراها فى عيني سميحة.. وأرى على شفتيها نفس الابتسامة الواثقة المتحدية.. وألمح فى حديثها نفس الذكاء ونفس الشخصية الجذابة.. و.. و..
وبدأت أختل.

إنى لا أرفع عيني عن نيفين.. وقد كنت أمارس هوايتى على الناس فى الحفلات والمجتمعات فقط.. فأصبحت أمارس هوايتى على نيفين طول النهار والليل.. فى البيت وخارج البيت.. إنى أتصنّت عليها وهى تتحدث فى التليفون.. وأفتح دواليبها فى غيبتها.. وأتظاهر بالنوم حتى تنام، ثم أفتح عيني وأبقى يقظا طول الليل لعلها تقول شيئا فى أحلامها يدلنى على ما فى ضميرها.

ونيفين صابرة.

وأنا أختل.. وفى كل يوم أختل أكثر.

إلى أن كان هذا اليوم.

وكنا مدعوين نحن الأربعة.. آسف.. نحن الستة.. إلى حفل عشاء يضم أكثر من عشرين مدعوا ومدعوة، التقوا جميعا

حول مائدة واحدة كبيرة.. كل زوجة بجانبها رجل ليس زوجها.. وكل رجل بجانبه سيدة ليست زوجته.. هذه هي التقاليد.. التقاليد الاجتماعية المعترف بها.. ليس من حقك أن تطالب بأن تجلس زوجتك بجانبك.. عيب أن تجلس الزوجة بجانب زوجها.. فضيحة كبرى.. إن زوجتك بجانب رجل آخر.. وكأن زوجاتنا كلهن من بنات الجيشاء، مفروض أن ترفه كل منهن عن الرجل الذي يوضع بجانبها تقول له كلاما حلوا.. وتبتسم له ابتسامة حلوة.. وتنظر إليه نظرة حلوة.. تقاليد الجيشاء.

ووضعوني بجانب سميحة.. أو وضعوا سميحة بجانبى.. إنهم دائما يضعون أحدا بجانب الآخر وكأن هناك اعترافا ضمنيا من المجتمع بخطيئتنا.

ومدت سميحة ساقها ولفتها حول ساقى من تحت المائدة. ولم تكن هذه هي المرة الأولى. إنها دائما تلف ساقها على ساقى من تحت المائدة، وتخبط ركبتيها بركبتي، كلما جلست بجانبى. واستسلمت ساقى لساقها. نامت عليها.

ثم فجأة تذكرت نيفين.

من أدرانى ؟!

واعتدلت فى جلستى.

إنها تجلس فى الناحية المقابلة من المائدة.

ولا يبدو على وجهها شىء.

ولكن سميحة أيضا لا يبدو على وجهها شىء.. ولو نظر

المهندس مصطفى الشريف فى وجه زوجته فلن يرى ساقها ملتفة حول ساقى.

إن الخطيئة لا تبدو فوق المائدة، ولكنها تعيش تحت المائدة. وتعتمد أن أسقط السكين الذى أكل به على الأرض، وانحنيت لألتقطه، ونظرت تحت المائدة.. ولكنها نظرة سريعة غير مركزة لم ألمح من خلالها شيئاً.

وبعد فترة عدت وأسقطت الشوكة.. وحاولت أن أنظر تحت المائدة.. كانت نظرة أطول وأكثر جرأة من النظرة الأولى.. ولكنى لم أتمكن أيضاً من التأكد من حقيقة ما يدور تحت المائدة.

وحاولت أن أهدأ وأن أنسى الموضوع.. ولكن رغبة جامحة عنيفة تتملكنى لأرى ما يدور تحت المائدة.. ولعل سميحة لحظت اضطرابى فبدأت تتحدث إلى وتحاول أن تثير اهتمامى، وحاولت أنا الآخر أن أستمع إلى حديثها وأهتم به، ولكن الرغبة الجامحة العنيفة تلح على.. وتستبد بى.. تستبد بعقلى.. بأعصابى.. بدمائى.. إن بى رغبة جامحة فى أن أرى ما يدور تحت المائدة.

ولم أعد أستطيع أن أقاوم.

أسقطت نفسى من فوق مقعدى، وزحفت على يدي وركبتي ودخلت تحت المائدة.. ووجدت نفسى فى عالم غريب.. عالم خافت الضوء.. مثير.. ومن حولى سيقان كثيرة.. سيقان فى بنطلونات.. وسيقان حريمى.. سيقان رفيعة، وسيقان مليئة.. إنها غابة.. غابة من السيقان، ولو هبت الريح لاصطدمت السيقان بعضها ببعض كما تتصادم أفرع أشجار الغابة.. تتصادم هكذا.. وبدأت أمسك بالسيقان من حولى

والصقها بعضها ببعض.. وأنا أصرخ : الريح هبت.. الغابة..
الغابة.. الغابة.



لقد كنت يومها أدرى تماما ما أفعله.. كنت فى وعيى.. كنت
أعى أنى اسقطت نفسى من فوق المقعد، وزحفت إلى تحت
المائدة، وأمسكت بالسيقان أصدم كل ساق رجل بساق امرأة..
وكنت أسمع صوتى وأنا أصرخ : الغابة.. الغابة.. لم أكن
مجنونا . كل ما هنالك أنى لم أستطع أن أقاوم هذه الرغبة
الجامحة العنيفة التى استبدت بى.
ولكنهم اعتبرونى مجنونا.
وجذبونى من تحت المائدة.
ونقلونى إلى مستشفى بهمان.
وكان آخر ما رأيته هو دموع زوجتى نيفين، قبل أن يسرى
المخدر الذى حقنوني به فى عروقى وأناام.
وقد قضيت فى مستشفى بهمان ستة شهور.
وبرغم ذلك.
صدقونى.
أنا لست مجنونا.
وأنا أبحث عن عمل.

عبد الله .. وفاظمة

يا حضرات القضاة.

أنا لا أطلب الرحمة.. أنا أطلب العدل.. وإذا كان هناك من يقول «الرحمة فوق العدل»، فإنني أقول «العدل فوق الرحمة».. إنني أتمسك بالعدل،

وأرفض الرحمة.. ولا أريد أن أخاطب قلوبكم لأبحث فيها عن الرحمة، بل أكتفى بمخاطبة عقولكم باحثًا فيها عن العدل.. ومهما بدا في حالتي التي أعرضها عليكم من غرابة تصل إلى حد الشذوذ، فإنني واثق من أن عقولكم التي تمرست طويلا على اكتشاف خيط العدالة، قادرة على أن تنصفني.. قادرة على أن تعطيني حقي، وتأخذ للمجتمع حقه على.

كل ما هنالك يا حضرات القضاة أنني لا أريدكم أن تحكموا على بالظروف التي أحاطت بي عند ما ارتكبت جريمتي.. بل أريدكم أن تبحثوا عما فعلته هذه الظروف في نفسي.. في داخلي.. إن نفس الإنسان عالم قائم بذاته.. في داخل كل إنسان مدينة كبيرة. أكبر من مدينة القاهرة.. مدينة فيها شوارع

وحوارى وأزقة.. وفيها أتوبيسات وترموايات وسيارات
تاكسى.. وفيها عمارات تنهدم، وعمارات تبني.. وفيها زحام
من الناس.. ناس كثيرون، يضحكون ويبكون، ويتناقشون،
ويصرخون.. ناس أشرار، وناس أخيار.. ناس ضعفاء وناس
أقوياء.. والجريمة التى ارتكبتها وقعت داخل هذه المدينة..
جريمتى لم تقع فى شارع «السد» بحى السيدة زينب، كما
تقول أوراق التحقيق.. ولكنها وقعت فى شارع آخر له اسم
آخر، وفى حى آخر، وفى مدينة أخرى.. إنها وقعت فى هذه
المدينة التى تسمى مدينة النفس الإنسانية.. المدينة التى تعيش
داخلى.. وأنتم لن تجدوا الحقيقة إلا فى هذه المدينة. الحقيقة
التي ستهديكم إلى العدالة.
يا حضرات القضاة.

إنى أرفض فى إصرار هذا التحليل الذى تقدم به الأستاذ
المحامى الذى انتدب للدفاع عني.. إنه يحاول أن يبرر جريمتى
بالجنون.. وبرغم أنى أقدر حسن نواياه، وأقدر أن محاولة
إثبات جنون المتهم هى أسهل الطرق للدفاع عنه.. إلا أنى أرفض
هذه المحاولة.. أرفض أن أكذب عليكم.. أنا لست مسجوناً
يا حضرات القضاة.. أنا فى كامل قواى العقلية.. ولو أحلتمنى
على الطبيب الشرعى، فيسكتشف بعد دقائق أنى عاقل.. عاقل
جدا.. ولكن الأجدى لعدالتكم أن تنتدبوا خبيراً من خبراء علم
النفس لينير أمامكم هذه الشوارع والحوارى والأزقة التى
تتكون منها هذه المدينة الواسعة التى ترقد بكل ضجيجها داخل
صدرى.. وعندما يضاء النور ستكتشفون أنى عندما ارتكبت
جريمتى كنت فى حالة يسمونها فى علم النفس، حالة ازدواج
الشخصية.. لم أكن ساعتها شخصاً واحداً.. بل كنت

شخصين.. كنت عبدالله محمد على جابر وكنت فى الوقت نفسه فاطمة السيد شفيق.

نعم يا حضرات القضاة.. كنت شخصين.. اثنين.. ولكن الجريمة كما ثبت فى التحقيق ارتكبتها شخص واحد.. فمن الذى ارتكبتها؟

هل ارتكبتها أنا عبدالله محمد على جابر.

أم ارتكبتها أنا فاطمة السيد شفيق؟

وتحديد الشخص الذى ارتكب الجريمة، أو على الأصح تحديد الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة، يتوقف عليه حكمكم.. فإن ظروف كل من الشخصين مختلفة، والدافع لكل منهما على ارتكاب الجريمة يختلف.. والظروف والدوافع هى التى تحدد الحكم.. قد تحكمون بالإعدام، وقد تحكمون بالحبس البسيط لمدة ثلاثة أشهر، وقد تحكمون بالبراءة.. ولكن يجب أولاً أن تحددوا الشخص الذى ارتكب الجريمة.. أقصد الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة.

يا حضرات القضاة.

أرجوكم.. طولوا بالكم على.. ولا تنظروا إلى هذا كأنى مجنون.. إن حديثى قائم على أسس علمية صحيحة.. وقد درست علم النفس.. قرأت فيه أكثر مما قرأ الدكاترة المتخصصون.. وقد دفعنى إلى دراسة علم النفس هوايتى للأدب.. أنا أديب يا حضرات القضاة.. قصاص.. صحيح أنى مغمور، لم تنشر لى الصحف شيئاً، ولا صدر لى كتاب.. ولكن ليس معنى هذا أنى لست أرقى فى إنتاجى الأدبى، وأعمق، وأكثر تمكناً، من كثير من الأدباء والقصاصيين المعروفين الذين تنتشر أسماءهم فوق بقع سوداء كالبراطيش .. متى بدأت

هوايتى للأدب.. ربما منذ ولدت، فأنا لا أعى نفسى إلا وفى
يدى قلم.. إن الموهبة تورث يا حضرات القضاة.. وقد كان
جدى الشيخ على جابر أديبا موهوبا، وربما ورثت عنه الأدب،
كما ورث اسكندر ديماس الابن موهبته عن اسكندر ديماس
الأب.. وكنت أطمع دائما أن يكون عندنا بين الأدباء العرب
«جابر الجد» و «جابر الحفيد» أى أنا.. و..

حاضر يا سيادة الرئيس.. سأختصر.. ولكنى يجب أن
أحدثكم عن هوايتى للأدب وكتابة القصة حتى تصلوا إلى
الحقيقة.. الحقيقة التى دفعتنى إلى الوقوف أمامكم فى قفص
الإتهام.. إن هوايتى هى التى تحدد شخصيتى.. أو هى - كما
يقول الأستاذ العقاد فى كتب العبقریات - مفتاح شخصيتى ..
وقد حالت ظروفى دون أن أتم تعليمى.. انقطعت عن المدرسة
قبل أن أحصل على الشهادة الثانوية، وحصلت على وظيفة
ساع فى شركة المقاولات.. وقد أتاح لى انقطاعى عن المدرسة
فرصة أكبر للتفرغ لهوايتى.. قرأت.. قرأت كثيرا.. عشرات
الكتب فى الأدب، فى علم النفس، وفى التصوف، وفى العلوم،
وكتبت.. كتبت كثيرا.. عشرات القصص.. وعشرات البحوث
الأدبية القيمة.. إن ما كتبه يكفى لإنشاء مكتبة قائمة بذاتها..
مكتبة جابر.

وكانت لى دائما قارئة وحيدة..

فاطمة.

جارتى فاطمة.

وكنت أختص فاطمة بقراءة قصصى.. لا أكاد أنتهى من
قصة حتى أشير لها من الشباك، فتأتى إلى بيتنا، وتجلس
بجوار أمى وأقرأ عليها القصة وأنا أرقب عينيها وهما تسرحان

وراء أبطالى وبطلاتى.. وأرى صدرها يتهدج كلما قرأت عليها
مشهد غرام، وأرى وجهها يتقلص فى مواقف العذاب،
والضحكة تكاد تنطلق من شفثيها فى مواقف المرح.. لقد كانت
فاطمة معجبة بكل ما أكتبه، متأثرة به.. كانت مؤمنة بى،
وبأدبى.. بعبقريتى.

إلى أن أحببت فاطمة.

لم تحبنى أنا.

ولكنها أحببت المجنى عليه، إبراهيم الدسوقي مرعى.

كان إبراهيم موظفا فى مصنع النسيج الذى تعمل به
فاطمة.. وقد أعجبت به فاطمة قبل أن يعجب بها.. وجاءت إلى
وصارحتنى بإعجابها وعواطفها، وآمالها.. ثم طلبت منى أن
أكتب لها خطابا ترسله إلى إبراهيم.. ولم أتردد.. كتبت لها
الخطاب ووقعته باسمها.. فاطمة.. وكان الخطاب يا حضرات
القضاة قطعة أدبية رائعة، بلغ من قوة تأثيره أن رد عليه
إبراهيم فى اليوم التالى.. إن إبراهيم أيضا صاحب أسلوب.. إنه
يستطيع أن يكتب هو الآخر.. ولكنه طبعاً لا يستطيع أن يرتقى
إلى مستواى.. وقد فرحت فاطمة بخطاب إبراهيم، وطلبت منى
أن أكتب له خطاباً ثانياً.. وثالثاً.. ورابعاً.. خطابات أكتبها
بلسان فاطمة، وبشخصيتها، وبعواطفها، وبعينيتها، وأوقعها
باسمها.

. يا حضرات القضاة.

هل تعلمون حال الأديب عندما يكتب بلسان فتاة، أو يعبر
عن شخصية فتاة.. إنه يتقمص هذه الشخصية.. إنه يصبح
وهو يكتب هذه الفتاة.. ينقلب فى داخله إلى فتاة.. ويفكر كما
تفكر.. ويحس كما تحس.. ويضحك كما تضحك.. ويبكى كما

تبكى.. وكلما استطاع أن يندمج فى شخصية الفتاة أكثر، تمكن من التعبير عنها أكثر.. إن الكتاب كالممثلين.. يمثلون.. يمثلون الشخصيات التى يرسمونها بأقلامهم والتى يعبرون عنها.. الممثل يمثل على المسرح.. ومسرح الأديب هو داخله.. إنه يقوم بالتمثيل داخل نفسه.

ومر عامان وأنا مندمج فى شخصية فاطمة.. أكتب كل يومين أو ثلاثة خطابا لإبراهيم.. أبثه عواطفى، وآلامى، وأحلامى.. أقصد عواطف فاطمة وآلامها وأحلامها.. وكانت فاطمة خلال هذين العامين قد بدأت تلقى إبراهيم، وكانت تعود لتروى لى كل ما حدث بينهما.. كل التفاصيل.. وكانت فى بادئ الأمر تتردد فى أن تروى لى كل شيء.. ولكنى أقنعتها بأننى لكى أكتب لها خطابات صادقة يجب أن أكون فى نفس حالتها.. فلم تعد تتحرج.. كل شيء ترويه.. أدق التفاصيل.. وأنا أعيش فى هذه التفاصيل.. أحس بلمسات أصابع إبراهيم.. وأحس بقبلاته.. وأسمع كلماته.. أحس بكل ذلك كما تحس به فاطمة.. لقد أصبحت أنا فاطمة يا حضرات القضاة.. أصبحت فاطمة كاملة.. لم أكن أفيق من شخصية فاطمة إلا عندما أذهب إلى عملى فى الصباح.. ثم لا أكاد أعود إلى البيت حتى أصبح فاطمة.. أعيش فى قصة حبيبى إبراهيم.. اقرأ خطابات.. وأكتب له خطابات.. وقد أصبحت أكتب لإبراهيم دون أن تطلب منى فاطمة أن أكتب له.. بل أصبحت أرسل له الخطابات دون أن تقرأها فاطمة.

إلى أن استسلمت فاطمة لإغراء إبراهيم.

أصبحت امرأة.

وجاءت تروى لى كل التفاصيل..

وأحسست بكل ضعف فاطمة، وكل خلجات عواطفها التي دفعتها إلى الاستسلام.. وعشت كما تعيش في الأمل الكبير.. الأمل في أن يتزوجني إبراهيم.. أقصد يتزوج فاطمة.. وأصبحت خطاباتي له تنبض بهذا الأمل.. خطابات فيها ضعف.. ضعف لحظة الاستسلام.. وفيها رجاء.. وفيها توسل.. وفيها استكانة وذل لجبروت إبراهيم بعد أن بدأ يتمرد.

وخطابات إبراهيم تبرد وتتباعد.

وتزداد برودا وتباعدا.

إلى أن تحرك الجنين في أحشاء فاطمة.. وفي أحشائي أنا أيضا.. وأحسست بكل آلام فاطمة.. آلام مريعة.. وكل ضياعها.. ضياع في دوامة هائلة مخيفة.

ولم يعد إبراهيم يكتب إليّ.

عشرات الخطابات كتبتها إليه، ولم يرد عليّ.. خطابات فيها توسل استغاثة.. وفيها تهديد.. توعد.

ولكن التوسل لم يحن قلبه.

والتهديد لم يخفه.

وبدأ يهرب من لقائي.. أقصد لقاء فاطمة.

إلى أن جاءت إليّ فاطمة يوما وهي كالمجنونة.. لقد خطب

إبراهيم فتاة أخرى.

وانهارت فاطمة.

وانهرت معها.

لم تعد المشكلة بالنسبة لي مشكلة شخص آخر.

لم تعد فاطمة في هذه اللحظة شخصية أخرى.

أنا فاطمة.

وأنا الذى خدعت.. وأنا الذى يتحرك الجنين فى أحشائى..
وأنا الذى هجرنى إبراهيم للضياع، والعذاب، والتشرد..
وجلست أكتب له خطابى الأخير.. لم يكن عبدالله هو الذى
يكتب، ولكنها كانت فاطمة بكل آلامها وتمزقها النفسى.. وكان
خطابا رائعا.. قطعة من الأدب العاطفى تستحق أن أنال عليها
جائزة الدولة.

ولم يرد إبراهيم.

والغيظ يفرينى.. والحقد يمزقنى.. والرغبة فى الثأر
تستبد.. ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأل فاطمة عن
أحاسيسها حتى أحس بما تحس، لقد أصبحت أنا فاطمة..
ودون أن أناقش فاطمة الحقيقية، بدأت أعد للجريمة.. إن فاطمة
الحقيقية يا حضرات القضاة لا تعلم شيئا عن هذه الجريمة،
ولم تشترك فى تدبيرها.. ولكن التى دبرتها هى فاطمة
الأخرى.. فاطمة التى تعيش فى داخلى.

وقد اشتريت زجاجة ماء النار الكاوية.. وأرجو أن تضعوا
فى حسابكم أن التفكير فى تشويه وجه المجنى عليه لا يمكن
أن يكون تفكير رجل.. ليس من طبيعة الرجل عندما يفكر فى
الانتقام أن يقرر تشويه وجه غريمه، ولكنه تفكير امرأة.. فلم
يكن عبدالله هو الذى يفكر، ولكنها كانت فاطمة.

وحملت الزجاجة فى جيبى، وذهبت إلى إبراهيم فى بيته..
وحادثته فى موضوع فاطمة، وحاول أولا أن ينكر علاقته بها..
ولكنه فوجئ بالتفاصيل الكثيرة التى ذكرتها له.. كأنى كنت
معهما فى كل لقاء، وفى كل لحظة، وفى كل خطاب.. لقد كنت
معهما فعلا.. بل كنت أنا فاطمة.. وحاولت كثيرا أن أقنع
إبراهيم بأن يصون وعده لى.. أن يتزوجنى .. حرام عليك

يا إبراهيم.. ماتسبنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا
يا إبراهيم.. ارحم ابنك اللى فى بطنى يا إبراهيم.. وكنت أتنبه
أحياناً بأننى أحدث إبراهيم بلسان فاطمة .. كأنى امرأة ..
فأحاول أن أتخلص من شخصية فاطمة ، وأحدثه كعبد الله..
رجل لرجل.. ولكنى لا ألبث أن أعود وأحدث كفاطمة.. حرام
عليك يا إبراهيم.. ماتسبنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا
يا إبراهيم.

وربما ظننى إبراهيم مجنوناً، فبدأ يدفعنى خارج الغرفة..
بدأ يدفعنى فى عنف.. ولم أحتمل عنقه.. فرفعت الشمعدان
النحاسى، الذى كان قريباً من يدى وضربت به على رأسه..
وسقط تحت قدمى.. فأنهلت عليه ضرباً، إلى أن سكت عن
الحركة.. ثم أخرجت ماء النار وسكبته على وجهه، ووقفت
أرقبه.

أتدرون ماذا كان إحساسى فى هذه اللحظة يا حضرات
القضاة.

أحسست بالدهشة.

نعم دهشت.. فقد أفقت فى هذه اللحظة من الشخصية
الأخرى، وعدت إلى شخصيتى الحقيقية.. أصبحت عبدالله..
وعبدالله لا يريد أن يقتل إبراهيم، ولم يفكر فى تدبير الجريمة..
ولكنها فاطمة.. فاطمة هى التى دبرت، وهى التى قتلت.

يا حضرات القضاة.

إن وكيل النيابة يقول إنى قتلت إبراهيم بدافع الغيرة، لأنى
كنت أحب فاطمة.

لا.. لم أكن أحب فاطمة.. كيف أحبها وأنا الذى كنت أكتب
خطاباتها لإبراهيم.. لا.. لم أحب فاطمة.

كنت أنا فاطمة.

فاطمة التي تعيش في داخلي هي التي قتلت إبراهيم.. وفاطمة لديها أسباب مخففة.. القانون لا يمكن أن يحكم بإعدام فاطمة، ولا العدالة.

وعدالتكم تأبى أيضا أن تحكموا بإعدام عبدالله، لأن عبدالله لم يرتكب الجريمة.. عبدالله لم يقتل، وليس لديه دافع لقتل إبراهيم مرعى الدسوقي.. والدافع شرط أساسي لتوفر أركان الجريمة.

وأنا واثق من عدالتكم.
وعذرا إن كنت قد أطلت عليكم.

كل هذا الجمال

أنا هذه السيدة التي يعرف كل الناس أنها ليست جميلة.

وأقول : «ليست جميلة» لأنى لا أستطيع أن أقول «قبيحة» أو «دميمة» أو أى وصف آخر من هذه الأوصاف المباشرة القاسية التي يمكن أن يصفنى بها الناس.

والناس تتساءل دائماً : كيف استطعت أن أحتفظ بزوجى كل هذه السنين برغم أنى لست جميلة ؟ وزوجى رجل وسيم، أنيق، ناجح، رائع، إنه حلم.. تحلم به أجمل الجميلات.. فكيف استطعت أن أحتفظ به.. أنا.. أنا التي ليست جميلة.

بعض الناس يعتقد أنى أحتفظت به بذكائى.. وعندما يصفوننى بالذكاء، لا يقصدون الذكاء الطيب الحلو، بل يقصدون الذكاء الشرير الخبيث.. الذكاء الذى استطاع أن يسجن هذا الرجل الرائع داخل سجن له عظام بارزة مديبة

كالشوك وله جلد أزرق مكرمش، وله وجه تعيس ليس فيه خط واحد من خطوط الجمال.

وبعض الناس يعتقد أنى أحتفظ بزوجى عن طريق إثارة إحساسه بالمسئولية نحو أولادنا الخمسة.. كأنى كنت أقصد أن أحمل وأن ألد لا لشيء إلا لأزيد عدد الحبال التى تربطه بى، وتقيدته إلى.

وبعض الناس يعتقد أن زوجى رجل طيب، وأنه أحتفظ بى بداعى الشفقة.. الغلابة.. المسكينة.. الوحشة.. إنه لا يستطيع أن يلقيها فى الشارع.. لن تجد رجلا آخر يأويها.. فأحتفظ بها.. شفقة عليها، وتقربا لله.

و.. كلام كثير يقوله الناس، ولكن لا أحد منهم استطاع أن يتصور قسوة العذاب الذى احتملته حتى أحتفظ بزوجى.. عذاب كل يوم.. عذاب كل ساعة.. عذاب كل دقيقة.. فأنا أعلم - قبل أن يعلم الناس - أنى لست جميلة.. وأرى نفسى أكثر مما يرانى الناس.. وأكره نفسى.. أكره هذا الجسد النحيل الذى يلتصق جلده فوق عظامه.. وأكره لونى الغامق الذى يميل أحيانا إلى اللون الأزرق وأحيانا إلى اللون الأخضر.. وأكره أنفى.. وأكره شفتى.. حتى رموش عيني أكرهها.. وأنا أعلم أن المرأة لا يمكن أن تكون مجرد رفيقة حياة.. ولا مجرد صديق.. ولكنها يجب أن تكون شيئا جميلا فى حياة الرجل.. يتزين بها!.. ويتباهى بها أمام أصدقائه.. وأنا لست جميلة.. لا يستطيع زوجى أن يتزين بى، ولا أن يتباهى بى.. ولذلك حاولت ألا أتزوجه.. حاولت.. حاولت كثيرا.. حاولت لأنى كنت أحبه، ولم أكن أريد له زوجة ليست جميلة مثلى.. إنه ابن خالتى.. وعلى عادة الدائلات القديمة تقرر زواجنا منذ ولدنا..

وربما ولدت وأنا أعد نفسي له.. ومنذ بدأت أرى نفسي في المرأة وأنا أعرف أنى لست جميلة.. ولكن كنت دائما أتعلق بأمل كبيرة أن شيئا ما سيحدث لى أصبح بعده جميلة.. وكل صباح أطل في المرأة لعل هذا الشيء يحدث.. ولكنه لم يحدث أبدا.

وأطل في عيني حسن فأحترار فيهما.. هل يرانى كابنة خالته، أو يرانى كحبيبته وخطيبته وزوجة مستقبله.. إنه مرح دائما.. رقيق.. حتى هذه الأوامر الصغيرة التى يلقيها على بين الحين والحين.. ما تخرجيش.. ماتلبسيش الفستان ده.. و.. و.. قد تكون أوامر رجل يحب ويغار على حبيبته، وقد تكون أيضا أوامر أخ، أو ابن خالة.

وحيرتى تكبر مع عمرى.. إنى لا أستطيع أبدا أن أعرف إذا كنت حبيبته أم ابنة خالته.. ولم يكن بيننا هذه المواقف العاطفية التى قد تساعدنى على الخروج من حيرتى.. لا كلمات حب.. ولا قبيلات.. ولا خلوات.. إنه دائما فى بيتنا، وأنا دائما بين أفراد عائلتنا.. ودائما قد أكون بالنسبة له ابنة خالته، وقد أكون حبيبته.

وحبى يكبر مع حيرتى.. إنى أحبه.. إنه بالنسبة لى ليس ابن خالتي، إنه حبيبى.. إنه خفقات قلبى.. إنه دنياى.. لست حائرة فى حبى له، ولكنى حائرة فى حبه لى.

والتردد والشك يمزقنى.. هلى يمكن أن يحبنى.. هلى يمكن أن يحب هذه الفتاة الدميمة.. هلى يمكن أن يتزوجها.. وإذا تزوجها، فهل تزوجها لأنه يريد لها أو لأنه مسئول عنها.. ولأنه يشفق عليها.. ولأنه تورط فى زواجها.

وبدا الشك يغلبنى.

وبدأت أفكر فى الهروب من هذا الزواج، لا لأنى لا أريده،

ولكن لأنى لا أريد له أن يتزوج فتاة مثلى.. ليست جميلة.
إلى أن بلغت الثامنة عشرة من عمرى، وبدأت العائلة
تتفاوض لتحديد يوم الزواج.. ولجأة وجدت نفسى أصرخ :
- مش عايزة أتجوز.

وبهت كل من فى العائلة.. كان زواجنا حقيقة بديهية بين
أفراد العائلة، منذ ولدنا، إلى حد أن تركت صرختى أثرا
كانفجار القنبلة الذرية.
وحاولوا معى كل الوسائل.

وحاولوا إقناعى بالرفق.. وحاولوا إجبارى بالتهديد.. ولكنى
استعنت بكل عنادى، وأصررت على موقفى، وكانت حجتى أنى
أريد أن أتم تعليمى الجامعى، ثم أبحث عن عمل.
إلى أن دخل حسن إلى غرفتى ذات يوم، وأنا مازلت
بقميص النوم.. ووقف أمامى وفى عينيه نظرة حازمة غاضبة،
وصرخ فى وجهى :

- اسمعى.. أنا مش عايز دلع.. حانتجوز يعنى حانتجوز..
وحانتجوز الخميس الجاى.. مش عايز اسمع كلام بعد كده.
وهم أن يتركنى ويخرج من الغرفة، ولحقت به، ورفعت إليه
عينين خائفتين متوسلتين، وقلت :

- حسن.. أنت صحيح عايز تتجوزنى ؟

ونظر إلى كانى مجنونة وقال :

- آمال يعنى عايز إيه ؟

وعدت أقول وعيناي فيهما هذا الخوف والتوسل :

- أنت متأكد يا حسن.. متأكد أنك عايز تتجوزنى.

ونظر إلى حسن نظرة ملؤها الحنان.. ثم جذبنى إليه
وضمنى إلى صدره فى رفق، وقال وهو يربت على كتفى :

- متأكد يا سعاد.. ماتبقىش عبيطة.
وكانت هذه أول لحظة حنان يمنحها لى حسن.
وعندما تركنى يومها قررت أن أتزوج.
وقررت أيضا أن أحتفظ به كزوج.. مهما كلفنى الاحتفاظ
به.

كيف ؟

كيف أحتفظ به والدنيا تزدهم بالجماليات، وأنا لست جميلة.
وخيل إلى أن الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ به هي أن أجمع
كل حياته فى يدي.. كل حياته.. أدق التفاصيل، وأكبر
التفاصيل.. واستطعت بذلك أن أحقق كل ذلك.. أصبحت حياة
حسن بين يدي، أنا التى أديرها، وأنا التى أشرف عليها.. أنا
التي أشتري له ثيابه وأعدها له.. وأنا التى تختار له أصدقاءه
وتجمعهم به أو تفضهم من حوله.. أنا ذاكرته فى عمله.. وأنا
البنك الذى يحتفظ فيه برصيده.. وأنا.. وأنا.. لقد أصبح حسن
طفلا لا يستطيع أن يتحرك بعيدا عن أمه.. وأنا أمه.. التى
تصنع له دنياه.. وقد صنعت له دنيا ضيقة ليس فيها ولا امرأة
جميلة.

ولكن الجميلات لسن فى المجتمع فقط.. إنهن فى المجالات،
وفى السينما، وفى التلفزيون.. وأطل فى مرآتى فأرى وجهى
ليس جميلا.. وأرى جسدى وقد التصق جلده فوق عظامه..
والتفت فأجد حسن يخلق فى صورة امرأة جميلة منشورة فى
مجلة، أو يخلق فى وجه امرأة تطل من شاشة التلفزيون،
فتنتابنى موجة قاسية من الخوف.. أخاف.. أخاف على حسن..
إن كل دقيقة من عمرى دقيقة خوف.
وأنجبنا بنتنا فايضة.

ثم ابنتنا زياد.

وعندما حملت فى خالد قررت أن أتخلص من الحمل.. لقد بدأت أحس بأنى قد لا أكون صادقة مع نفسى وأنا ألد هؤلاء الأولاد.. خطر لى مثل ما خطر للناس الذين يتخذون عنى، من أنى ألد لا حبا فى الأطفال، ولكن لأقيد بهم حسن إلى.. وحاولت فعلا أن أتخلص من حمل خالد.. وثار حسن.. إنه يريد.. ويريد أن يملأ البيت بكثير من أولاده وبناته.

ولكن هذه الفكرة التى سيطرت على جعلتنى شبه مجنونة.. فعدت أحاول أن أتخلص من حملى دون علم حسن.. ولكنى لم أفجح.. وجاء خالد..

والخوف يستبد بى.

ليس الخوف وحده، إنما بدأ الإحساس بأنى أحرم حسن من حقه فى الجمال.. حقه فى أن تكون له امرأة جميلة، يتمتع بها، ويتزين بها، ويتباهى بها.

والخوف يكبر.

والإحساس بأنى جنيت على حسن يكبر.

إنى امرأة معقدة.

عقدتى تمزقنى.

ويمزقنى أكثر محاولة أن أخفى عقدتى عن حسن، أن أبدو أمامه دائما كامرأة طبيعية.

ثم لم أعد أحتمل كل هذا العذاب.

يئست من محاولتى الاستمرار فى كل هذه المعاناة.

وفى يوم قررت أن أغير كل هذه الحياة.

قررت أن أفرج عن حسن.. أن أطلق سراحه من هذه الدنيا الضيقة.. من هذا السجن الدميم.

وبسرعة فتحت كل الأبواب على الدنيا الواسعة.. بدأت
أتعرف على المجتمعات التي تضم أجمل نساء مصر.. كل ليلة
فى حفلة.

وعيناي لا تطرفان عن حسن.

إنه يبدو مبهورا بالدنيا الجديدة التي فتحتها له.. يبدو
كالطفل وهو يتفرج على الصواريخ الملونة.. وقد نجحت
شخصيته بين النساء.. وسامته، أناقته، نجاحه، رفته.. ويلتقفن
حوله، يأكلنه بأعينهن، ثم يلتفتن إلى ويتهامسن.. وأنا أرقب
حسن.. أرقب كل نظرة فى عينيه، وكل التواءة بين شفتيه،
وكل كلمة يقولها، مهما بعدت عنه لا يفوتني منه شيء.. وأكاد
أسمع همسات الجميلات عندما ينظرن إلى.. أسمعها بخيالي..
إنهن يتهامسن بأنى وحشة، قبيحة، ويتساءلن كيف استطعت
أن أتزوج هذا الرجل الرائع، وكيف استطعت أن أحتفظ به.

ونعود إلى البيت كل ليلة.. وحسن سعيد.. فى منتهى
السعادة.. وأنا أكتم عنه عذابى ويأسى.

إلى أن تعرفنا بناهد.

إن نهاهد مطلقة شابة، شقراء، جميلة، رائعة الجمال.. أنا
نفسى بهرنى جمالها عندما التقيت بها لأول مرة.

وبهرت حسن.

ومنذ اللحظة الأولى عرفت أن ناهد قد أخذت من اهتمام
حسن أكثر مما أخذت منه أى امرأة أخرى.. ولاحظت أنهما
بسرعة.. فى ساعة واحدة.. أصبحا أصدقاء، إنهما يتحادثان
فى بساطة وجرأة، ويتضحكان كأنهما عاشا العمر كله معا.

وفى هذه الليلة.. الليلة الأولى التى التقينا فيها بناهد..
قررت أن أترك لها حسن ليتزوجها.

لم أتركه لها مرة واحدة.. ولكنى تعمدت أولاً أن أصادقها..
أصبحت أقرب الصديقات إليّ.. نتحدث كل صباح في
التليفون، ونخرج معا لنطوف بالمحال.. ودائماً معا على العشاء
أو الغداء.. في بيتي، أو في بيتها، أو مدعوين عند بعض
الأصدقاء.. وحسن دائماً معنا، ثم بدأت خطوة أخرى.. بدأت
أدعوها إلى الشاي أو العشاء، وقبل أن تصل أخرج من البيت
وأنا أقول لحسن :

– ناهد جاية دلوقتى.. أقعد معاها لغاية ما أرجع.. مش
حاجيب.

ويأخذ حسن الأمر ببساطة.

وكنت بذلك أتعمد أن أدفعه إليها أكثر.. كنت أريده أن يصل
إلى القرار الذى اتخذته أنا، أى أن يتزوجها.. وكنت أتركهما
وحدهما في البيت، وأخرج أجوب على قدمى ساعة أو ساعتين،
وأنا أحس بأنى شهيدة.. شهيدة تضحي بنفسها من أجل
إسعاد الرجل الذى تحبه.. إن هذا الإحساس.. الإحساس بأنى
شهيدة.. يريحنى من عقبتى بأنى دميمة.. يربط أعصابى..
يملؤنى اعتزازاً بنفسى وبقوتى.. ثم كنت أعود إلى البيت
لأجدهما.. حسن وناهد جالسين أمام التليفزيون.. أو يسمعان
شرائط أم كلثوم.. وأبدو أمامهما مرحلة وفى داخلى هذا
الإحساس الطاغى الحلو بأنى شهيدة.

إلى أن كان يوم.

وخرجت من البيت وتركت حسن وحده.. وعدت بعد
ساعتين أسأله :

– ما حدث ضرب تليفون؟

وقال حسن فى بساطة :

- ناهد اتكلمت، وقعدت ترغى معايا ساعتين.
- وجلست قبالة وأنا أبتسم له ابتسامة حزينة.. ابتسامة الشهيد.. وقلت فى صوت هادىء أسيطر عليه بكل إرادتى :
- حسن.. أنت لازم تاخذ قرار فى الموضوع ده.
- ونظر إلى فى دهشة، وقال :
- موضوع إيه ؟
- قلت وأنا مسيطرة على كل عصب من أعصابى :
- موضوعنا أنا وأنت وناهد.. اسمع.. أنا مستعدة لكل حاجة، إذا حببت تخالينى أربى العيال وتاخذ أنت وناهد بيت تانى.. ما عنديش مانع.. إذا حببت تطلق أنا.
- وصرخ حسن فى وجهى :
- إيه الكلام اللى بتقوليه ده.. إنتى اتجننتى يا ست انتى.
- قلت فى هدوء دون أن أهتز :
- أنا عارفة أن ناهد حلوة.
- وصرخ حسن :
- وأنا مالى إذا كانت حلوة.. هى بتاعتى.
- قلت :
- حاتبقى بتاعتك.. اتجوزها.
- وصرخ حسن بأعلى صوته :
- انتى بتخرفى بتقولى إيه.. إيه اللى حصل فى مخك.
- قلت وأنا ما زلت هادئة :
- أنت لازم تتجوز واحدة حلوة.. حرام.
- وعاد حسن يصرخ كأنه جن :
- وأتجوز واحدة حلوة ليه.. ما فيه ألف واحدة حلوة،

ما اتجوزهم كلهم.. اشمعنى ناهد.. ما خديجة حلوة.. وفيفى
حلوة.. وخيرية حلوة.. و...

وقلت وقد بدأ هدوئى يهتز :

- حرام إنك تقعد طول عمرك متجوز واحدة وحشة زىي.
وسكت حسن فجأة.. ونظر إلى طويلا.. ثم قال فى صوت
هادىء عميق :

- أنا ما أعرفش أنك وحشة يا سعاد.. أنا أعرف أنى بأحبك.
وبكيت.



صدقونى أنى لا أبذل مجهودا للاحتفاظ بزوجى.. أعنى أنى
لا أتعمد أن أبذل مجهودا خاصا أكثر مما تبذله أى زوجة
فاضلة.

وإنى أؤمن الآن بأن ليس هناك زوجة جميلة، وزوجة ليست
جميلة.. ولا زوجة ذكية.. وزوجة غبية.. ولكن هناك زوجة
يحبها زوجها، وزوجة لا يحبها زوجها.. وعندما يوجد الحب
يوجد معه الجمال والذكاء.. يوجد ما يكفى للاحتفاظ بالزوج
مدى الحياة.

وزوجى يحبنى.

وحولنا كثيرات من النساء الجميلات.. وأنا بينهن قوية..
لم أعند معقدة.. إنى قوية.. أقوى منهن جميعا.. واثقة من
نفسى.. لأنى واثقة من حب حسن.

اكشاف الألومنيوم

عاد جمعة عبدالصمد إلى القرية وهو يرفل في جلباب حريري، وفي قدميه حذاء أصفر لامع، وعلى رأسه طاقية شبكية تميل فوق حاجبه.. ويوسع في خطاه فيخشخش طرف جلبابه بين ساقيه، وكأنه، يهمس «اسكت ما اسكتش».. وفي ذراعيه سبت كبير من الخوص محمل بالهدايا.. معظمها هدايا لخطيبته بهية، ولأمه، وحماته في المستقبل، وهدايا صغيرة لأبيه وإخوته وأولاد عمومته.. وفي عينيه نظرة فرحة لا تخلو من التعالي السانج والغرور الطيب.. ويتلفت حواليه فيرى كل شيء كما تركه منذ عشر سنوات.. أو أن خياله أبقى أن يعترف أن شيئاً يمكن أن يتغير في القرية وهو بعيد عنها.. فلم يلمح مبنى الوحدة الجمعة الذي أقيم خارج القرية.. ولم يلمح طلمبة المياه.. لم يلمح أي جديد.. عيناه ممثلتان بصورة القرية كما تركها منذ عشر سنوات.. الساقية العتيقة في مكانها، ولا تزال تدور، وخيل إليه أن الثور الذي يدور بها هو نفس الثور.. وزرعة القطن هي التي تركها في الغيط.. وقبة الشيخ العتر..

والطرق المعفرة التي تكسوها طبقة من التراب الأبيض الناعم..
والمصرف.. وشجرة الجميز.. ومنذ عشر سنوات ترك جمعة
القرية، وانتقل ليعيش مع عمه في البندر.. وكان عمه طباحا في
سراى المحافظة.. وقد تغير المحافظون ولكن عمه لم يتغير.. ظل
طباحا في السراى، منذ كان المحافظ «باشا» قبل الثورة، إلى أن
شهد محافظين، يأكلون الملوخية بأصابعهم كالفلحين..
واشتغل جمعة مع عمه.. فى المطبخ.. وعاش يسمع ترحم عمه
على أيام زمان، عندما كان يطبخ كل يوم خروفا وعشرة
أصناف من الطعام.. ولم يتأثر جمعة بأيام زمان ولا انصرف
إليها خياله، فقد كان كل همه أن يتعلم من عمه فنون الطهو..
وصاح فيه عمه وهو يرقب تلفه على تلقى أسرار المهنة :
- يا ابنى هو فيه حد بيطبخ الأيام دى.. دول كلهم صنفين
تعملهم أمك وهى مغمضة.

وبرغم ذلك تعلم جمعة طهو أصناف من الطعام لا تعرفها
أمه، ولا تذوقها فى بيته.. تعلم كيفية عمل اللحم الرستو،
والحمام الكولباست والسماك الميونيز.. و.. و.. وعندما مرض
عمه تولى مكانه.. ولم يشك البية المحافظ.. بل أشاد بمهارة
جمعة.. ثم.. مات العم.. وأصبح جمعة هو طباح السراى.
وفكر جمعة فى الزواج.. وكان تفكيره محصورا فى الزواج
من إحدى بنات البندر، فهو قد تغير، لم يعد من أبناء القرية..
إنه أحد أبناء البندر.. يلبس الجلابب الصوف والحريز، وأحيانا
يلبس القميص والبنطلون، ويجلس فى قهوة المحطة، مع
أصدقاء كلهم أفندية ويقرأ الأهرام كل مساء.. يقرؤه بصعوبة..
ولكنه يقرؤه.. لقد تغير كثيرا، ولم تعد تصلح له إلا إحدى
بنات البندر. وبرغم ذلك تردد طويلا.. لا يدرى لماذا.. إن
تفكيره فى الزواج ينقصه الاندفاع.. كان يفكر فى الزواج وهو

جالس في المقهى.. أو وهو جالس في غرفته يتحدث مع جيرانه.. ولكنه لا يكاد يتحرك من مجلسه حتى ينسى موضوع الزواج.

إلى أن جاء إلى البندر مدبولي عبدالرحمن ليجرى عملية جراحية في المستشفى الأميري.. وعم مدبولي يملك ثلاثة أفدنة في القرية.. وكان بينه وبين والد جمعة - حميدة عبدالصمد - الذي يملك قدانين في نفس الحوض، حزازات قديمة، ومشاحنات كانت تتسع حتى تخرج العائلتان لتواجه إحداهما الأخرى في معارك عنيفة، ولكنها كانت كلها معارك بيضاء قد يسقط فيها جرحى، ولكن لم يحدث أن سقط فيها قتيل.. وقد هدأت هذه الحزازات مع الزمن، وبعد أن استقر العرف الذي يحكم مياه الري بين أرض عم مدبولي، وأرض عم عبدالصمد.. وأصبحت العائلتان على علاقات طيبة وإن ظلت كل منهما محتفظة بشخصيتها وبكيان زعامتها.

وقد أرسل عم عبدالصمد إلى والده جمعة يخبره بوصول عم مدبولي إلى البندر لإجراء عملية في المستشفى.. وأوصاه بأن يزوره ويرعى شئونه.. وكان عم عبدالصمد يبدو في خطابه سعيدا معتزا بابنه الذي يقيم في البندر والذي طلب منه مدبولي أن يوصيه عليه.. وفرح جمعة أيضا وازداد اعتزازا بنفسه وهو يشعر أنه سفير القرية في البندر والمستول عن شئون رعاياها.. وذهب لقوه لزيارة عم مدبولي.. وهناك التقى بابنته بهية.. ولم يصدق أن هذه هي بهية.. والله البت كبرت.. ونظر في عينيها، تطلان عليه من فوق الشال الذي تلفه حول طرف أنفها في حياء وخفر، وأحس أنه وجد بيته في هاتين العينين.. قرر منذ اللحظة الأولى أن يتزوجها.

وفاض جمعة بكرمه على عم مدبولى وبهية، واستعمل نفوذ المحافظ، ونقل عم مدبولى إلى سرير فى الدرجة الثانية، وخصص بجانبه سريرًا آخر لابنته التى تقوم على خدمته.. وهو دائما معهما.. عم مدبولى راقد فى سرير، وهو مع بهية يحدثها عن حياته فى البندر، ويبهرها بحكاياته، ولم يكن يحدثها عن فنون الطهو.. إن الطهو هو عمله، وليس من شيمة الرجل أن يحدث المرأة فى شئون عمله.. وبهية تنظر إليه وفى عينيها أمل كبير.. أمل لم تكن تعتقد أنه قد يتحقق.. إن جمعة يبدو أمامها إنسانا كبيرا من عالم بعيد، لا يمكن أن تصل إليه، ولا يصل إليها.. وبرغم ذلك فالأمل لا يريد أن يخبو، وعيناها تزدادان قربا من عينييه.. وكما رأى فى عينيها صورة بيته، رأت فى عينييه بيتها.

وما كاد عم مدبولى يعود إلى القرية بعد شفائه ومعه ابنته، حتى أرسل جمعة خطابا مستعجلا إلى أبيه يطلب منه أن يخطب له بهية، وأن يتفق نيابة عنه على كل التفاصيل.



وعاد جمعة إلى القرية بعد عشر سنوات ليعقد قرانه على بهية.

ورحبت به القرية.. وذبح أبوه خروفين أمام ضريح الشيخ العتر احتفالا بعودة ابنه.

وجلس جمعة مع بهية يحدثها وقال فى سخط :

- وما نكتبش الخميس الجاى ليه.. ايه لزمة اللكاعة دى..

وقالت بهية وهى تنظر إليه بعينين متوسلتين حتى لا يغضب:

- أصل لسه النحاس.

ونظر اليها جمعة بعينييه الساخطين وقال :

- نحاس إيه.

قالت :

- النحاس.. الحلل، والطشب.. أبويا بيقول إن الحلة اللي أد الكوز بقت بأربعة جنيهاات.

وقال جمعة :

- ومين قال له احنا عايزين نحاس.

ونظرت إليه بهية فى دهشة وقالت :

- نتجوز من غير نحاس يا جمعة.

وصرخ جمعة :

- نحاس إيه يا بت.. النحاس ده بطل من زمان.. وقالت

بهية ودهشتها تشدد :

- آمال الناس بتطبخ وتغسل فى إيه بأه.

وقال جمعة وهو يبتسم فى وجهها ابتسامة ساخرة :

- فى الألومنيوم.

قالت بهية :

- فى إيه ؟

وقال جمعة وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- الألومنيوم.

وقالت بهية وهى تمصمص شفقتها تعجبا:

- وإيه بأه الألومنيوم ده.

قال جمعة :

- ده أحسن من النحاس.. أخف، وأرخص، وعمره

ما يجنزr.. مش عايز تبييض ووجع قلب زى النحاس.

ونظرت إليه بهية كأنها تنظر إلى مجنون، وعادت

تقول :

- نتجوز من غير نحاس يا جمعة.. نحاس أحمر.. البلد

تقول علينا إيه ؟.

وصرخ جمعة :

- يا بت انتورى بأه.. ماحدش دلوقتى بيحب نحاس.. دى سراية البيه المحافظ كلها مافيهاش حته نحاس واحدة.. كله ألومنيوم.

وقالت بهية كأنها لم تسمعه :

- نحاس أحمر أفرح بيه.

وعاد جمعة يصرخ :

- وما تقرحيش بألومنيوم أبيض ليه.. اسمعى يا بهية.. كلمة واحدة.. أنا مش عايز نحاس فى بيتى.. ولو أبوكى جاب نحاس حايبعه واشترى ألومنيوم.

وردت بهية والدموع تنبثق من عينيها :

- أتجوز من غير نحاس يا جمعة.. أنا أتجوز من غير نحاس.. ويخلصك برضه يا جمعة.
ثم فزعت من جانبه وجرت إلى أمها تسبقها دموعها.



فى صباح اليوم التالى دخلت أم بهية على أم جمعة، وجلست بجانبها وقالت :

- إيه يا ست أم جمعة الحكاية.. يعنى إيه سى جمعة مش عايز نحاس.. احنا كنا اشتكيننا ولا قصرنا.. النحاس حايبجى لو دفعنا بدل الجنه ألف.

وقالت أم جمعة :

- يا أختى ماحدش قال كده.. بس أصل ابنى جمعة متتور وعایش طول عمره فى البندر.. وبرضه يفهم أحسن مننا يا فلاحين. وقالت أم بهية :

- ودى عايزة فهم.. هو فيه جوازه من غير نحاس.

وقالت أم جمعة :

- أصل سى جمعة بيقول النحاس بطل.. والناس بتطبخ
وبتغسل فى حاجة مش عارفة اسمها إيه كده.
وقالت أم بهية :

- بأه فى ذمتك يوم ماتجوزى بنتك فردوس، ترضى
تجوزيها من غير نحاس.
وقالت أم جمعة :

- والنبي لو بنتى لقت راجل زى ابنى جمعة لأمشى كلامه
عليها وعلينا وعلى البلد كلها.. الرك يا أختى ع الراجل.
وقالت أم بهية :

- والراجل ييهدلنا فى وسط البلد.. وده كلام تقولييه
برضه.. والله بنتى ماتتجوز من غير نحاس أبدا.. نحاس أحمر
وملعلع.. واللى مش عايز نحاس مايتجوزش بنتى.
وقالت أم جمعة وهى تصرخ :

- لا يا أم بهية.. ماتغلطيش.. إالى مش عايزنا مش عايزينه
ده ابنى كانت بتجرى وراه كل بنات البندر.. غيرش أنه ابن
أصل وحب ياخذ من بلده.

وقالت أم بهية وهى تصرخ هى الأخرى :
- والله يا أختى ضفر بنتى بكل بنات البندر.. هو حد كان
شده من قفاه وقاله تعالى اتجوز من عندنا.. وعلى إيه..
ما بلاش.. بلاش خالص.. بلاش نحاس وبلاش جواز.
وقامت من جانبها تدب الأرض بقدمها الثقيلة..



وفى المساء اجتمع عم مديولى، وعم عبدالصمد، والشيخ
يحيى إمام الجامع، وإخوة جمعة، وأولاد مديولى، ودار
الحديث حول النحاس والألومنيوم.. وقال جمعة وهو يحاول
أن يسيطر على أعصابه ويبدو هادئاً :

■ اكتشاف الألومنيوم ■

- اسمع يا عم مدبولي.. دى شغلتي.. أنا طباح وأعرف اللي ينقع واللى ماينفحش.. والنحاس الأحمر ما بقاش ينقع.. الناس الأكابر بتستعمل دلوقتى الألومنيوم.. حلل ألومنيوم.. وطشت ألومنيوم.. وأطباق ألومنيوم.. ليه.. اشمعنى الألومنيوم ومش النحاس.. لأن الألومنيوم مايجنزش.. مافيش خوف أنه يسم حد زى النحاس المجنر ما يسم الناس.. ومش محتاج نجيب مبيض نحاس يبيضه كل يوم والتانى.. ووزنه أخف.. يعنى بدل البت من دول ماتشيل حله واللاطشت نحاس يقسم وسطها، تشيل حله ألومنيوم خفيفة.. زى الريشة.. ثم إن الألومنيوم أرخص.. و.

وقاطعه عم مدبولي قائلًا وهو يستغفر الله :

- شوف يا ابنى.. الصراحة أحسن.. أنت دفعت مهر ستين جنيه، وأنا لغاية دلوقتى دفعت فوقهم أربعين.. جينا السرير، والمراتب، والحصر، والدولاب، وفاصل النحاس.. والنحاس متأخر علشان القلوس. والله شهيد على ما أقول.. أنا مستعد أدفع فوق الأربعين أربعين كمان.. وإذا كنت فاكرك أنك بتوفر على.. لا والله.. أنا بنتى لازم تتجوز كاملة من كله.. والنحاس جاي يعنى جاي.
وصاح جمعة :

- يا عم مدبولي مش مسألة فلوس.. أنا عايز أعيش زى الناس المتقدمة.. حد شريكى يا عالم.. أنا عايز ألومنيوم.. ما أبقاش حر فى بيتى يعنى.. وبكره حاتعرفوا أن الألومنيوم أحسن من النحاس.

وقال عم عبدالصمد وهو غير مقتنع تمامًا بكلام ابنه :

- ماتسييه يا مدبولي.. خده على عقله.. مادام مش عايز نحاس.. خلاص.. يوفر.

■ اكتشاف الألومنيوم ■

وقال الشيخ يحيى :
- الواقع أننا نحكم على مجهول، فليس منا من يعرف هذا الميموم.

وقال جمعة :
- اسمه الألومنيوم.

وقال الشيخ يحيى :
- لا نعرفه.

وقال مديولى :
- نعرفه والاما نعرفوش.. مش ممكن بنتى تتجوز من غير نحاس.. عايزين تقضحوني فى وسط البلد.. وبلاد المركز كله.. عيب يا عبدالصمد.. عيب يا جمعة..



والقرية كلها تتحدث عن النحاس والاكتشاف الجديد الذى يسمى الألومنيوم.

وفى الصباح الباكر ذهب جمعة إلى البندر واشترى مجموعة من الأوانى الألومنيوم.. وعاء كبير أكبر من أكبر حلة.. ووعاء آخر.. وأصغر، وطشت.. ومجموعة من الأطباق.. كلها من الألومنيوم وعاد بها إلى القرية فى المساء.
والتف أهل القرية يتفرجون على الألومنيوم.

وقال الشيخ يحيى وهو يقلب فى يده طبقا من الألومنيوم :
- هذا صفيح، أو كالصفيح.

وصرخت أم بهية :

- يا خرابى.. بنتى تتجوز بصفيح.

قال شحاته :

- لا.. مش صفيح.. ده زنك.

وقال عباس :

- دى حاجات بتاعة المستشفيات.. يكونش جمعة ناوى
يسكن فى مستشفى..
وقال عوضين :
- دى حاجات خوجات وأنت الصادق.. الخواجه اللى كان
فاتح فى المركز كان بيطبخ فى بتاعة زى دى..
وقالت بهية والدموع فى عينيها :
- أنا عايزة نحاس أحمر..
وصرخ مدبولى :
- اسمع يا جمعة.. الجوازة مش نافعة.. بهية مش لك.. من
بكره حايكتب كتابها على عباس.. احنا لا من أهل البندر..
ولا خوجات..
وصرخ جمعة :
- بهية بتاعتى.. مراتى.. قرئت فاتحتها.. ماحدث يقدر
يتجوزها غيرى..
واشتد الصراخ..
وتجمعت عائلة مدبولى فى جانب..
وعائلة عبدالصمد فى جانب..
وارتفعت أعواد الشوم الغليظة فى الهواء..
وفى المساء.. نفس المساء.. تسلل بعض أولاد عبدالصمد إلى
أرض مدبولى وقطعوا المياه عنها.. ولحمهم أولاد مدبولى..
وانطلق الرصاص.. وخرج جمعة من البيت يجرى.. لم يكن
يعلم مايجرى.. ولم يكن يعلم من أين ينطلق الرصاص.. وشق
طريقه بين الجانبين.. فى الظلام.. وأصابته رصاصة.. لا أحد
يعلم حتى اليوم، هل هى رصاصة أطلقها إخوته، أو أطلقها
إخوة بهية..
وقتل جمعة..

■ اكتشاف الألومنيوم ■

وبعد أربعة أيام قتل شحاتة بن مدبولي وأخو بهية.. ثأرا لجمعة.

وبعد شهور مات عبدالصمد حسرة على ابنه.
ومات في نفس الشهر مدبولي حسرة هو الآخر على ابنه..



ونسيت القرية مشكلة النحاس والألومنيوم.

والثأر لا يزال قائما بين العائلتين.

ثأر لا موضوع له.. ولكن له ضحايا.

وخرجت فردوس أخت المرحوم جمعة تحمل على رأسها
الوعاء الألومنيوم الكبير الذي اشتراه جمعة يوماما.. وقالت لها
فتحية :

- والنبى يا أختى ده أخف من الداهية النحاس اللي أنا
شايلها على دماغى.

وقالت عزيزة :

- ويستحمل زى النحاس وأكثر.

وقالت فتحية :

- ولا يصدى.. ولا يجنزر، ولا عايز تببيض ولا حاجة.

وقالت سنية :

- وبيقولوا أرخص.

وبدأت نساء القرية وبناتها يستعملن الأوانى الألومنيوم..
دون أن تتذكر واحدة منهن جمعة.. شهيد الألومنيوم.
واحدة فقط كانت تذكره وفي قلبها حسرة كبيرة.
بهية.

وعندما تزوجت بهية كانت كل أوانيها من الألومنيوم..

الخمسة

أحمد.. عزيزى :
رأيتك أمس.

بعد خمسة عشر عاما، رأيتك.. أتدرى.. إنك لم
تكبر.. بشرتك السمراء المشدودة.. أنفك المستقيم
الذى يحمل ملامح شخصيتك القوية.. عيناك الجادتان
الحازمتان كأنهما تلقيان فى كل لفتة أمرا عسكريا.. ابتسامتك
الدائمة التى تشق خطا رفيعا بين شفتيك الغامقتين الممتلئتين..
و.. كم عمرك الآن.. الخامسة والخمسون على ما أعتقد..
وبرغم ذلك فإنك مازلت تبدو كما تركتك فى الأربعين.
والحمد لله أنك لم ترنى عندما رأيتك، وإلا لما عرفتتى.. أنا
تغيرت كثيرا يا أحمد.. جلدى ارتخى فوق عظام وجهى..
جفناى سقطا فوق عيني.. تشققت شفطائى.. لم أعد هذه الزوجة
الصغيرة الحلوة التى عرفتها منذ خمسة عشر عاما.. بل لم أعد
أبدو فى سنى.. سن الثامنة والثلاثين.. إنى أبدو أكبر بكثير..
وأحاول كثيرا أن أنكر هذه الحقيقة، فأقف أمام مرآتى وأشد
جلد وجهى بكفى، وأفتح عيني على وسعهما لأدأرى تجاعيد

■ الهزيمة ■

جفنى، ولكن لا أكاد أرفع كفى، حتى يعود جلدى ويرتخى،
ويسقط جفناى.. وأرى نفسى كما أصبحت.
نعم.. لقد تغيرت كثيرا يا أحمد.

وعندما رأيتك، وتداريت خلف فانوس النور أرقبك وأنت
تركب سيارتك، أحسست فى لحظة واحدة أنى عدت إلى عمرى
معك.. إلى شبابى.. إلى أيامنا.. وابتسمت ابتسامة كبيرة
زغردت فى صدرى بل كدت أضحك كما تعودت أن أضحك
وأنا صغيرة.

وبعد أن ابتعدت، واختفيت عن عيني ربما لسنوات طويلة
أخرى، تذكرت، وابتسامتى لا تزال تزغرد فى صدرى، أنى
لم أقل لك حتى اليوم لماذا هجرتك هكذا فجأة.. وتركتك حائرا،
تردد فى دهشة.. مجنونة.. مجنونة..

وربما كنت مجنونة فعلا.

ولكن كل مجنون له منطق.

وأنت لم تعرف بعد منطق المجنونة التى هجرتك فجأة.
عزيزى أحمد.

أتذكر.

لقد عرفتك وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى عندما التحقت
طالبة بكلية الآداب.. وبهرت بك منذ اليوم الأول الذى دخلت
فيه علينا لتلقى محاضرتك فى تاريخ الفلسفة.. ولم أكن وحدى
التى بهرت بك.. كل بنات الكلية كن يبهرن بك.. لا لأنك أستاذ
فحسب، ولا لأنك رجل وسيم فحسب، بل لأنك أيضا أنيق،
ولأنك تملك سيارة أنيقة تقف على باب الكلية كالفرس الأصيل
فى انتظار فارسها.. وكل ذلك كان يجعل منك حلما جميلا لكل
بنت.. ولكنى لم أبهر برجولتك ولا بسيارتك، ولكنى بهرت
بعلمك.. هذه هى الحقيقة.. ومنذ أن انسأب صوتك إلى أذنى

■ الهزيمة ■

عمقا رزينا يروى لنا قصة الفلسفة.. استغرقت، فيك كما
أستغرق في كتاب ممتع.. اخذتني كلى.. عقلى، وخيالى
وأعصابى.. وأصبحت أنتظر.. أو على الأصح أنتظر
محاضرتك.. بشوق ولهفة. كأنى أنتظر اللحظة التى أدخل فيها
إلى فراشى وأستغرق فى كتابى المفضل.

وكنت أيامها مجنونة بشيء اسمه الثقافة.. كنت أريد أن
أكون مثقفة، وأن أحس بأنى مثقفة.. لا مجرد طالبة، بل مثقفة..
وكنت أعيش مع أمى وحدنا ننفق من معاش أبى الذى توفى
منذ سنوات.. لم يكن لى أخ ولا عم ولا خال.. عم واحد سافر
إلى كندا وبقي هناك وانقطعت الصلة بينه وبيننا.. وربما كانت
هذه الوحدة.. وحدتى فى الحياة.. هى التى دفعتنى إلى القراءة
والثقافة، لقد قرأت كثيرا، أكثر مما تتصور.. ووجدت اخوتى
وأبائى، وأعمامى وأخوالى، فيمن قرأت لهم.. كانوا هم الذين
يصنعون لى مبادئى وتقاليدي، وشخصيتى.. وكنت أحبهم كما
أحب عائلتى.. لقد جعلت منهم عائلتى.. وكنت أخاف من
الفيلسوف « بيكون » كما أخاف من أبى.. وأحترم أرسطو كما
أحترم جدى.. وأناقش سارتر كما أناقش ابن عمى.. إلى أن
التقيت بك.. فأصبحت أنت أقرب واحد إلى ممن أقرأ لهم.. ربما
لأن كل الذين قرأت لهم كانوا مجرد حروف ترسم لى ثقافتى،
أما أنت فكنت ثقافة حية.. كنت لحما ودما.. وكنت صورة حلوة
للثقافة.. صورة أنيقة جذابة.

وبرغم ذلك فلم أحاول أن أعرفك وأنا طالبة.. لم أحاول أن
أجرى وراءك بعد المحاضرة كما تجرى وراءك بقية الطالبات..
فإن ثقافتى أشاعت فى نفسى نوعا من التعالى، أو من مركب
العظمة، إذا أردنا أن نستعمل التعبير العلمى.. ولا شك أن هذه
الثقافة قد حمتنى فى هذه السن من كثير من نزوات الشباب..

■ الهزيمة ■

بل إنها فى الواقع كانت تنفر منى كل الشباب والرجال الذين يحاولون مغازلتى، فقد كان الواحد منهم لا يكاد يقترب منى حتى أبدأ معه مناقشة علمية فى الفلسفة أو فى الأدب، أحاول خلالها استعراض ثقافتى، فلا يلبث أن يتضاءل أمامى، ويفر.. ولكن.. إذا كانت الثقافة قد حمتنى.. فقد أصابتنى أيضا بهذا التعالى، وهذا الكبر، وهذه الحساسية المرفهة بكل ما يمكن أن يمس كبريائى.. وفى كثير من الأحيان كانت هذه الحساسية تنطلق من تفسير كاذب غبى لتصرف من التصرفات، وينبنى عليها معركة كاذبة وهمية دفاعا عن كبرياء كاذب أيضا.

لهذا لم أحاول أن أقدم لك نفسى كأى طالبة تقدم نفسها لأستاذها، وكنت أنت كريم ما مع نفسك معتزا بشخصيتك، فلم تحاول أن تفرض نفسك على، كأى أستاذ يفرض نفسه على طالبة.. ولكن أكثر من مرة التقت نظراتنا وأنت تلقى محاضراتك، ورأيت فى عينيك تساؤلا عجيبا مهبيا كأنك تسألنى فى أدب : متى وأين.. ولعلك رأيت فى عيني هذا الإصرار العجيب الذى يثيره إحساسى بالتعالى مختلطا بإعجابى وإيمانى بك.

وقد بقى هذا الإصرار قائما.. برغم أن إعجابى بك بدأ يتطور.. بدأت صورة الأستاذ المثقف تختلط بصورة الرجل.. بدأت أحبك.. ولكنى قاومت بعنف.. قاومت حبك، وقاومت فى صورة الرجل.. وحاولت أن أتشبث بكل قوى فى حائط الثقافة الذى يحمينى من الرجال.. من الحب.. أنت لا شىء سوى كتاب.. ثقافة.. هكذا كنت أحاول أن أقنع نفسى..

إلى أن انتهى العام الدراسى.. ونجحت فى مادتك بأعلى درجة حصلت عليها طالبة، ربما حتى الآن.. وفى فترة الإجازة، مرضت أمى.

واشتد بها المرض..
وبدأت بين آهاتها التي تنطلق من آلامها الفظيعة تلح على أن
أتزوج.. كانت تحس بأنها على وشك الموت، وكان الزواج هو
الحل الوحيد لإعالتى بعد أن تموت.. فلم يكن لى أحد، ولم يكن
لى سوى ما يتبقى من معاش أبى.
وثار كبريائى.
وثار عنادى.

إن الزواج معناه القضاء على كل أحلامى.. ولكن تأوهات
أمى وذبولها يوما بعد يوم، كان ينقلنى من سماء كبريائى،
ومن أحلام ثقافتى، إلى الواقع.. إلى الأرض.. إنى فعلا
وحيدة.. وقعلا ليس لى من يعولنى بعد أمى.
وبدأت أفكر فى الزواج.

ولكنى لم أفكر فى الزوج.. رضيت بأول الواقفين على
الباب، وكان أكثرهم إلحاحا، وكان أيضا أغناهم.. إنه تاجر..
يعمل بالتصدير والاستيراد.. ويمك مصنعا صغيرا للحلوى..
وعماره.. وخمسين فدانا.

ولم أكن أنتظر أن يكون مثقفا.. ولكن غرورى جعلنى
أتصور أنى أستطيع أن أجعل منه إنسانا مثقفا.. أن أضع كل
ما فى عقلى من كتب، فى عقله.. وربما كان استسلامه لى فى
فترة الخطوبة القصيرة، واحتماله فى صمت لمحاضراتى
الطويلة التى ألقىها عليه قد أثار غرورى أكثر، وطمأننى أكثر
إلى أنى أستطيع أن أجعل منه الرجل الذى أريده.

وتزوجنا بعد شهرين من إعلان خطوبتنا.. وانتقلت معه إلى
بيتى الجديد.. شقة فاخرة كان زوجى قد أثثها بنفسه أثاثا
بانحنا.

وماتت أمى بعد زواجى بأسبوعين.. راضية.. مطمئنة على.

ولم يبق لى إلا زوجى، وثقافتى بكل ما تثيره فى من تعال وكبرياء كاذب.

وقبل أن ينقضى الشهر الأول بدأت أكتشف هذا الرجل الذى تزوجته، بعد أن أزاح عن وجهه الصمت الذى كان يختفى وراءه فى فترة الخطوبة، اكتشفت أنه لم يكن يريدنى كإنسانة مثقفة مهذبة، ولكنه فقط كان يريدنى كامرأة.. وقد عرف منذ الليالى الأولى أنى لا أستطيع أن أكون المرأة التى يريدوها.. واكتشفت أيضا أن هذه الشقة الفخمة الباذخة الأثاث لم يؤثثها لى، ولكنه أثثها ليصطاد فيها عملاءه الذين يتاجر معهم، أو يستفيد منهم فى تجارته.. ويوما بعد يوم، أصبح أكثر صراحة.. إن موائد القمار تمتد فى بيتى كل ليلة.. وزجافات الويسكى.. وجوزة الحشيش.. ونساء لسن بالزوجات يصحبن الرجال.. وهو يريدنى أن أرضى بكل ذلك، بل أن أشترك فيه.. يريدنى أن ألعب القمار، وأن أسكر، وأن أدخن الحشيش، وأن أصادق هؤلاء النساء.. بل أكثر من ذلك.. يريدنى أن أكون سهلة مع أصدقائه الرجال.. أن أكون لطيفة.. دمي خفيف.. أتحمّل غزلهم.. و.. واعترضت.. حاولت أولا أن أعترض فى هدوء.. أن أقنعه بأن هناك طريقا آخر للحياة أنظف وأجدى من هذا الطريق.. كنت أريد أن أقنعه بمتعة العقل.. إن العقل وحده يستطيع أن يحقق شيئا أكثر مما تحققه الشهوة، والغريزة الإنسانية البدائية السخيفة.. ولكنه كان يسخر منى ومن ثقافتى.. ويتهمنى بالبرود ويصفنى بثقل الدم.. وكنت أصرخ، فيصرخ أكثر منى.. إلى أن ضربنى مرة.. ضربنى لأنى أهنت رجلا من أصدقائه حاول أن يشد امرأة جاء بها فى إحدى هذه الليالى، ويدخل بها إلى فراشى.

ولم أستطع أن أهجر هذا الزوجة حتى بعد أن ضربنى،

■ الهزيمة ■

فلم يكن لى مكان أذهب إليه إذا تركته.
كل ما فعلته أنى تعاليت عليه.. واجهته وواجهت أصدقاءه
باحثقارى.. وانزويت فى مكان ضيق من البيت أنا وكتبى،
أقرأ.. وأقرأ.. ولا أعترض على شىء مما يجرى فى بيتى..
ولا أطلب من زوجى شيئاً.. الشىء الوحيد الذى طلبته هو أن
يسمح لى باستكمال دراستى الجامعية، بأن أعود إليك.. ولكنه
رفض ساخراً.. وقال لى إن الأجدى على أن أتعلم كيف أكون
امراً.. ولم أرد عليه.. ولم أتمسك بالعودة إلى الجامعة، وأقنعت
نفسى بأن الثقافة فى الكتب وليست فى الجامعة.. وبينى وبين
هذا الزوج معركة رهيبة صامتة.. معركة بين كبرياء الإنسان
المتقف وكبرياء الإنسان الغنى.. معركة بين الثقافة والمال..
ولم أكن أحس بلحظات الهزيمة إلا عندما يأتى إلى ويطالب
بحقه فى جسدى كزوج.. وأعطيه جسداً أبرد من لوح الثلج،
أحس به يذلنى.. يهيننى.. يصفعنى.
عزيزى أحمد.

فى هذه الأثناء بدأت أتصل بك فى التليفون.. كنت فى حاجة
إليك.. كنت فى حاجة إلى إنسان من عالمى يشعرنى بأنى
مازلت على قيد الحياة.. كنت فى حاجة إلى نافذة أفتحها وسط
هذا الظلام البشع، ليطل على من خلالها قبس من النور
النظيف.. نور العقل والروح.. وكنت أنت هذه النافذة.. وقد
تذكرتنى منذ مكالمتنا الأولى.. هل تذكر.. كأنك كنت دائماً فى
انتظارى.

وتعددت مكالماتنا فى التليفون كل يوم نتحدث.. أناقشك
فيما أقرأه.. وأطير معك فى عوالم الثقافة.. ولكن.. لم يكن هذا
كافياً، كان لابد أن نلتقى.. وأنت تلح على لأحدد لك موعد
اللقاء.. وأنا أرفض فى رفق.. ولم تكن تدري كم أتعذب وأنا

أرفض.. وكم أدفع من أعصابي ثمنا لإرادتي.. لقد كنت أيامها أحبك.. أحبك حبا كاملا، وعندما كنت فتاة كنت أحبك بعقلي، وخيالي، وعواطفى.. ولكنى بعد أن تزوجت أصبحت أحبك بجسدى أيضا.. إن الزواج يربط الجسد بالعاطفة.. والعاطفة بالجسد.. ليست هناك امرأة تستطيع أن تحب بعواطفها فحسب.. إن الفتاة بعد أن تصبح امرأة لا تستطيع أن تفصل خيالها عن واقعها.. لأنه لا يصبح هناك شىء من التقاليد ولا من الإحساس الفسيولوجى يفصل بينها وبين الواقع، وهكذا كنت أحبك.. خيالى وواقعى.. كنت أريدك أن تعطينى كل ما حرمنى منه هذا الزوج، العقل، والقلب.. والجسد.. وبرغم ذلك قاومت، لأن استسلامى كان معناه هزيمتى.. هزيمة كبريائى.. كان معناه أنى لم أعد أفضل من هذا الزوج الذى أحقره.. كان معناه أن كل ما يفصل بينى وبينه هو اختلاف فى المزاج لا اختلاف فى المبادئ وفى المستوى الثقافى.

وكان زوجى قد بدأ يسافر كثيرا إلى الخارج، ويغيب فى كل مرة شهرا وشهرين.. ورغم ذلك كنت أرفض أن أذهب إليك.. وأنت صابر يا حبيبى.. لا تملنى.. وتعطينى من روحك قوة أستعين بها على حياتى.

إلى أن عاد زوجى مرة من الخارج.. وجاء إلى.. وأسلمته هذا الجسد البارد، وأنا أحقره وأزدريه.. وفجأة انتفض بعيدا عنى وهو يصرخ ويعلن فى وجهى خطة انتقامه الرهيب.. إنه لن يعود إلى.. سيتركنى.. ولكنه لن يطلقنى حتى لا يتزوجنى رجل آخر.. وسيترك لى هذه الشقة، ويدفع إيجارها.. ولكنه لن يدفع أكثر من ذلك.. سيتركنى أعول نفسى.. ولنر إذا كانت ثقافتى ستنفغننى.. وقبل أن يخرج من البيت جمع كل مصاغى وكل قرش، وأخذه معه.

■ الهزيمة ■

خطة دبرها صاحب مال، يريد أن يخنقنى بحاجتى إلى المال.
وقد قلت لك كل ذلك فى التليفون.. وكنت رقيقا حنونا
ورجوتنى أن أعتبرك مسئولا عنى إلى أن أستطيع أن أدبر
أمرى.. وعرضت على أن ترسل لى مبلغا من المال.. ولكنى
رفضت.. قلت لى أن أعتبر المبلغ على سبيل القرض، ولكنى
رفضت.. وقلت لى وأنت تحتد احتداد إنسان يحب، إنه لا يعقل
أن تحبنى وأحبك، دون أن أعتبرك رجلى المسئول عنى.. ولكنى
رفضت.

وبدأت أواجه أياما غريبة.
إنى أقيم فى شقة فخمة، وفى أرقى حى من أحياء القاهرة،
وليس معى ولا قرش.. كيف آكل.. وكيف أدفع حساب
التليفون، والنور، وبائع الصحف.. و.. وأشياء كانت تبدو
صغيرة فى حياتى، أصبحت مشاكل ضخمة.. معضلات.
واقترضت من صديقتى فتحية التى تقيم فى الشقة
المجاورة، عشرة جنيهات.

وبعد أيام وجدت فى البيت بضع زجاجات الويسكى التى
تركها زوجى وراءه، فأعطيتها لفتحية.. وأعطتنى ثلاثين جنيها
بعد أن خصمت العشرة جنيهات التى اقترضتها منها.
وأنا حائرة.. يائسة.. ولم أكن أستطيع وسط هذه الحيرة
البائسة أن أستمر فى مقاومتك.. فى مقاومة نفسى.
ذهبت إليك.

ولم نكن فى حاجة إلى مقدمات.. لقد استمرت المقدمات
بيننا أكثر من عامين.. وكان توتر أعصابى كفيلا بأن يدفعنى
إليك كلى.. أعطيتك نفسى منذ اللقاء الأول.. لا.. لم أعطك
نفسى، بل أخذتك، فريما كنت فى حاجة إليك، أكثر من حاجتك
إلى.

■ الهزيمة ■

وقبل أن أنصرف من بيتك.. لمحتك تدير ظهرك وتخرج
محفظتك وتلتقط منها مبلغا من المال، وتدسه في حقيبتى.
لمحتك.

وأحسست بتيار بارد كريح الثلج يسرى فى عروقى كلها..
ولكنى سكت.
لم أتكلم.

حملت حقيبتى كأنى لم ألمح شيئا.. وتركتك تقبلانى على
جبينى البارد، وخرجت عائدة إلى بيتى، وفى كل خطوة تكتمل
فى خيالى صورة بشعة لنفسى.. خط بعد خط يرسمه خيالى
حتى اكتملت الصورة.. صورة مومس.. نعم صورة مومس..
امراة تبيع جسدها.. وصدقنى أنى حاولت كثيرا أن أبعد هذه
الصورة عن خيالى.. حاولت أن أقنع نفسى بأنك تحبنى، ولأنك
تحبنى فأنت مسئول عنى كزوجى وأكثر.. وحاولت أن أقنع
نفسى بأن ما أعطيته لى هو مجرد قرض.. حاولت كثيرا..
ولكن عيئا.. صورة المومس تكبر فى خيالى.. وتكبر.. وتكبر..
لقد ذهبت إليك وأنا إنسانة مثقفة وزوجة التاجر الكبير
عبدالقادر عبدالله، وخرجت من عندك.. مومسا.

ووصلت إلى بيتى وانكفأت على وجهى أبكى.
بكيت كثيرا.

بكيت الإنسانية المثقفة التى فقدتها.

بكيت كبريائى وعنادى.

بكيت هزيمتى أمام الزوج الذى أكرهه.

وأفقت من بكائى وفى رأسى قرار حاسم.. لن أراك بعد
اليوم.. لا أريد أن أراك كمومس.. ولم يكن هناك شىء يستطيع
أن يقنعنى يومها بأنى لست مومسا، وأننى فقط امرأة فى
حاجة إلى معاونة حبيبها.

كنت أعرف أنى لن أذهب إليك بعد اليوم إلا وأنا أشعر
بحاجتى إلى النقود، وأنت تشعر بواجبك الذى يحتم عليك
إعطائى النقود.. ستظل النقود بيننا عنصرا من عناصر حينا..
أو علاقتنا.. ولم يكن هذا فى حسابى أبدا.. لم أحبك أبدا وأنا
أشعر بحاجتى لأن تنفق على.. كنت أحبك وأنا أشعر بحاجتى
إلى ثقافتك، وإلى رجولتك.. وإلى حنانك.. ولن أذهب إليك أبدا
وأنا فى حاجة إلى مالك.. إنى لا أحبك وأنت تعطيتنى مالا.. إنك
تجرحنى.. تهيننى.. لا تقل لى أن أعتبرك زوجى، فأنت لست
زوجى.. إن الزواج ليس علاقة بين شخصين.. ولكنه علاقة مع
مجتمع.. مجتمع يسمح للرجل أن ينفق على المرأة.. وأنت وأنا
ليس لنا مجتمع.. إننا نختبئ من المجتمع.. والمجتمع لا يسمح
لك أن تنفق على إلا إذا اعتبرنى مومسا.. امرأة تباع جسدها..
وأنا لا أريد أن أكون مومسا.. لا أريد.

ولن أراك بعد اليوم.

وعندما اتصلت بى فى التليفون تسألنى لماذا لم أتصل بك،
قلت لك فى صوت مبحوح خطير، كأنه بقايا روحى :
- أرجوك.. لا تتصل بى بعد الآن.

وسمعتك تقول كلاما كثيرا.. ثم تردد.. مجنونة.. مجنونة..
وتعود تقول كلاما كثيرا.
وأنا صامته.

وأعدت السماعه إلى مكانها.

وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى سمعت صوتك فيها.
وبرغم ذلك.. فقد أنفقت النقود التى أعطيتها لى.. كنت فى
حاجة إليها.. كم أعطيتنى.. خمسين جنيها على ما أذكر.. وقد
صرفتة فى أقل من شهر.. وعدت واقترضت من صديقتى
فتحية.. وأنا أعيش حياتى كالمشلوله، ولا أدري كيف أتصرف..

■ الهزيمة ■

ولا ماذا أفعل.. أفكر في أن أعمل.. وفي أن أدرس.. ولكنى لا أعمل شيئاً، ولا أدرس شيئاً.. وفتحية تعرف عني كل شىء.. وتعرف أيضاً قصتي معك، وقد حاولت كثيراً أن تقنعني بأن أعود إليك، على الأقل إلى أن أحل مشكلتي مع زوجي.. ولكنى أرفض في عناد وفي كبرياء.. وأنت قد أخذت العزة بنفسك بعد أن قطعت حديثك في التليفون، فلم تعد تحاول أن تتصل بي.. وزوجي لا أدرى مكانة، ومكتبه يتولى دفع إيجار الشقة كل شهر.. فقط إيجار الشقة.

ودعنتى فتحية إلى قضاء السهرة عندها.. وكان هناك رجل وسيم مذهب.. أخذت فتحية تروي أمامه قصة زوجي معي.. وهو يواسيني.. ويقترح على الحلول.. ثم اتصل بي بالتليفون في اليوم التالي.. و.. و.. ولا أطيل عليك.. ذهبت إلى لقائه.. واستسلمت وأنا مذهولة.. لم أكن أدرى أيامها أين أقف، ولا ما هي مبادئى، ولا ماذا أقاوم من أجله.. وفي نفس اللحظة الجارحة.. اللحظة التي انتهى فيها منى، وبدأت أرتدى ثيابي.. لمحتة كما سبق أن لمحتك.. لمحتة يفتح محفظته، ثم يدس في حقيبتى مبلغاً من المال.

وخرجت من بيته وخيالى يرسم لى نفس الصورة.. وخط وراء خط واكتملت الصورة.. صورة المومس.. والصورة تكبر في خيالى.. وتكبر.. وتكبر.. وانكفات على فراشى أبكى.. ورفضت فى عناد عجيب أن أذهب إلى لقائه مرة أخرى.. ورغم إلحاحه وتوسلاته، وبرغم كل محاولات صديقتى فتحية فى إقناعى.. لقد ذهبت إليه وهو يعتقد أنى إنسانة مثقفة وحرمة التاجر الكبير عبدالقادر عبد الله، ولن أعود إليه كمومس.. وبرغم ذلك أنفقت النقود التي أعطاها لى.. كم أعطانى..

■ الهزيمة ■

أربعين.. ربما كان ينوى أن يعطينى خمسين، ثم اختصر عشرة جنيهاً في آخر لحظة.

و..

كم رجل.

كثيرون.. ولم أكن أقابل الواحد منهم إلا مرة واحدة.. كل منهم أذهب إليه كزوجة تخون زوجها، ثم أرفض أن أعود إليه كمومس.. ولم أكن أذهب إلى واحد إلا بعد أن تنتهى النقود التى أخذتها من الذى قبله، وبعد أن أقترض من فتحية عشرة جنيهاً.. وفتحية تقول عنى إنى مجنونة.

وكنت لا أزال أقرأ وأقرأ.. ولكنى لم أعد أحس بأنى محترمة وأنا ممسكة بالكتاب كما كنت أحس دائماً.. لم أعد أحس بأنى من عائلة أرسطو وهكسلى وسارتر.. حتى هذه العائلة فقدتها.

يتيمة.. بلا عائلة.. وبلا مال.. وبلا زوج.. وبلا ولد.. وبلا حبيب.. بلا أحد يحترمنى واحترمه.. حتى نفسى لا أحترمها ولا تحترمنى.. وانطلقت أضحك ضحكات مجنونة.. لقد

هزمت.. هزمت منذ زمان طويل، وهزمت أمام صاحب المال.. المثقف هزمته حاجته إلى المال.. وقسوة الإنسان الغنى، هزمت كبرياء الإنسان المثقف.. وبسرعة جريت إلى التليفون، واتصلت بمدحت درويش.. إن مدحت كان أكثر أصدقاء زوجى إعجاباً

بى، وأكثرهم جرأة على مغازلتى، وكنت أصدده واحترمه.. وكان زوجى يجن كلما صدده.. إنه موظف كبير.. صاحب نفوذ.. فكيف أعامله هذه المعاملة.. لن أعامله هذه المعاملة.. وضحكت له نى التليفون، ودعوته لقضاء السهرة معى.. فى بيتى..

وذكرته بأن يأتى معى بزجاجة ويسكى.. وجاء مدحت.

وزجاجة الويسكى.

■ الهزيمة ■

ولم يترك لى شيئاً فى حقيبة يدي قبل أن يتركني، ولكنه
اقتنع بأن زوجي يجب أن يعود إلى وتعهده بأن يعيده.. وقهقهه
قهقهة عالية فظيعة وهو يقول : هو جوزك حايلاقي واحدة
زيك فين.

وعاد الزوج.

وعادت مائدة القمار، وزجاجات الخمر، وجوزة الحشيش،
والنساء اللاتي لسن زوجات.. وأنا أشارك فى كل ذلك.. ألعب
القمار، وأدخن الحشيش، وأسكر.. و.. كل شيء.

إنى أعيش فى هزيمتى.

وزوجى يعيش فى انتصاره.

شيء واحد حميته من هزيمتى ومن انتصار زوجي.. حبي
لك، حميته بابتعادى عنك.. فقد أحبيتك كما كنت، منتصرة..
لا كما أصبحت، مهزومة.

عزيزى أحمد :

الآن.. وبعد خمسة عشر عاماً.. لعلك تستطيع أن تفهمنى.

وشكراً لأنى رأيتك.

وشكراً لأنك لم ترنى.

لا تذبخوا الفراخ ..

لا تقتربوا منى.

أنا مجنون.

وجنوني قاتل

ولكنى أختلف عن بقية المجانين بأننى أعرف

أنى مجنون.. وأعرف بالضبط متى أصبت بالجنون.. إنه جنون من النوع المتقطع.. قترات تمر بى، ثم أفيق منها، وأعود إنسانا عاقلا يستطيع أن يناقش جنونه ويدرسه ويعرف أسبابه، وإن كان لا يستطيع أن يقاومه.

متى جننت ؟

فى الحادية عشرة من عمرى.. منذ حوالى الثلاثين عاما.. وبرغم أن جسمى أيامها كان يبدو أضخم وأكبر من عمرى، إلا أنى كنت صبيا رقيقا خياليا.. كنت أهوى الرسم.. وأقضى معظم أوقات فراغى أرسم هذه الرسوم الساذجة التى يرسمها الأطفال.. وكنت أحب أن أجلس مع جدتى، أستمع منها إلى

حكاياتها الحلوة المثيرة.. وكنت أجرى إلى أبى كلما وقف للصلاة لأصلى خلفه، وأحاول أن أقلده فى صوته وحركاته.. كنت طفلاً يملأ السلام قلبه وخياله.

وكنا أيامها نقيم فى حارة نصير بالعباسية.. وأذهب أنا وثلاثة من أبناء الحارة إلى مدرسة السلحدار الابتدائية التى تقع عند بوابة الفتوح ملاصقة لجامع الحاكم بأمر الله.. وكنا نذهب إليها سيرا على الأقدام برغم بعد المسافة.. مسافة طويلة نقطعها فيما لا يقل عن ثلاثة أرباع الساعة.. وكان يجب أن نمر فى طريقنا بشارع الحسينية.. الشارع الذى يشق الحى الشعبى العريق.. وكان صبية حى الحسينية يعتبرون كل تلميذ يمر بهم مرتدياً بدلة، وفى قدمه حذاء، وعلى رأسه طربوش.. كانوا يعتبرونه غنيمة لهم.. فيجرون وراءه ويخطفون طربوشه أو يضربونه عليه حتى يبطوه، ولا يتركونه إلا فى نهاية الشارع عندما يصل إلى بوابة الفتوح.

وكنت أنا وزملائى لا نكاد ندخل شارع الحسينية فى طريقنا إلى مدرستنا، حتى تمتلئ قلوبنا بالرعب من صبية الحى.. ونسير فى خطوات مرتجفة حذرة، ملتصقين بالجدار، ونحن نتلفت حولنا حتى إذا لمحنا الصبية يهجمون علينا التجأنا إلى أقرب دكان أو إلى أقرب مقهى نحتسى بصاحبه ونحن نصرخ :

— والنبي يا عم.. حوش عنا العيال يا عم.

وكان صاحب الدكان أو المقهى يحمينا فعلاً، ويطرد الصبية من ورائنا.. ثم نعود نسير فى خطواتنا المرتجفة الخائفة، حتى

نحتمى فى دكان آخر أو فى مقهى آخر.. وهكذا من دكان إلى دكان، ومن مقهى إلى مقهى، حتى نصل إلى المدرسة.. وبرغم هذا.. لم نكن دائماً نصل سالمين.. كنا كثيراً ما نصل وطرايبشنا مبططة أو مفقودة، وثيابنا ممزقة.

وكانت أخطر المناطق التى نمر بها فى شارع الحسينية، هى منطقة ضريح سيدى البيومى، وهى تقع فى النصف الأول من الشارع، من ناحية العباسية.. كان أولاد البيومى هم أشرس أولاد الحسينية، وأكثرهم تحدياً وحقداً على أولاد العباسية.. ربما لقرب حيهم من حيننا.. ولأنهم كانوا - حتى الأطفال - ينفسون عن حقد طبقى يلح عليهم.. فأولاد البيومى كلهم من أولاد البلد.. أولاد صغار الباعة، والعمال، والعاطلين، بينما أولاد العباسية أغلبهم من أولاد الموظفين، وضباط الجيش، والتجار.. صغارهم وكبارهم.. فقد كانت العباسية تنقسم إلى حيين. الحى الشرقى ويسكنه كبار الموظفين وكبار الضباط وكبار التجار، والحى الغربى ويسكنه صغار الموظفين، وصغار الضباط، وصغار التجار.. وتقع فيه حارتنا.. حارة نصير.

وكنا نعود من المدرسة فى المساء ونجتمع بأولاد حارتنا، ونروى لهم ما حدث لنا فى يومنا مع أولاد الحسينية، وخصوصاً أولاد سيدى البيومى. وبدأت اجتماعاتنا فى الحارة تتخذ شكل مجلس أعلى يضع خطة لحماية أئتنا أثناء ذهابنا إلى المدرسة وعودتنا منها.

وقد اقترحت أن تذهب ونقابل المعلم إبراهيم عرا فتوة

الحسينية ونطلب حمايته لنا.. ورد ابن حارتنا، محمود حسنين :

- ما ينفعش.

وقال واحد منا :

- آمال إيه اللى ينفع ؟

وقال محمود حسنين وهو يشوح بيده :

- نحاربهم.

ولفتنا سحابة من الوجوم والصمت.

وصرخ محمود :

- احنا خايفين ليه.. إذا كانوا هم ولاد الحسينية برضة احنا ولاد العباسية.

وهل أولاد حارتنا.. وانطلق الحماس من حناجرهم.

وكان محمود أكبرنا سنا.. إنه فى الخامسة عشرة من عمره، وهو ابن الحاج حسنين صاحب المخبز البلدى الذى يقع فى شارع رضوان شكرى، وهو الشارع الذى تتفرع منه حارتنا.. وكان محمود يسيطر علينا جميعا.. لا لأنه أكبرنا وأقوانا، ولكن لأنه أيضا شديد الذكاء، لا يكف عن ابتكار المشروعات التى يشركنا فيها جميعا.. أقام مرة مشروعا لخيال الظل، وكان هو بنفسه الذى يحرك الدمى خلف الشاشة، وكان يتقاضى من كل واحد منا مليما أجرا لمشاهدة خيال الظل.. وفى مرة أخرى حصل على أدوات صنع الدندرة، وصنعها بنفسه وأخذ يبيعها لنا.. لم يكن رأسه يكف عن المشروعات.. وكان مشروع إعلان الحرب على أولاد الحسينية هو واحد من هذه المشروعات.

وذهب محمود ومعه بعض أولاد الحارة إلى الحسينية،
وقابلوا شلة الصبية المتجمعين عند ضريح سيدي البيومي..
طبقا لتقاليد الفتوات الكبار.. وقالوا لهم :
- اطلعوا لنا برة.

ورضى أولاد سيدي البيومي أن «يطلعوا برة».. أى فى
أرض لا يملكها أحد.. لا هى أرض الحسينية ولا أرض
العباسية.. واتفقوا على أن يلتقى الجيشان.. جيشنا وجيشهم..
فى مكان يسمى «أرض العيون» يقع فى صحراء العباسية..
وذلك فى يوم الجمعة عقب الصلاة.

وبدأ محمود يتولى القيادة، ويضع الخطط.. وأخذنا معه إلى
أرض العيون، وحدد المكان الذى سنبداً منه هجومنا.. وجمع
قطع الحجارة فى أكوام وغطاها بالرمال حتى لا يكتشفها
العدو.. ثم بدأ يدرينا على استعمال «المقلاع» الذى تقذف به
الحجارة من بعد كبير.. وأخيرا جمع بعض العصي الغليظة
وأخذ يشق كل عصا من طرفها ويثبت فيها قطعة من حجر
البازلت الثقيل ويربطها بقطع من القماش، وخيوط من السلك،
فتصبح كبلطة من التى كان يستعملها الإنسان الحجرى، أو
التى يستعملها الهنود الحمر الذين نراهم فى أفلام رعاة البقر.
وكان إحساسى حتى هذا اليوم إحساسا سلبيا، لم أكن
أشعر بحماس ولا بفتور.. ولم أكن أتصور نفسى عندما يبدأ
القتال.. ولم أكن أدري كيف أتصرف.. كنت فقط أزامن أولاد
الحارة فى كل ما يفعلونه لمجرد إحساسى بأنى ابن الحارة.
إلى أن وضع محمود فى يدي إحدى «البلط» التى صنعها..

■ لا تذبحوا الفـراخ .. ■

وقد اختارنى فى فرقة حملة البلط لأنى - كما قلت - كنت أبدو أكبر وأضخم من سنى.

وما كاد محمود يترك البلطة فى يدى حتى أحسست بها تأخذنى معها.

تشدنى إليها.

وأحسست بأصابعى تلتف حول مقبضها، فى قوة، كأنها التصقت بها.. أحسست أنى لن أستطيع أبدا أن أفك أصابعى من حولها.. ليست أصابعى هى التى التفت حول البلطة.. ولكنها البلطة التى جذبت أصابعى إليها وافتتها حولها، كأنها مغناطيس.

وأحسست بشيء يتحرك فى صدرى.

لا أدرى ما هو.

كأنه عفريت كان نائما ثم بدأ يستيقظ.. ويتثأب.. إنى أكاد أسمع صوت تثاؤبه.. أكاد أراه وهو يمد ذراعيه داخل صدرى، ويتمطى.. لعل هذا العفريت كان نائما فى صدرى منذ ولدت.. منذ ولد الإنسان.

وفجأة رفعت البلطة إلى أعلى وضربت بها الفضاء.
لا..

أقسم لكم أننى لم أرفع البلطة.

هى التى رفعت ذراعى.

هى البلطة.

وأصابعى ملتقة حولها لا تريد أن تتركها.. لا تستطيع.. حتى عندما ذهبت لأنام ظلت ملتصقة بأصابعى.. وكانت أحس

■ لا تذبحوا الفراح .. ■

بها - بالبلطة - تهزنى فى نومى إلى أن أستيقظ.. أستيقظ فعلا.. وتشدنى من فراشى.. وترفع ذراعى، ثم تهوى بنفسها فى الفضاء.. ثم أعود لأنام، إلى أن توقظنى البلطة مرة ثانية. وكان اليوم التالى هو يوم المعركة.

وجاء جيش سيدى البيومى.

واصطف جيشنا فى خطوطه.

وبدأ التقاذف بالطوب.

والبلطة فى يدى.

وهذا الشيء الذى فى صدرى يصرخ.

ثم فجأة وجدت البلطة تشدنى وتجرى.. تجرى بى.. تجرى بى نحو خطوط الأعداء.

ورفعت البلطة ذراعى، ثم هوت بنفسها فوق رأس طفل من أطفال البيومى.

لقد رأيت هذا الطفل.

رأيت بهيئته.

رأيت قتيلا والدم ينزف من رأسه.

وأذكر أنى ضحك.. أو أنى سمعت صوتا كالضحك..

ولا أدري أنا الذى كنت أضحك أم البلطة.. ولكنه كان ضحكا كالصراخ.

ولا أذكر شيئا بعد ذلك.. أفقت وأنا فى فراشى أعانى من

حمى خطيرة، ارقدتنى أكثر من شهرين.

ولم يكن أحد قد أكتشف بعد أنى مجنون.

● ● ●

وقد انتقلنا من حارة نصير بعد معركة أرض العيون،
وسكننا في مصر الجديدة، وخصوصا أن أبى ارتقى أيامها إلى
الدرجة الخامسة.. وخرجت من مدرسة السلحدار، والتحقت
بمدرسة مصر الجديدة.

وأصبحت إنسانا هادئا.. أكثر هدوءا من شاب في مثل
سنى.. أصبحت منطويا.. نفورا من الناس.. لم يكن نفورا ولكنه
كان أشبه بالخوف.. ولم أكن أخاف من الناس، بل كنت أخاف
عليهم.. أخاف عليهم من نفسى.. لا أدري لماذا.. ولكنى فعلا
كنت أخاف عليهم إلى درجة أنى لم أحاول أن أتخذ صديقا..
لم يعد لى أصدقاء.

وفى صدرى دائما شىء ثقيل.. نائم.. كأنه هذا العفريت
الذى ولد معى منذ ولدت.. منذ ولد الإنسان.. ولكنه نائم.
إلى أن بلغت التاسعة عشرة من عمرى.

وكنت أستعد لامتحان شهادة التوجيهية، وسمح لى أبى أن
أذاكر على مكتبه.

وعلى مكتب أبى «فتاحة ورق» على شكل خنجر.. مقبضه
يملأ الكف، وسلاحه رفيع حاد.

ولاحظت أن الخنجر ينظر إلى.

كان ينظر إلى فعلا.

وكنت أشيح عنه وجهى، ولكنى لا أكاد ألتفت حتى أراه

لا يزال ينظر إلى.. ويدعونى.. يدعونى إليه.. الخنجر.

وجذب الخنجر يدي نحوه.. وطوى أصابعى حول مقبضه..

ثم رفع ذراعى، وهوى بنفسه على خشبة المكتب.

ولا أستطيع أن أفك أصابعي من حول مقبضه.. كأنها
التصقت به بمغناطيس.. وهذا الشئ بدأ يتحرك في صدري..
إنى أكاد أسمع يثأب مستيقظا من النوم.. وأكاد أراه داخل
صدري يمد ذراعيه ويتمطى.

وفجأة دخلت خادمتنا سنية إلى الغرفة.. وإذا بالخنجر
يشدني من فوق مقعدي، ويرفع ذراعي في الهواء، ثم يهوى
بنفسه على سنية.
ورأيته.

رأيته تحت أقدامي والدماء تنزف منها.. وسمعت ضحكا..
لا أدري هل أنا الذي ضحكت أم الخنجر..
ولكنه كان ضحكا كالصراخ..
ولا أذكر شيئا بعد ذلك.

وأفقت وأنا صريع الحمى.. وعلمت أن سنية لم يقتلها
الخنجر.. فقد أصابها في كتفها وفي رقبتها..
وربما عرف أبي أيامها أنى مجنون.. ولكنه أخفى جنوني..
أبت عليه كرامته، أن يعلن جنوني.. واستطاع أن يسوى
الجريمة مع أهل سنية.. عالجها ودفع لها تعويضا.. وكان
يقول لمن سمع الخبر إنى كنت مرهق الأعصاب من أثر
المذاكرة، وأن سنية أثارتني، ولكن أمي صممت أن تدعو الشيخ
إدريس ليطرد عني العفاريث التي تركبني.

وجاء الشيخ إدريس.. وقرأ أوراده فوق رأسي، وأحرق من
حولى البخور، ثم اختلى في إحدى حجرات البيت ليلة كاملة
وهو عار من كل ثيابه.. بلبوص.. ليس معه إلا مبخرة،
وصينية عشاء فاخرة.

وخرج الشيخ إدريس علينا فى الصباح - بعد أن ارتدى ثيابه - ليقول لنا إن الجن تطلب منى أن أذبح فى كل يوم فرخة.. أن أذبحها بيدي.

إن كلام الجن لا يخلو من المنطق.. إنهم يريدون أن يداووننى بالتي كانت هى الداء.. يريدون أن يشفونى من ذبح الناس بأن يعودونى ذبح الفسراخ.. منطق. ولكنه منطق فارغ.

إنهم لا يعلمون أنى لا أريد أن أذبح لا الناس ولا الفسراخ.. أنا لا أريد أن أقتل.. السكين هى التى تريد أن تقتل.. البلطة هى التى تريد أن تقتل.. المسدس يريد أن يقتل.. الدبابة تريد أن تقتل.. القنبلة تريد أن تقتل.. الصاروخ يريد أن يقتل.. أما أنا فلا.. لا أريد أن أقتل.. صدقونى أننى لا أريد أن أقتل.

ولكن أمى الطيبة مقتنعة بكلام الشيخ إدريس، وتريدنى أن أذبح فى كل يوم فرخة.

يا أمى.. قليل من الذكاء.. لو أن ذبح الفسراخ يعوض عن ذبح الناس، لكان معنى ذلك أن الحروب لا تقوم إلا لأن الناس لا تجد فراخا تذبحها.. ولكن الحروب تقوم.. ويذبح الناس بعضهم بعضا.. ويذبحون أيضا الفسراخ والحمائم والبط والخراف والجاموس.. والعصافير.

يا أمى يا طيبة.. لا تضعى فى يدي السكين.. أتوسل إليك.. لا تضعى فى يدي السكين.. إن السكين التى تذبح الفرخة تذبح أيضا الناس.. قد تذبح أبى.. أخى.. ابن عمى.. حتى أنت يا أمى، قد تذبحك السكين التى تذبح الفرخة.

■ لا تذبخوا الفـراخ .. ■

إنها سلاح يا أمى..
والسلاح يطول.. كما يقول الناس.. السلاح يطول، حتى
على صاحبه.



أنا الآن موظف..
ولا أحد يدرى بجنونى..
وفى كل صباح أنظر إلى الجندى الذى يقف على باب
الوزارة، وقد علق مسدسه على جانبه، نظرة إعجاب وتقدير..
بل تقديس..
إنه بطل..
بطل كبير..
لا لأنه يحمل سلاحا..
ولكن لأنه لا يستعمل سلاحه..
إنه بطل لأنه يملك سلاحه، وليس سلاحه هو الذى يملكه..
وأنا خائف..
خائف دائما..
خائف على الناس.. من جنونى..

صائد الشزال ..

ابنى محمود فى السابعة عشرة من عمره،
وبرغم ذلك فهو زير نساء.. دون جوان..
فالتينو.. عمر الشريف.. وأراه كل يوم يقف أمام
المرآة، يسبب شعره.. ويستعرض عضلاته..
ويهندم ثيابه.. ويدق جرس التليفون، وأسمع صوت صبية
صغيرة.. أقدر أكلم محمود من فضلك.. وينتفش صدرى
كالديك الرومى فرحا بابنى محمود.. وأرفع صوتى كأنى أسد
يزأر، وأصيح به.. تليفون علشانك يا محمود.. ثم أقف لأسمعه
يحادث البنت فى خيلاء.. إنه واد تقيل يحادث البنات كأنه
ربهن الأعلى.. ولكن محمود لا يتركنى أتمتع بسماع حديثه
طويلا، إنه يأخذ التليفون، ويختفى به فى غرفته، ويغلق الباب
وراءه.

إنى فرح بمحمود.

فرحتى بشبابى.

أنا أيضا كنت فى شبابى، زير نساء.. دون جوان..

فالنتينو.. ولكن.. كانت مهمة الزير، أو الدون جوان أصعب على أيامى.. لم يكن عندنا تليفون.. ولم تكن البنات قد خرجن إلى المصانع والمكاتب والجامعات.. ولم تكن البنت تذهب إلى السينما وحدها.. أبدا.. إن الدون جوانية هذه الأيام هواية سهلة، كقزقة اللب. أما على أيامنا فكانت تتطلب ذكاء وصبرا، وحرفة.. كان صيد البنت أصعب من صيد الأسد!

وكنت فى شبابى أسكن فى حى الدراسة.. وكانت لى ميزة كبيرة على جميع شبان الحى.. فقد كنت ساقط بكالوريا.. مثقف يعنى.. وكنت موظفا فى وزارة الأشغال.. كاتب أرشيف.. وكنت أرتدى بدلة وطربوشا.. أفندى يعنى.. ثم إنى كنت وسيماء، أنيقا، قهلويا.. كنت أملا كبيرا لكل بنت من بنات الحى.. ولكنى لم أكن أصطاد فى حيننا.. عيب.. ما يصحش.. على أيامنا كان الشاب يغار على بنات الحى كلهن غيرته على أخته، وعلى أمه.. فلا يسمح لنفسه بأن يتعرض لهن.. ولا يسمح لغريب.. الغريب الذى يتصدى لبنت من بنات الدراسة، وقعته سوداء.

كانت أماكن الصيد المفضلة عندى هى شارع الموسكى، والغورية وبين الصورين، ثم شارع الأزهر.

وكانت الجميلات على أيامنا يختبئن فى الملائات اللف.. كل بنات هذه الأحياء كن يلبسن الملائة اللف.. وكان هناك كثيرات من جميلات الأحياء الأخرى يفدن على الموسكى والغورية وهن مرتديات الزى الإفرنجى.. الفستق.. والبالتو.. ولكنى كنت دائما - ومازلت - أفضل الملائة اللف.. الملائة اللف لها طعم آخر.. إنها شىء كقشرة الموزة المعسلة.. فيها رخاوة.. وفيها أنوثة.. أنوثة ناعمة.. سايحة.. وفيها إثارة الكنز المخبأ الثمين..

الملاءة اللف هي المرأة.. المرأة بكل ما فيها من سحر.. وروعة.. وغموض.. وأحلام.. إنها تلف القمر في سواد الليل.. تلف النور في الظلام.. يا أرحم الراحمين.. أموت في اللف.. واللف يتعب.. وقد كنت أتعب كثيرا.... كنت أمشي وراء البنت ساعات.. وأحياناً أياماً.. أدخل من دكان إلى دكان.. ومن شارع إلى شارع.. ومن حارة إلى حارة.. وعيناي الظامئتان لا ترتويان من الجسد الملفوف الذي يتلوى أمامي.. والملاءة مشدودة حوله تبرز كل خط فيه.. والذراع البضة تطل منها حيناً، وتختفي حيناً كأنها عمود من نور البرق يشق كبد الليل.. والكعبان يرقصان فوق الشبشب المطرز كأنهما كعباً غزال.. رقيقان.. مشريان بالحمرة.. شهيان كقلب التفاحة.. يتاكلوا أكل.. يا باشا.. يا أرض احفظي ما عليكي.. يا خوياء رد علينا.. يا جميل ارحم.. وبعدين معاك يا واد يا تقيل.. و.. وكل كلمة من هذه الكلمات لها معنى خاص، وتوقيت خاص.. ومناسبة خاصة.. إنك لا تستطيع أن تلقى الكلام هكذا جزافاً لمجرد أنك تحفظه أو لمجرد أنك وقع.. لا.. إنك بذلك كأنك تطلق الرصاص في الهواء، فيفر الغزال.. كل كلمة لها معنى، ولها مناسبة.. «يا باشا» غير «يا جميل».. و.. «ارحم بأة» تقال في مناسبة تختلف عن «التقل صنعة».. والصياد الماهر هو الذي لا يطلق الرصاص إلا في المليون.

وكانت كل رصاصاتي تصيب.

وكنت أتلقى الجواب من حركات الملاءة اللف.. إن الملاءة اللف لها لغة خاصة.. ولها قاموس خاص.. يحتفظ به المتخصصون في صيد الغزال من أمثالي.. علم واسع، يحتاج إلى دراسة وخبرة وصبر طويل.

هل تريد أن تعلم شيئاً من قاموس الملاءة اللف؟
اسمع يا سيدى.
إذا فردت البنت ملاءتها بذراعها الأيمن ثم عادت وضممتها
حول جسدها.. فمعنى هذه الحركة.. حصلنى.
وإذا رفعت يدها وشدت طرف الملاءة من فوق رأسها،
فمعنى هذا.. كلامك على رأسى.
وإذا ضمت الملاءة على صدرها بكلتا ذراعيها وبحيث تخفى
بها كل صدرها، فمعنى هذا.. أبويا ورايا.
وإذا رفعت يدها، وعدلت عروسة البرقع فوق أنفها، فمعنى
هذا.. أنت فى عنية.
وإذا طرقعت بكعب الشبشب أثناء سيرها.. فمعنى هذا..
وقعتك سودة.

و..

كل حركة، إشارة لها معنى.

إنه قاموس.

علم واسع.

والله أعلم.

ولم يحدث لى إطلاقاً أن طرقع كعب الشبشب فى وجهى..
أبدا.. بعد كلمة أو كلمتين، تطلق على البنت سهم عينيها، وما
تكاد تلمحنى حتى تفرد ملاءتها بذراعها اليمنى.. وحصلنى..
بعض البنات كن لا يحتملن كلمة والثانية.. وبعضهن كن
يعذبننى وراءهن ساعة وساعتين.. وأحياناً يوماً ويومين..
والصبر يا جميل جميل.. وينتهى صبرى دائماً بأن تفرد البنت
دائماً ملاءتها بذراعها اليمنى.. وحصلنى..
وأحصلها.

تسير فى شارع الموسيقى وأنا وراءها، حتى نصل إلى
ميدان العتبة الخضراء.. وكان ميدان العتبة على أيامنا هو بر
الأمان.. تستطيع فيه البنت أن تتحرر من تحفظها بعيدا عن
أعين تجار الموسيقى والغورية، وحماشة أولاد البلد.. وتسمع
لى بأن أسير بجانبها.. ونركب عربة حنطور - أو تاكسى - إذا
كنا فى أول الشهر.. أو ندخل حديقة الأزبكية.. وفى الجبلية
أمان من العواذل، وعسكرى البوليس.. ثم أنا وبختى.. يا طلعت
على ما قسم، يا إما جميلة دمها خفيف وقرفتها خفيفة
وبحبوحة.. لقد وقعت لى قطع فى منتهى الجمال.. غزلان
يا بنى.. غزلان.. وأنا الصياد.. صياد الغزال.

إلى أن وقعت فى قسمتى، نفيسة.

شى لله يا ست.

اللهم اجعل كلامى خفيف عليها.

رأيتها أول مرة فى شارع الموسيقى أيضا.. قوامها صغير..
زى اللعبة.. والملاءة اللف تلتف حولها كأنها ستأكلها أكلا..
وجسدها مشفى من غير عضم.. ومشيتها.. يا أرض احفظى
ما عليكى.. كأن كل قطعة منها تمشى وحدها.. صدرها
يسبقها.. وعجزها يجرى خلفها.. وعندما لمحت عينيها تطلان
من فوق البرقع خيل إلى أنى أصبت.. إيه ده يا جدعان.. دول
مش عينين دول.. دول نجوم.. دول دنيا.. عالم.. تهت فى
عينيها يا رجال.. خدينى وراكى يا ست قبل ما أتوه.
ومشيت وراءها.

وأطلقت أول رصاصاتى.. هدى الخطوة يا جميل.. ثم
رصاصة أخرى.. وبعدين معاك بأة، تعبنا.. ورصاصة ثالثة..
ورابعة.

ولا حركة.

ولا إشارة.

مشيت وراءها شارع الموسيقى كله إلى أن وصلت إلى ميدان الحسين، ثم انحرفت إلى الباب الأخضر.. واضطرت أن أقف.. فالمنطقة التي تقع فيما وراء الباب الأخضر لا تصلح للصيد.. إنها منطقة تحتلها شلة من الفتوات، مرهوبى الجانب. وعدت يائسا.

ولكنى فى اليوم التالى لمحتها.. نفيسة.. فى شارع الموسيقى.. فى نفس الموعد.. رب صدفة خير من ميعاد.. ومشيت وراءها.. برضه كده يا جميل.. هم علموك التقل ده قين.. أموت يعنى ولا أموت.. يا واد بحبها شوية. ولا حركة.

ولا إشارة.

إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر.

وعدت وأنا مصدوم.

وفى اليوم الثالث.

يا خويا ارحم بأه.. والله ما بنام الليل.. و..

ولا حركة.. ولا إشارة.. إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر.. الباب الأسود.. الباب المهبب.. وعدت وأنا أشعر بأنى أهنت.. بأه بت مفعوصة زى دى تغليك الغلب ده كله.. عيب عليك يا حسنى، يا صياد الغزال.

واليوم الرابع.

والخامس.

أسبوعين.. ثلاثة.. وقد أصبحت المسألة خطيرة.. البت جفنتنى بجد.. ما بنامش واللى خلقك.

ثم كان يوم.

ومرت نفيسة.. تأخرت يومها قليلا.. ومشيت وراءها وأنا
أشعر بأنى قد فقدت الثقة فى نفسى.. صوتى ضعيف منهك..
وعيناي الوقحتان ماتت فيهما الوقاحة.. وأمشى كأنى منساق
وراء قدرى.. اتأخرت ليه النهاراة يا جميل.. يا جميل يا أبو قلب
قاسى.. ارحم يا سيد الراحمين.. ولا يعنى أموت.
وفجأة..

فردت نفيسة ملاءتها بذراعها اليمنى وعادت وضمتها.
جاءت الإشارة.
حصلنى.

أحصلك لآخر الدنيا يا دنيا.. يا ترى آخرة الصبر ده كله
إيه.

ورفعت نفيسة يدها ولمست عروسة البرقع.
إشارة أخرى معناها : «أنت فى عنية».
تسلم عنيكى يا ست الكل.. يا أحلى من الفل.. دوخنى
يا بتاع الدوخة أنت.. قوللى على فين وأنا وراك.
وعادت تفرد ملاءتها بذراعها اليمنى.
حصلنى.

ما تخفش يا حته من جوة.. محصلك.
ولم تتجه نفيسة إلى الباب الأخضر.. دخلت من الموسيقى
إلى النحاسين.. ثم انحرفت إلى بيت القاضى.. وبين كل خطوة
وأخرى تعطينى إشارة.. حصلنى.. يا خويا محصلك.. بس على
فين.. وخيالى يسبقنى.. ربما أخذتنى إلى بيت صديقة من
صديقاتها.. ربما كانت تعرف امرأة عجوزا تستطيع أن تأوينا
ساعة شهد.. ساعة حظ.. آه يا نفيسة.. ده أنا حاكلك أكل.

تخرج من حارة وتدخل حارة.. وعيناي مركزتان على
ظهرها.. وكعبي قدميها.. وكل ثنية من جسدها.. والنار تشتعل
في عروقي.. عقلي في النار.. قلبي في النار.. نار وقايدة
يا جميل.. خلصنا بأه.
وفجأة.

وأمام دكان يقال.

استدارت نفيسة إلى، وألقت بملاءتها من فوق رأسها ثم
قذفت بفردة الشبشب من قدمها، والتقطتها بيدها من الهواء..
ثم هجمت على.. وهى تصرخ.. يا أفندى يا عرة.. يا إبرة
مصدية، يا ماسح، يا ماسخ.. يا.. وانهاالت على ضربا
بالشبشب.. وخرج البقال من دكانه.. وانشقت الأرض وانطلق
منها عشرات.. كبار وصغار.. كلهم يضربوننى.. وصوت
نفيسة، أعلى من صوتهم.. وشبشبها يحكم التصويب على
رأسى خيرا من صفعاتهم ولكماتهم.. ولم أصرخ.. عيب
يا حسنى.. لا تصرخ.. ولا توسلت.. عيب.. أنت من الدراسة
يا حسنى.. ماتشمتش فيك العيال.. وقفت ألقى شبشب نفيسة
ولكمات أهل حقتها، وعيناي مركزتان على وجهها.. إنها
جميلة.. حتى وهى تردح.. جميلة بنت الإيه.. جميلة ولو أنها
راجل.. وصدمت نفيسة بهدوئى.. وقوة احتمالى.. والتقت
عينها بنظرتى الثابتة التى تأكل وجهها.. وأحسست أنها بدأت
تلهث.. وتقاوم شيئا فى داخلها.. أحسست أنها تعود أنثى..
بنثا.. ثم سمعت صوتها وهى تقتل الحزم والمجدعة.. وتشخط
فى أهل حقتها:

- بس يا دوكشة.. بس يا واد أنت وهوة.. كفاية يا حمادة..
وكف الضرب عنى.

ونظرت إلى وهى تلهث كأنها تبذل مجهودا عنيفا لتحفظ
بقوة شخصيتها قبل أن تذوب أمامى :

- أنت عايز إيه منى يا جدع أنت.. بقالك شهر دايـر ورايا..
عايز إيه.. ما تتكلم.

وقلت فى هدوء.. وأنا أبتسم لها ابتسامة ساخرة، أسخر
بها من «مجدعتها».. خليك صياد يا حسنى أوع تنخ.. وقلت
كلمة واحدة :

- عايزك.

تعجبنى يا واد يا جامد.

وقالت نفيسة فى غيظ :

- شوفوا الراجـل وبجـاحته عايزنى يا عنى ايه يا جدع أنت.
قلت :

- عايزك وخلاص.

قالت :

- اللى عايزنى يتجوزنى على سنة الله ورسوله.
قلت :

- وماله.. نتجوز.

ونظرت إلى كأنها لا تصدقنى، وقالت :

- تلاقـيك بتتجوز كل يوم واحدة.

قلت :

- أبدا وحياة شـبشـبك.. ده بس علشان خاطرك يا جميل.

وقالت فى حدة :

- طيب اتفضل اتجوزنى.. آدى أبويا، وآدى أخويا.

وشدت البقال من بين الزحام.. أبوها.. وأشارت إلى
حمادة.. أخوها.

وقلت :

- وفين أمك ؟

ورفعت حاجبها الأيسر، وقالت كأنها تسخر مني.

- تعيش أنت.

قلت :

- عرفت تخلف.. الله يرحمها.

ثم التفت إلى أبيها وإلى أخيها، وقلت :

- تحبوا نكتب دلوقتي.. ولا نجيب أمي الأول.

وقالت وهي ترفع حاجبها الآخر وتلم ملاءتها حول

جسدها :

- لا.. روح هات أمك.. يا روح أمك.

قلت :

- ييجي معايا حمادة.. رهن.. أحسن أرجع ما لقيش.

وقالت وهي تبدو مسيطرة على الحارة كلها :

- روح معاه يا حمادة.. ليتجوز في السكة.

قلت كأني أصبحت زوجها فعلا :

- أعملى لى كباية شاي على بال ما نرجع.. أنا أحب الشاي

تقيل.

وهمت أن أنصرف، فصاحت بي :

- تعالى هنا يا أفندي.. ما ترجعش لأمك بالشكل ده.

وجذبتني إلى دكان أبيها البقال، وأمسكت بفوطة بلتها

بالماء، وأخذت تمسح وجهي من أثر الكدمات، وهمست :

- واسم حضرتك إيه بأه ؟

قلت :

- حسنى.. حسنى عبدالعاطى.

قالت :

- ويا ترى بتشغل شغلة ثانية.. ولا بس معساتي.
وضحكت قائلا :

- موظف فى وزارة الأشغال.. ماهيتى ثمانية جنيه
وكسور..

وعدت أملاً عينى من وجهها.. جميلة بنت الإيه.. وأنا
صياد.. صياد الغزال.. لا تستطيع غزالة أن تفر منى.
وتزوجت نفيسة.

ومن يوم أن تزوجتها إلى اليوم وأنا أخاف من شبشبها..
وقد أقلت عن صيد الغزال.. غزالتى تساوى كل ما فى شارع
الموسكى من غزال.. وتفرغت لمستقبلى.. درست من جديد،
ونلت البكالوريا ودرست الحقوق وأنا موظف فى الأشغال،
ونلت الليسانس.. وأنا الآن محامى.. ونسكن فى العباسية..
وعندنا تليفون وتليفزيون.. وسيارة نصر.. ومحمود.. نفيسة
هى أم محمود.

وأنا لا أخاف على محمود لأنه دون جوان.
سيجد حتما الفتاة التى تضربه بالشبشب.

القضية الأخيرة ..

كانت هوايتى منذ كنت طالبا فى المدرسة
الثانوية، هى الخطابة، وكتابة البحوث
الاجتماعية.. والذى يهوى الخطابة نادرا ما يهوى
كتابة البحوث.. فالخطابة مواجهة الجماهير،
□ وكتابة البحث تتطلب العزلة عن الجماهير.. والخطابة هى أن
تضع عقلك على طرف لسانك، والبحث يتطلب أن تضع عقلك
على طرف قلمك.. الخطابة تعتمد غالبا على إثارة العواطف..
على إقناع العاطفة.. وكتابة البحث تعتمد دائما على إقناع
العقل.

هوايتان متناقرتان، وبرغم ذلك فقد جمعت بينهما.. وكنت
وأنا طالب فى المدرسة لا تفوتنى مناسبة سواء كانت وطنية أو
اجتماعية إلا وأقف فيها خطيبا بين زملائى.. وفى لحظات أملك
عواطفهم، وأهزها هذا عنيفا.. أبكيهم على زميل توفى.. أو
أحمسهم للخروج فى مظاهرة.. أو ألهم أكفهم بالتصفيق

لفريق كرة القدم عندما نقيم له حفلة تكريم فى مناسبة فوزه.. وفى الوقت نفسه كان لى فى كل أسبوع بحث مكتوب عن إصلاح نظم المدرسة.. أو عن التنشيط الاجتماعى.. أو.. أو.. بحوث أقدمها لناظر المدرسة أو للأساتذة المشرفين، فتلقى اهتمامهم وإعجابهم.

وقادتني هوايتي إلى كلية الحقوق.

ولم أكن أحلم بأن أكون وزيرا، أو زعيما، كما كان يحلم بقية طلبة الحقوق فى عهد ما قبل الثورة.. أبدا.. كل ما كنت أحلم به هو أن أكون محاميا.. محاميا كبيرا.. أخطب.. وأكتب البحوث القانونية والاجتماعية والسياسية.

وتفوقت فى كلية الحقوق.. وتفوقت فى هوايتي.. وأصبحت جميع الهيئات السياسية والاجتماعية داخل الكلية، وخارجها، تدعوني إلى الخطابة فى اجتماعاتها، وإلى إعداد البحوث عن نشاطها.. ولم أكن منتميا إلى واحدة من هذه الجمعيات، ولا إلى حزب من الأحزاب.. أبدا.. كان كل ما أحرص عليه هو أن أقتنع بالموضوع الذى أخطب فيه، أو الذى أعد بحثى عنه.. سواء كان هذا الموضوع يهم الوفديين أو الشيوعيين أو الإخوان المسلمين.. أو.. أو.. المهم هو عدالة القضية التى أدافع عنها.. وقد كنت حريصا فعلا على ألا أتكلم إلا فى القضايا العادلة.. وبلغ منى الحرص إلى حد أن العدالة أصبحت تعرف بى.. فإذا أعلن أنى سأخطب فى اجتماع ما آمن الناس كلهم بأن القضية التى ستبحث فى هذا الاجتماع، عادلة.. وفشلت كل الوسائل التى تعرضت لها كي أشترك فى الدفاع عن

قضايا لا أومن بعدالتها.. فشل التهديد، والإغراء.. وفشل التشهير والنفاق.. وبقيت صلبا قويا، فخورا بصلابتي وقوتي، ومكانتي التي اكتسبتها بين طلبة وأساتذة الكلية.

وقبل أن أحصل على ليسانس الحقوق.. طبعت بطاقة تحمل اسمي.. «محمود عباس» ثم «المحامى».

كنت واثقا من حصولي على الليسانس.. ونلتته فعلا عام ١٩٤٣ بمجموع ٨٥ في المائة.. والتحق بمكتب الأستاذ عبدالتواب عبدالحى، محاميا تحت التمرين.. وذهل الأستاذ عبدالتواب.. ذهل من المذكرات القانونية التي أعدها، ومن الأسلوب الجديد الذى اتبعه فى المرافعة أمام المحكمة.. أسلوب هادئ.. رنان.. يتسلل إلى قلب القاضى، حتى إذا ملكت القلب أصبح من السهل على أن أكسب العقل.. وأكسب القضية.

ولكنى كنت مصرا على ألا أقبل الترافع فى أى قضية إلا إذا اقتنعت بعدالتها.. قضايا كثيرة من التى ترد على مكتب الأستاذ عبدالتواب، كنت أرفض المساهمة فيها، لا لشيء إلا لأنى غير مقتنع بعدالة موقف الموكل.. وكنت أصارح الأستاذ عبدالتواب، برأى هذا، فلم يكن يغضب، بل ازداد تقديره لى، واحترامه لشخصيتى، إلى حد أنه بعد عام واحد من اشتغالى فى مكتبه، قرر لى مرتبا عشرة جنيها فى الشهر.. برغم أن المحامين تحت التمرين على أيامنا لم يكن من حقهم العمل بمرتب. وبرغم ذلك.

برغم هوايتى.. وبرغم كل هذا النجاح الكبير.. وبرغم حلم العمر.. هجرت المحاماة قبل أن أتم فترة التمرين.. ذهبت

■ القضية الأخيرة .. ■

هوايتى.. دفنت نجاحى.. مزقت حلم العمر.. وضحييت
بالجنيهات العشرة.. كانت هذه الجنيهات العشرة تعنى شيئاً
كبيرا بالنسبة لى.. فقد كان والدى يعطينى حتى ذلك الحين
ثمانية جنيهات فى الشهر إلى أن أستطيع أن أعول نفسى..
وكانت أمى قد ادخرت لى مائة جنيه لتدفعها مهرا لى عندما
أتزوج ابنة عمى.. إنى أحب ابنة عمى.. ومنذ قبضت العشرة
جنيهات وأنا أدخرها كلها حتى يحين اليوم الذى أنفقاها فيه مع
ابنة عمى بعد أن نتزوج.. ولكنى ضحييت بالعشرة جنيهات
أيضا.

ماذا حدث.

حدث أن جاءنى فى بيتى الأسطى محمد أحمد محمود
المكوجى، الذى يقع دكانه تحت بيتنا مباشرة.. وأبلغنى أنه
قبض على ابن عمه عبدالمجيد علوان، متهما بسرقة مجموعة من
ولاعات السجائر.. من المحل التجارى الذى يعمل فيه.. وأقسم
لى أن علوان مظلوم، وأنه ضحية اضطهاد رئيسه الذى كان
يطلب منه أن يذهب إلى بيته لينظفه ولأن علوان كان يرفض،
فقد دبر له الرئيس هذه التهمة.

وقال الأسطى محمد أحمد محمود :

— علوان ابن عمى فقير.. ما حلتوش حاجة.. وبيجرى ورا
سبع عيال.. غير أمه.. ومظلوم والله.

ولا أدري لماذا تحمست فورا لهذه القضية.

ربما لأنها أول قضية تأتى إلى مباشرة، وباسمى، لا عن
طريق مكتب الأستاذ عبدالقواب.

وربما لأنى أردت أن أثبت لأهل الحى أنى أقف بجانبهم.
والأسطى محمد أحمد محمود من أكثر أهل الحى نفوذا.
وربما لأنى أصيبت بنوبة من العطف المفاجىء على
عبدالمجيد علوان وأولاده السبعة.
ورفضت أن أناقش الأسطى محمد أحمد محمود فى
الأتعاب.

وذهبت إلى الأستاذ عبدالقواب المحامى واستأذنته فى أن
أتولى القضية بنفسى ولحسابى، فقد كان يجب أن أستأذنه
لأنى ما زلت تحت التمرين.. وسمح لى الأستاذ عبدالقواب.. بل
قال لى :

- اعتبر نفسك صاحب هذا المكتب.. كل إمكانيات المكتب
تحت أمرك.
وشكرته.

وأسرعت إلى النيابة ونسخت محضر التحقيق بنفسى.
فإنى لم أرد أن أشغل كتبة المكتب فى نسخه، ما دام المكتب لن
يستفيد شيئاً فى هذه القضية.
وقرأت التحقيق بإمعان.

إن السرقة كبيرة.. مائة ولاعة ماركة رونسون.. ثمن
الولاعة الواحدة يصل إلى خمسة جنيهات.. أى أن قيمة
المسروقات تصل إلى خمسمائة جنيه.
والإتهام قوى.

لقد عثروا على ولاعتين من الولاعات المسروقة فى منزل
عبدالمجيد علوان.

وذهبت لزيارة المتهم فى السجن، وقلت له:
- اسمع يا علوان.. قل لى الحقيقة علشان أقدر أخدمك.. كل
الحقيقة.

وأقسم علوان أنه لم يسرق.. وأقسم أن رئيسه يضطهده
وأنه هو الذى سرق الولاعات ودس اثنتين منها فى بيته حتى
يثبت عليه التهمة.

وأفاض علوان فى التفاصيل.

كلها تفاصيل معقولة.

وعلوان رجل عجوز، تبدو الطيبة على وجهه.. والشقاء..
والفقر.. وإرهاق العمر الطويل.

وتأثرت.

تأثرت جدا.

وانتهى علوان من كلامه، ثم قال :

- أقول إيه كمان يا أستاذ.. دلنى!

ولم تعجبنى هذه الكلمة.. لم أسترخ لها.. ماذا يعنى.. ربما
لم أفهمه تماما.. لا يهم.. وتبخر قلقي بسرعة وقلت لعلوان :

- اطمئن.. براءة بإذن الله.

وانهمكت فى القضية.

كل وقتى.

كل عقلى.

ولا أريد أن أروى التفاصيل.. ولكنى استطعت بعد جهاد
عنيف أن أفرج عن علوان بكفالة خمسين جنيها.
ولم يكن مع علوان هذه الخمسون جنيها.

وقريبه الأسطى محمد أحمد محمود، لم يستطع أن يدفع أكثر من خمسة جنيهاً، فذهبت إلى أمى وأقنعتها بأن تعطينى خمسين جنيهاً. من مهر ابنة عمى.. على أن أردها لها بعد أن يحكم ببراءة المتهم.. إنى واثق من أنى سأحصل له على البراءة.. ورفضت أمى.. وألححت.. لأول مرة أختلف أنا وأمى.. وتماديت فى الإلحاح محاولاً إقناعها بأن الأمر متعلق بمستقبلى كمحام.. وأخيراً خضعت أمى بلا اقتناع وأعطتنى الخمسين جنيهاً، دفعتها فى خزانة المحكمة ليفرج عن علوان. وأفرج عنه.

وقال لى علوان يومها وفى عينيه لمعة غريبة، خيل إلى برهة أنها لمعة خبيث.

- كله يترد لك بإذن الله يا أستاذ.. الصبر طيب!!
ورفض صاحب العمل أن يعيد علوان إلى عمله، فأعطيته خمسة جنيهاً قرضاً إلى أن يستطيع أن يجد عملاً آخر.. وأعطيته خمسة جنيهاً أخرى.. وخمسة جنيهاً ثالثة.. لقد ذهبت إلى بيته ورأيت ما فيه من فقر.. رأيت أولاده السبعة حفاة.. عراة.. تلمس القذارة وجوههم.. ولم أكن أستطيع أن أتركه دون أن أمد له يد العون.. إنه مظلوم.. إنى واثق أنه مظلوم.

وعاد علوان يردد :

- كله يترد لك يا أستاذ.. الصبر طيب.

ولم أفهم ما يعنيه.

وحماسى لا يفتقر.

■ القضية الأخيرة .. ■

بل إنى كدت أتشاجر مع القاضى مرة لأنه أراد التأجيل.. إن حالة علوان لا تحتل التأجيل.. إنه لا يستطيع أن يعمل والإتهام معلق فوق عنقه.. وأولاده جياع.

وانتقل حماسى إلى زملائى الذين يعملون معى فى المكتب.. إنهم يدرسون القضية معى.. ويدلون بآرائهم.. والكتابة يساعدوننى.. صحيح أنى أعطيت واحدا منهم جنيهين.. والثانى جنيها، عندما كلفتهم بمهمات تتعلق بالقضية.. ولكنهم كانوا متحمسين.. بل إنى نقلت الحماس إلى المحكمة كلها.. أصبحت أعرف هناك باسم «محامى علوان»!

وبعد ستة أشهر.

حكمت المحكمة.

براءة.

لم يكن الأمر سهلا.. أبدا لم يكن سهلا أن أدحض أدلة الإتهام القوية، ولقد هنأتى الأستاذ عبدالقواب على هذا الحكم.. وزملائى.. واعتبرت أنا هذا الحكم هو الحجر الأساسى فى بناء مستقبلى.

وبعد أيام.

جاءنى علوان فى بيتى، وهو يحمل فى يده لفافة كبيرة، وقال لى بعد أن كرر شكره لى :

— أنا راجل حقانى يا أستاذ.. وأنت عملت كثير.. جميلك ما يتنسيش.. ودول ميت ولاعة.. يبقى لك منهم خمسين.
ثم فتح اللفافة التى فى يده.. ولعلت أمام عينى الولاعات.
الولاعات المسروقة.

وصرخت :

- إيه دول يا علوان.

وقال علوان ضاحكا :

- دول الولايات إياهم.. كنت مخبيهم عند مراتى الجديدة..
والحقيقة أنا كان نفسى أبيعهم بمعرفتى وأجيب لك تمنهم.. إنما
السوق واقف.. وأحسن الواحد يتقل.. قلت أجيب لك نصيبك
تتصرف فيه بنفسك.

ولم أرد.

بدأت أشعر بدوار.

وقال علوان :

- ودى فوق البيعة.. احنا لنا بركة إلا أنت يا أستاذ.
ووضع أمامى قطعة حشيش.

وصرخت :

- شيل الحاجات دى من قدامى.. شيلهم بأقولك.. شيلهم
أحسن أوديك فى داهية.

وارتفعت نظرة غبية مذهولة فى عيني علوان.. وقال :

- جرى إيه يا أستاذ.. ما هو ما تبقاش طماع.. كفاية كده
قوى.

انعدت أصرخ :

-- أخرج بره.. أخرج بره.

وجمع علوان الولايات، وأعاد قطعة الحشيش إلى جيبه،
واختفى من أمامى.

وسقطت فى هاوية الصمت.

لا أريد أن أتكلم.
لا أريد أن أرى أحدا.. ولا أُمى.. ولا خطيبتى..
وَألم ساحق يقرى صدرى.. ولم أكن أتألم لأنى وقفت
بجانب مجرم وبرأته.. بل لأن علوان كان طول هذه الشهور،
يعتقد أنى أعرف أنه سارق اللواعات، وأنى كنت أدافع عنه
لأطالبه بنصيبي فى المسروق.
وأفقت من نوبة الصمت.
وعدت إلى المكتب.
وحاولت أن أبدأ من جديد.. ولكنى لم أستطع.. لقد فقدت
ثقتى فى نفسى.. وثقتى فى الناس.. لم أعد أصدق أحدا..
ولا كلمة.. ولا حتى الأستاذ عبدالقواب نفسه.
وهجرت الحمامة.
إنى الآن موظف فى شركة.. موظف صغير.
وعيبى أنى لا أصدق أحدا.. وهو عيب أبعدنى عن الناس..
ولكنه يحمينى منهم.
إنى أخاف من الناس.
أخاف.
ولم أتزوج ابنة عمى.. لأنى أخاف.

الحسب والعدالة ..

يا حضرة القاضى..
أرجوك.. دعنى أتكلم.. إنى لا أستطيع أن
أحتمل كل هذا الكلام الذى يقال هنا.. سواء
الكلام الذى يقوله الدفاع أو كلام ممثل النيابة..
□ إنهم يتكلمون على أساس أنى ارتكبت جريمة.. وكان يجب أن
يسألوا أنفسهم أولا.. هل هناك جريمة؟.. أين هى الجريمة
يا سيادة القاضى.. إن الجريمة تعنى الاعتداء.. فأين هو
الاعتداء.. من هو الضحية فى هذه القضية.. من هو المعتدى
عليه.. من الذى أصابه أذى منى.. إن السيد ممثل النيابة يقول
إنى اعتديت على النظام العام وصدقنى ، يا سيادة القاضى ،
أنى لا أدرى ما هو هذا النظام العام.. ولم يسبق لى أن تشرفت
بمعرفته.. ولكن كل ما أعرفه أن أى اعتداء يجب أن يكون له
دافع وهدف.. فما هو الدافع الذى يمكن أن يقودنى إلى
الجريمة.. وما هو الهدف الذى يمكن أن أصل إليه من وراء هذه

الجريمة.. السيد وكيل النيابة يقول إنى ارتكبت تزويرا فى أوراق رسمية.. ماذا استفدت من هذا التزوير إن كان حقيقة أنى زورت.. ما هى حاجتى إلى هذا التزوير.

لا يا حضرة القاضى.. أرجوك.. أتوسل إليك.. لا تمنعنى من الكلام.. إنى لا أستطيع أن أسكت.. ولا أستطيع أن أنتظر حتى يأتى دورى فى الكلام.. بل لا أطيق أن أسمع كل هذه النصوص القانونية تنطلق إلى أذنى كالصواريخ.. نح القانون جانبا.. دعك من القانون الآن يا سيادة القاضى.. واستمع إلى كإنسان.. إنك لم تجلس على منصة القضاء إلا لأنك إنسان كبير.. الإنسان فىك هو الأصل لا القاضى.. الإنسان فىك أكبر من القاضى.. وأنا أخاطب فىك الإنسان، وأترك مهمة مخاطبة القاضى للأستاذ المحامى الذى يترافع عنى.

شكرا يا سيادة القاضى على سعة صدرك.. إنى عاجز عن الشكر.

والآن..

لماذا أنا هنا فى ساحة عدالتكم.

إنى هنا لأنى أحببت هدى، زميلتى فى العمل.. لا أدرى متى أحببتها.. ربما منذ اليوم الأول الذى التحقت فيه بالعمل وعينت كاتبة على الآلة الكاتبة فى قسم الحسابات.. لقد رفعت عينى إليها وخیل إلى ساعتهأ أنى لن أستطيع أبدا أن أرخى عينى عنها.. إنها جميلة يا سيادة القاضى.. رقيقة.. هادئة.. ولكنها ليست ضعيفة.. إنها شخصية ثابتة حلوة.. وابتسمت لها.. ربما كانت أول ابتسامة أحس بها تملأ قلبى.. وتعيش فيه.. إن نفس

هذه الإبتسامة لا تزال فى قلبى حتى اليوم.. حتى هذه اللحظة..
إنى أبتسم الآن يا سيادة القاضى أبتسم لها.. لهدى.
وهى أيضا، ربما أحببتنى منذ اليوم الأول.. فقد بدأ كل منا
يقترّب من الآخر فى خطى سريعة طبيعية، لا افتعال فيها
ولا تعمد.. قوى أكبر منا تشد أحدنا للآخر.. إلى أن تنبهننا
فجأة إلى أنه الحب.

وبدأنا نقاوم.

نقاوم الحب.

لقد أشفق كل منا على الآخر من حبه.. خفت عليها من
حبها.. وخافت على من حبى.. فقد كان كل منا يعلم مدى
العذاب الذى ينتظر الآخر.. كل منا يرى الصخرة الهائلة التى
يمكن أن يتحطم عليها حبنا فى آخر الطريق.
فأنا مسيحي.. مسيحي صريح.. اسمى لويس إسكندر
منقريوس.

وهى، هدى عبدالفتاح.. مسلمة.

وأقسم لك يا سيادة القاضى أننا قاومنا كثيرا.. أكثر مما
يحتمل أى إنسان يحب.. قاومنا إلى حد أن قررنا أن يبتعد
أحدنا عن الآخر.. لم نعد نلتقى.. بل لم نعد نتبادل الكلام،
ولا حتى تحية الصباح.. كانت تدخل إلى المكتب فلا تقول لى
صباح الخير.. وأخرج فلا أقول لها سعيدة.. ووصل الأمر إلى
حد أنى طلبت نقلى من قسم الحسابات.. وفى نفس اليوم
طلبت هى أيضا نقلها.. وصدر قرار بنقلى أنا إلى قسم
المشتريات.

واستمرت هذه القطيعة ستة أشهر.. ستة أشهر يا سيادة
القاضي والحب فى قلبينا.. فى رأسينا.. فى أعيننا.. فى
أعصابنا.. وأنا أذبل.. وهى تذبل.. تكاد تموت يا سيادة
القاضي.

لا يا سيادة القاضي.. إنى لا أبالغ.. ولا أتكلم كسلأما عاطفيا
منمقا.. أبدا.. إن العاطفة هى واقع.. هى جسم الجريمة فى هذه
القضية إذا أرادت النيابة أن تسميها جريمة.. ولم نكن نستطيع
أن نعيش بعيدا عن واقعنا.. أعنى بعيدا عن عواطفنا.. عن حبنا..
فقررنا أن نستسلم.. وعدنا.. عدنا إلى الحب.. إلى دنيانا.. إلى
الهواء الذى نستمد منه حياتنا.

لا تنس يا سيادة القاضي أننا قاومنا.. وأننا قاومنا إلى هذا
الحد.. لماذا قاومنا؟ لأننا كنا معترفين بالتقاليد التى تحكم
مجتمعنا.. لأننى لم نكن نريد أن نتحدى المجتمع.. ولا أن
نتحدى شريعة كل منا.. كنا نحترم الشرائع.. ونحترم
المجتمع.. ونحترم أهلى وأهلها.. وكان يمكن أن نرتاح لو أننا
استطعنا أن نستمر فى المقاومة.. ولكننا لم نستطع.. لأن حبنا
كان أقوى من أهلى وأهلها.. وأقوى من المجتمع.. وهو ليس
أقوى من الشريعة.. ولكن الشريعة.. كل الشرائع.. هى شرائع
الحب.. الله هو الحب.. وقد كان حبنا نظيفا نقيًا بحيث نفخر
بأن ننسبه إلى الله.. الله.. الله الواحد.. إله المسلمين والمسيحيين..
مهما تعددت شرائعه.

ماذا نفعل بهذا الحب يا سيادة القاضي.
كان أمامنا طريقان.

إما أن نبقيه سرا، خوفا من الناس ومن الأهل، إلى أن ينقلب إلى خطيئة، لا نرضاها لحينا.

وإما أن نعلنه للناس.. ونسير به فى الطريق الذى رسم للحب منذ بدء الخليقة.. أن تكون لى وأكون لها.. أى أن نتزوج. ولكى فتزوج، يجب أن يبدل أحدا دينه. إما أن أعلن إسلامى.

وأما أن تتنصر هدى.. تعلن اعتناقها للدين المسيحى. واسمح لى يا سيادة القاضى أن أتكم بصراحة أكثر.. وأنا واثق أن سعة صدرك، وسمو تفكيرك ومشاعرك، يمكن أن تقسح لى مجال الصراحة.

لقد كنا نعتقد أن تغيير أحد منا لدينه، ما هو إلا مجرد إجراء شكلى مضطرين إليه، ولن يؤثر على معتقدات أحد منا.. سواء أسلمت أنا، أو تنصرت هى.. فسيبقى كل منا محتفظا بحقيقة مشاعره ومعتقداته.. الشاعر والمعتقدات التى تعيش فى قرارة صدره، والتى تنظم صلاته بالله، ولا يملكها أحد إلا هو، ولا يحاسبه عليها أحد إلا الله.

كان هذا هو تفكيرنا فى مبدأ الأمر. ولكننا عندما تعمقنا أكثر اكتشفنا أن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه السهولة.

فتغيير أحدا دينه سيسبب جرحا لأهله، ولقومه.. أمى وأمها.. وأبى وأبوها.. وإخوتى وإخوتها.. أى فريق نعرضه للصدمة.. أى فريق نضحى به.. واحد منا يجب أن يضحى بأهله وقومه.. التضحية بهم بمعنى جرح شعورهم وتعرضهم

للصدمة ، ثم هناك توضحية أخرى.. توضحية ذاتية.. فلا شك أن واحدا منا سيضحى بجزء من معتقداته.. أو على الأقل سيضحى بمظهر هذه المعتقدات.. بالأشياء الصغيرة التي تربينا عليها.. بالتقاليد والبدع التي أصبحت.. إلى حد ما جزءا من حياتنا.. ولا شك أن حينا يحتمل هذه التوضحية.. ولكن لا شك أيضا أن التوضحية تؤثر في الشخصية.. واحد منا سيتنازل عن قطعة من شخصيته.. ستهتز شخصيته.. وقد يصاحبه أثر اهتزاز الشخصية طول حياته.

فمن منا يقدم على هذه التوضحية.

أنا.

أو هي.

وصدقنى أننا ناقشنا هذا الموضوع بصراحة، وبساطة، وحلاوة.. كان حينا - ولا يزال - يحتمل مواجهة الواقع.. ليس فقط الواقع المادى.. بل الواقع النفسى.. واقع أحاسيسنا النفسية.. لم يحاول أحد منا أن يناقش الآخر.. أو، يتظاهر بالاندفاع فى سبيل حبه أكثر من الآخر.

وكنت مستعدا أن أقبل التوضحية.

وكانت هي أيضا مستعدة أن تقبل التوضحية.

أنا مستعد أن أعلن إسلامى.

وهي مستعدة أن تعتنق المسيحية.

وضحكنا معا، وكل منا يحاول أن يعفى الآخر من التوضحية

ويحتملها عنه.

أتدرى يا سيادة القاضى.. لقد سبق أن قرأنا قصة لإحسان

عبدالقدوس، اسمها «الله محبة» تدور حول مشكلة كمشكلتنا، وقد وصل البطل والبطلة في القصة إلى حل غريب.. أجريا «طس» بينهما.. أمسكا بقطعة نقود، واختار كل منهما وجها من وجهيها.. ثم قذفها بها في الهواء.. والوجه الذي تسقط عليه قطعة النقود يغير صاحبه دينه.

وربما كانت القصة مجرد خيال انطلق في رأس الكاتب.. ولكننا فكرنا في أن ننفذ هذا الخيال.. ثم أبته عقولنا.. لم نقتنع به.. إن دين كل منا لا يمكن أن نعلقه في قطعة من ذات الخمسة القروش.. ولا يمكن أن نتركه لعجلة الحظ.. إنما يجب أن نصل إلى حل نقتنع به بعقولنا.. فإننا إذا اقتنعنا احتفظنا بسلامة شخصياتنا.. الإقناع وحده هو الذي يحفظ قوة الشخصية.

وعدنا نفكر.

فكرنا كثيرا يا سيادة القاضي.. كثيرا جدا.
وانتهينا إلى الحل الذي تسميه النيابة جريمة.
لقد تزوجنا مرتين.

مرة كمسلمين.

ومرة كمسيحيين.

ذهبت وأعلنت إسلامي.. ثم تزوجتها أمام المأذون.

ثم.. بعد ذلك.. ذهبت هدى واعتنقت المسيحية، وتزوجتني مرة ثانية في الكنيسة.

فأين الجريمة هنا يا سيادة القاضي.

هل جريمة أن يحب أحدهما الآخر إلى هذا الحد.

لنفرض أن اثنين من دين واحد، خطر لهما أن يتزوجا مرتين تأكيداً لحيبهما.. لنفرض أن رجلاً تزوج امرأة.. وبعد خمس سنوات أو عشر خطر لهما أن يتزوجا مرة ثانية تأكيداً لحيبهما.. مجرد خاطر حلو من الخواطر التي ترد في عقول المحبين.. إن أم كلثوم تقول في أغنياتها «لو كنت أقدر أحب تاني أحبك أنت»، وهو تعبير صادق عن خواطر تطلقها فعلاً عقول المحبين.. إن الزوج كثيراً ما يقول لزوجته التي يحبها: «لو كنت أقدر أتجوز تاني أتجوزك إنتى برضه».. فهل لو تزوجا مرة ثانية.. لمجرد حبهما بطريقة خطرت لهما، يعتبر هذا جريمة.

لا..

لا يمكن.

لا يمكن أن يكون الارتفاع بالحب إلى هذا المستوى يعتبر جريمة.

وهذا ما فعلناه يا حضرة القاضي.

تزوجنا مرتين تأكيداً لحيبنا.

مرة بعد أن غيرت ديني من أجل هدى.

مرة بعد أن غيرت هدى دينها من أجلى.

صحيح أننا أخفينا ما فعلناه عن كل من حولنا.. أخفينا

خطتنا عن المأذون والقسيس.. وتركنا البعض يعتقد أنى

أسلمت وتزوجت زواجا إسلامياً.. والبعض الآخر يعتقد أن

هدى تنصرت وتزوجت زواجا مسيحياً.. ولكننا لم نخف شيئاً

لأننا اعتبرناه جريمة.. ولكننا أخفينا أنه كان إجراء يخصنا

وحدثنا.. هدى وأنا.. إجراء يسمو بحبنا، ويحفظ لكل منا شخصيته.

ولكن النيابة تقول إننا زورنا فى أوراق رسمية.. إننا لم نزور فى أوراق رسمية يا سيادة القاضى، ولكننا أكدنا حبنا فى أوراق رسمية.. التزوير يجب أن يهدف إلى فائدة غير مشروعة يجنيها المزور.. فهل الزواج غير مشروع.. إنه مشروع.. إنه مشروع فى الأوراق الرسمية المسيحية.. ومشروع فى الأوراق الرسمية الإسلامية.. فكيف تنطبق هنا جريمة التزوير.

وبعد ذلك.. فأنى واثق يا سيادة القاضى أنك لا يمكن أن تحاسبنا على حقيقة عواطفنا ومعتقداتنا الدينية، فهذا شئ بيننا وبين الله.. وسواء اعتبرتنا أنا وهدى مسلمين، أو اعتبرتنا مسيحيين.. فنحن نحب الله.. ونؤمن به.. ونؤمن بأن الله يحبنا، وإلا لما وهبنا كل هذا الحب الذى حدثك عنه.

والأمر لك يا سيادة القاضى.

وحكمك لن يكون علينا.. ولكنه على الحب.

وأنا وهدى مطمئنان إلى أن الحب هو العدل.. وأنت عادل.

وسام للمتهم

ياسيادة القاصي.

ثق أنى حائر.. والمحامي غالبا لا يحتار فى موقفه.. فهو دائما يقف بجانب المتهم الذى قبل أن يدافع عنه.. وأنا الآن واقف بجانب أربعة من

المتهمين الشبان، ومعترفين بجريمتهم.. ولكن حيرتى هى أنى برغم اعترافهم لا أستطيع أن أعتبرهم مجرمين.. حتى أدافع عنهم.. إنى فى الواقع معجب بهم.. معجب بموقفهم، حتى لو كان هذا الموقف خلف قضبان القفص الحديدى.. وواجبى الذى أحس به ليس هو واجب الدفاع عنهم، ولكنه واجب المطالبة لكل منهم بوسام يعلقه على صدره.. فهل من حقى أن أطالب لمجرم معترف بوسام.

النيابة طبعاً، ستقول، لا.. وقد عصرت القانون عصرا حتى تستطيع أن تستخرج منه ما يكفى للحكم على الأربعة المتهمين.

ولكنى واثق أن المحكمة لا يمكن أن توافق النيابة على

منطقها.. بل إنى واثق أن السيد وكيل النيابة لو انتقل الآن إلى مقعد القضاء لتغير منطق.. ولاحتار مثلى.. وبرغم أنى أسمو بعدالة المحكمة عن مستوى الحيرة.. إلا أن الحيرة هنا وفى هذه القضية بالذات.. هى حيرة إنسانية.. والإنسانية تعلو فوق القانون.. الإنسانية هى العدالة، وليس القانون.
يا سيادة القاضى.

البراءة ليست هى موضوع دفاعى.. أنا لا أطلب البراءة.. فإنى لست فى حاجة إلى طلبها.. إنها ثابتة قانونا.. ولكنى أطلب أربعة أوسمة لأربعة متهمين.. إنى أطمع فى أن أضع تقليدا قضائيا جديدا بأن تسجل المحكمة فى حيثيات الحكم، أنه برغم وقوع الجريمة، وبرغم، اعتراف المتهمين، فإن المحكمة تثبت إعجابها بهم، وتقديرها لموقفهم، وتوصى الهيئات المختصة بمنح كل منهم وساما.
لا تبتسم يا سيادة القاضى.
أرجوك لا تبتسم.

إنى لا أبالغ.. ولا أفتعل مدخلا جديدا لدفاعى.. إنى أتكلم بإحساسى كمواطن عادى، يرى فى الجيل الجديد الذى يمثلته هؤلاء الشبان، روحا جديدة، تثير الإعجاب.. جيل له أخطاؤه، ولكنه جيل بطل.. وله نقط ضعفه، ولكنه جيل قوى.. أقوى من ضعفه.

واسمح لى سيادتكم بأن أعرض موضوع القضية بسرعة.. وأقول «موضوع».. ولا أقول «جريمة».
من هم المتهمون ؟

إنهم محمد، وأحمد، وعلى، وحسين.. أربعة من طلبة كلية الهندسة.. أكبرهم فى الثانية والعشرين، وأصغرهم فى

التاسعة عشرة.. محمد هو أول دفعته في كلية الهندسة..
وحسين حصل على تسعين في المائة من مجموع الدرجات في
شهادة الثانوية العامة، ومنح مجانية التفوق.. وأحمد وعلى من
الطلبة الممتازين.. الأربعة ياسيادة القاضي، حاجة تفرح.. ليس
في ماضى واحد منهم مايشينه.. والأربعة تلتف حولهم قلوب
زملائهم، إلى حد أن قامت ضجة في كلية الهندسة يوم بدأ
التحقيق معهم.

وكان الأربعة مجتمعين في بيت محمد للمذاكرة.. عندما
دخل عليهم عمه.. عم محمد.. وطلب أن يتطوع واحد منهم،
ويأخذ سيارته.. سيارة العم.. ويذهب بها إلى بيته في مصر
الجديدة ليعود بالسيدة حرمه.

وقرر الأربعة أن يذهبوا سويا.
فسحة..

وفي شارع رشيد بمصر الجديدة.. والدنيا ظلام.. والشارع
هادئ، خال من المارة.. انحرفت السيارة التي يركبها الأربعة،
وصعدت فوق الرصيف وصدمت الإنسان الوحيد الذي يمر في
الشارع في هذا الوقت.. وقتلته.
قضاء وقدر.

وكان المتهمون يستطيعون الهرب بالسيارة.
لا أحد رأى الحادث.

لا شهود عليهم.. حتى عسكري الدورية لم يكن في مكانه
ليشهد عليهم.

لو أنهم هربوا لما كانوا اليوم واقفين أمام عدالتكم.. ولما
استطاعت قوة في الأرض أن تكتشفهم.
لكنهم لم يهربوا.

■ وسام للمتهم ■

أرجو أن تقدر هذا ياسيادة القاضى.. إنهم لم يهربوا..
ضمائرهم الحساسة النظيفة القوية، لم تسمح لهم بالهرب..
وبالعكس.

حملوا جثة القتيل داخل السيارة، وذهبوا إلى قسم
البوليس.. وسلموا الجثة.. وسلموا أنفسهم.
واعترفوا..

وهنا أيضا لم يكونوا فى حاجة إلى الاعتراف أو على الأقل
لم يكونوا فى حاجة إلى أن ينسبوا الخطأ إلى أنفسهم.. كانوا
يستطيعون أن يقولوا مثلا إن الرجل القى بنفسه تحت عجلات
السيارة.. كانوا يستطيعون أن يقولوا إن الرجل كان يسير فى
منتصف الطريق.. وإنهم استعملوا آلة التنبيه.. وإنهم استعملوا
الفرامل..و..و..إلى آخر المبررات التى كان يمكن أن تعفيهم من
تهمة القتل الخطأ.

ولكن، لا.

اعترفوا بكل التفاصيل.. اعترفوا بأن الرجل كان يسير على
الرصيف وأن السيارة صعدت إليه وقتلته.
ولم يرجعوا عن اعترافهم عندما تولت النيابة التحقيق.. إنها
رجولة ياسيادة القاضى.

رجولة مبكرة، قوية، تعبر عن المعانى الجديدة التى يدين بها
الجيل الجديد.

وإنى اعترف لك الآن ياسيادة القاضى بأنى حاولت أن
أقنعهم بالعدول عن هذا الاعتراف، بدافع الحرص على
مستقبلهم.. حاولت كثيرا.. بلا فائدة.. إنه إصرار عجيب..
إصرار على الصدق.. لا يريدون أن يكذبوا حتى لو كان فى
الكذب سلامة.

ولكن..

من كان يقود السيارة لحظة وقوع الحادث ؟
هنا حدثت المفاجأة.

لا أحد يدري حتى الآن من كان يقود السيارة.. هل هو
محمد.. أو أحمد.. أو علي.. أو حسين ؟!
لقد سئلوا طبعاً، عمن كان يقود السيارة.. فأجاب كل منهم :
- ما عرفش.

كلمة واحدة لم تتغير طوال التحقيق.. ما عرفش !
ولابد أن ضابط البوليس الذي بدأ التحقيق قد جن عندما
واجهوه بهذا الجواب الحاسم.. ما عرفش.. ولابد أن السيد
وكيل النيابة قد بذل كل جهده حتى يأخذ منهم كلمة أخرى غير
كلمة «ما عرفش».. وينتزع السر الكبير من صدورهم.
وقد اتبعت معهم كل طرق التحقيق.

سئلوا مجتمعين في مواجهة بعضهم البعض.. وسئلوا أفراداً.
ولا أريد أن أقول إن المحقق قد استعمل معهم طرق التهديد
الأدبي.. بل استعمل معهم نوعاً من أنواع التعذيب الجسدي،
عندما حبس كلاً منهم حبساً انفرادياً.. وصمم على حبسهم
برغم أن القانون لا يبيح له حق الحبس في هذه الحالة.. ولكن
لا أريد أن أثير هذه النقطة في دفاعي.. لسبب واحد.. وهو أن
المتهمين لا يريدون إثارتها.

وفي مرحلة من مراحل التحقيق، خيل للمحقق أنه وجد
الطريق لمعرفة السائق.. فطلب من الفنيين أن يلتقطوا البصامات
من فوق عجلة القيادة.

أتدري ماذا وجد خبير البصمات يسيادة القاضي.
وجد أن المتهمين قد حرصوا قبل أن يسلموا أنفسهم على أن

يمسحوا البصمات من فوق عجلة القيادة.. ومن فوق الباب المجاور لمكان السائق.. كما هو ثابت فى تقريره المقدم منه .
إذا فموقف المتهمين موقف متعمد.
وهذا الصحيح.

إنى أتصورهم وقد اتفقوا بعد وقوع الحادث، على اتخاذ هذا الموقف، ورفعوا كلمة «ما أعرفش» كشعار لهم.. ثم اتجه بهم ذكاؤهم وهم قطعاً أذكىاء بدليل تفوقهم فى دراستهم.. إلى مسح البصمات من فوق عجلة القيادة.
وقد لجأ المحقق إلى طريقة أخرى.
لجأ إلى آباء المتهمين، وأخذ أقوالهم على أمل أن يعترف أحد منهم على ابن الآخر.
لا.

لم يعترف أحد من الآباء على ابن الآخر.
لا لأن كل أب سما بنفسه عن الوشاية بصديق لابنه.
ولكن لأن أحداً من الآباء لا يعرف حتى اليوم من كان يقود السيارة.. لقد أخفوا السر حتى عن آبائهم.. بل إنى أعرف أنهم أخفوه حتى عن أمهاتهم.
وأنا.

أنا المحامى الذى يتولى الدفاع عنهم، لا أدري اليوم من كان منهم يقود السيارة.. وقد حاولت أن أعرف.. هذا الموقف العجيب وهذا الإصرار، أثارا فضولى إلى حد كبير.. فحاولت أن أعرف.. حاولت كثيراً.. ولم يكن معقولاً أن يخفوا عنى السر لأنهم يثقون فى.. فأنا محاميتهم.. وبرغم ذلك رفضوا أن يفشوا لى سرهم العجيب.. وقال لى محمد وأنا أناقشه :
— لقد اتفقنا على أن ننسى من كان منا يقود السيارة.. وقد

نسينا فعلا.. بذلنا مجهودا نفسيا كبيرا حتى ننسى.. وثق أننى
لا أقاوم الآن الإفشاء بالسر، لأنى نسيته.
يا سيادة القاضى.

لماذا اتخذ المتهمون هذا القرار؟

لأنهم يؤمنون بمبدأ : الكل فى سبيل الواحد، والواحد فى
سبيل الكل.. لأنهم مصررون على ألا يتخلوا عن واحد منهم..
وأن يتحملوا المسئولية معا.
إنهم لا يحاولون التهرب من المسئولية.
لا..

لو أرادوا التهرب من المسئولية، لتركوا القتل فى الشارع
وهربوا.. ولما اعترفوا.. ولكنهم لم يفكروا أبدا فى التهرب من
المسئولية.. كل ما أرادوه هو أن يحملوا المسئولية معا.. أن
يكون الكل فى سبيل الواحد. أن يضحى ثلاثة منهم فى سبيل
واحد.. وكل ذلك بدافع من الرجولة القوية.. وصلابة الخلق..
والشهادة.. والتضامن أمام الخطر.

ولكنهم بموقفهم هذا - دون أن يتعمدوا - خلقوا مشكلة
قانونية.. فنحن أمام أربعة معترفين بجريمة لا يمكن أن
يرتكبها إلا واحد.. وفى الوقت نفسه لا نعرف من هو هذا
الواحد، حتى نحكم عليه.

وقد تخطت النيابة فى مطالبها.

لقد حاولت أن توحى إلى المحكمة بأن محمد هو الذى كان
يقود السيارة، لأنه ابن أخى صاحب السيارة.. وهذا كلام
لا يمكن أن يكون جديا.. فليس هناك ما يمكن أن يسمى «متهما
بالقراية».. ولا تكفى أبدا قرابة محمد لصاحب السيارة حتى
نعتبره الفاعل الأسمى.. مستحيل.. هذا منطق لا يقره القانون

أو العدالة.. أن أى واحد من الأربعة يمكن أن يكون هو قائد السيارة لحظة وقوع الحادث، خصوصا إذا عرفنا أن الأربعة يجيدون القيادة وكل منهم يحمل رخصة قيادة.

ثم حاولت النيابة أن تكيف التهمة تكييفاً آخر.. حاولت أن تعتبر الأربعة فاعلين أصليين.. أى أن الأربعة كانوا يقودون السيارة فى وقت واحد.. وهذا أيضا مستحيل.. هذا إسراف فى الخيال.. ولا أريد أن أقول إنه تعنت فى توجيه الإتهام.. فلا يمكن أصلا وعملا أن يتولى أربعة قيادة سيارة واحدة فى وقت واحد.

ولا أريد أن أرد على الكلام الكثير الذى قاله ممثل النيابة، عن جنون الشباب واستهتارهم.. ومحاولته الربط بين هذا الحادث، وحادث الأتوبيس الذى راح ضحيته عدد من القتلى نتيجة إهمال السائق.. هذا كلام، أعتبره كلاما فى غير موضعه.. ولا يستحق أن يرد عليه.

ولكن هذا لا ينفى أن هناك حادثا قد وقع راح ضحيته قتيل. وأن هناك أربعة معترفين بارتكاب الحادث، الذى لا يمكن أن يرتكبه إلا واحد منهم فقط.. وبما أننا لا نعرف وكلنا عجزنا عن معرفة سائق السيارة لحظة وقوع الحادث.

فإنى واثق أنكم ستحكمون بالبراءة.

ولكن البراءة لا تكفى.

هذا التضامن الرائع بين الشبان الأربعة.. هذه الشهامة.. هذه الصلابة.. هذا الخلق النظيف القوى.. هذه الروح الجديدة التى تنطلق من الجيل الجديد.. ليس بينهم جبان.. ليس بينهم من يتخلى عن زميله.. ليس بينهم من يريد أن يهرب بجلده. كل هذا..

يستحق وساما.

غلطة حبيبى

ليس الذنب ذنبى ..
مؤكد أن ليس لى ذنب فى كل ما حدث ..
لا يستطيع أحد أن يلومنى .. ولا مصطفى .
لقد أحببت مصطفى وأنا أعرف كل ما يمكن
أن احتمله فى سبيل هذا الحب .. أحببته وأنا
مصممة على أن احتمل .. أن أضحي .. أن أجعل من حبه عالمى
الذى أعيش فيه .. لا أريد شيئاً من العالم الآخر .. لا أريد شيئاً
إلا أن أنام وأصحو وحبه فى صدرى .. هادئاً .. مستقراً ..
لذيذا .

وكنت أعلم أن أكثر ما يجب على أن احتمله هو عمل
مصطفى .

صحيح أنى لم أكن أتصور أن يكون مشغولاً بعمله إلى هذا
الحد .. ولكنى استطعت بسرعة أن أعود نفسى على انشغاله
عنى بعمله .. أن أبقى فى انتظاره أياماً .. ثلاثة أيام .. أربعة ..
أسبوعاً .. نلتقى ساعة أو ساعتين وأحادثه فى التليفون

دقيقتين ، وقد يحدثنى خلالهما وهو يقرأ أو وهو يكتب . فلا أتبرم .. ولا أضيق .. أبدا .. أبدا .. لقد كنت سعيدة .. سعيدة حقا .. سعيدة بحبى له . وسعيدة بإحساسى أنى احتمل فى سبيل شىء كبير .. فى سبيل أن أمنح حبيبي النجاح .. وكان ينجح .. كان يخطو خطوات سريعة عملاقة .. كأنه عفريت من الجن يفرض إرادته على المستقبل .

كنت أحس أنى أصنع هذا النجاح .

أحس إنى أمنح حبيبي القوة ليخطو خطواته العملاقة ..

وكانت هذه هى سعادتى ..

سعادتى العميقة .. الحلوة .. السعادة التى أستمدّها من

نجاحه وتفوقه .

ولكن مصطفى لم يكن يصدق .

لم يكن يصدق أنى أستطيع أن احتمله كل هذا الاحتمال ، ثم أكون سعيدة .

وبدأت ألحظ شكوكه كلما التقينا أو كلما تحدثنا فى

التليفون .

كان يسألنى فى التليفون :

– بتعملى إيه ؟

فأرد فى بساطة :

– باشتغل كانفاه .

والحظ الشك والتهكم فى صوته وهو يقول لى :

– برضه .. دى انتى بقالك جمعة ، كل ما أسألك تقوليلى

إنك بتشتغلى كانفاه .

وأتجاهل شكه وتهكمه وأرد قائلة ، وأنا أضحك :

- تصور أنى خلصت نص المفرش فى خمسة أيام .. مش
أنا بطلة والنبي .

ويضحك مصطفى فى تهكم ، يقول :

- فعلا بطلة ..

وفى مناسبة أخرى يسألنى :

- رحتى فىن اليومين دول ؟

وأرد :

- أبدا .. قعدت فى البيت ..

وتطل من عينيه نظرة تضطرب بشكه ويقول فى حدة :

- يعنى قعدتى فى البيت أربعة أيام ماخرجتيش ؟

وأرد وأنا أرفع إليه عينى كأنى أتوسل إليه أن يصدقنى .

- وفيها إيه يا مصطفى .. أنت عارف أنى بأحب البيت .

ويهز مصطفى رأسه ويزفر أنفاسه ، كأنه لا يصدقنى .

ثم ..

يتصل بى فى التليفون ، فيجد تليفونى مشغولا ، فيعود

يتصل بى ويصرخ فى وجهى :

- كنتى بتكلمى مين ؟

وأقول :

- كنت باكلم أختى ..

ويرد من تحت أسنانه :

- لا يا شيخة !!

وأرد وقلبي يرتجف :

- آمال حاكون باكلم مين يعنى !!

ويقول فى تهكم :

- مافيش .. مش ممكن فعلا أنك تكلمى حد إلا أختك !!
وشكوك مصطفى تزاد يوما بعد يوم .. عيناها تزادان
اضطرابا .. وكلماته تقطر بغل مكتوم .. إلى أن قال لى مرة :
- أنا ساعات باكره شغلى علشان خاطرك .. وساعات
باكرهك علشان خاطر شغلى .

قلت له يومها :

- أنا ما اسمحش لك تكره شغلك ، ولا تكرهنى .. لازم
تحبنا احنا الاثنين .. واحنا الاثنين ممكن نستحمل بعض .. أنا
أستحمل شغلك ، وشغلك يستحملنى .

وكنت أحاول أن أريحه من شكوكه .. أن أمسح النظرات
المضطربة عن عينيه .. أن اجعل أنفاسه تنتظم فى صدره .
ولكن كيف .. كيف يا ربى .. كيف أريح حبيبي من شكوكه.
إلى أن صرخ فى وجهى مرة :

- أنا مش ممكن أقدر أصدق أن بنت عندها اثنين وعشرين
سنة تفضل قاعدة فى البيت ، ولا تعملش حاجة إلا أنها تشتغل
كنافاه .. الكلام ده كان أيام ستى .. مافيش بنت اليومين دول
بتعمل كده أبدا .. وبصراحة أنا مش مصدقك .. أنا مش مطمئن.
وقالت والدموع تملأ عينى :

- وتصدقنى إزاي يا مصطفى .. أطمئنك إزاي .. قول لى
أعمل إيه ؟

وقال فى حدة :

- أنا مش ممكن أطمئن عليكى إلا لما ألاقيكى مشغولة ..
مشغولة فى حاجة عارفها .. حاجة جد .. مشغولة بشغل ، زى
ما أنا مشغول بشغلى .

وقلت كأنى أتوسل إليه :

– ما أنا مشغولة يا مصطفى .. مشغولة فى البيت .. وفى الكنافاه .. وفى الراديو .. وفى التليفزيون .. ده أنا عملت سبع مفارش فى ست أشهر .. وإذا كنت عايز مستعدة أسمع لك أغانى الراديو كلها .

قال فى صراخ :

– مش كفاية .. مش مهم أنك تشغلى أيديكى .. ولا تشغلى ودانك .. المهم أنك تشغلى عقلك .

قلت :

– عقلى مشغول بيك يا مصطفى ..

قال :

– ما هو ده الخطر .. طول ما عقلك مشغول بى .. يبقى بتفكرى أنك تقابلينى .. ولما ما تقابلينيش حاتزهقى .. ولما تزهقى ممكن تغلطى .. ممكن تعملى حاجات كتير غير الكنافاه .

وقلت فى استسلام :

– طيب عايزنى أعمل إيه يا مصطفى ؟

قال :

– عايزك تشتغلى ..

قلت :

– اشتغل إيه ؟

قال :

– أى حاجة .. سكرتيرة .. مذيعة فى الإذاعة واللا فى التليفزيون .. أى حاجة .

قلت :

- زى ما يعجبك يا مصطفى .. شغلنى ما طرح ما أنت
عائز.

ولم أكن أريد أن أعمل .
والله العظيم لم أكن أريد أن أعمل .
كنت سعيدة فى البيت .
سعيدة بأشغال الكنفاه .
سعيدة بأغانى الإذاعة وبرامج التليفزيون .
سعيدة وأنا فى انتظار مصطفى ليقابلنى مرة أو مرتين فى
الأسبوع .

ولكن مصطفى صمم .
وأخذنى من يدى إلى التليفزيون .. وقدمنى إلى المختصين
هناك .. وأجروا لى امتحانا .. ونجحت .. أصبحت مذيعة فى
التليفزيون .. مقدمة برامج كما يسموننا .
وانقلبت حياتى كلها .
وانشغلت .

وكان أول ما انشغلت عنه هو مصطفى .. لم أعد أعيش معه
بفكرى وعواطفى أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم .. أصبحت
أعيش معه فترات متقطعة من يومى .. وأرقد فى فراشى كل
مساء فلا أكاد أفكر فيه حتى يغلبنى التعب وأنام .. وأصبحت
أنسى فى زحمة العمل أن أتصل بمصطفى فى التليفون كل
صباح .. وأنسى أن أقرأ له مقالاته التى كنت أحفظها عن ظهر
قلب.

أصبحت مشغولة .
مشغولة ..

ولم يشغلنى العمل نفسه .. ولكن شغلنى أكثر جو العمل ..
شغلت بزملائى الكثيرين الذين يعملون معى فى التليفزيون ..
وشغلت بخطابات المعجبين والمعجبات .. وشغلت بالدسائس
والمقالب التى تدبر فى كل حجرة من حجرات المبنى الكبير .
وبين زملائى كثيرون من الشبان المهذبين الناجحين .
ربما كان أكثرهم تهذيبا ونجاحا ، هو محمود .
وتوطدت الصداقة بينى وبين محمود .
صداقة خالصة .

قلبى لا يزال مع مصطفى .
ولكنى أرى محمود كل يوم .. إنه إما فى مكتبى .. أو أنا فى
مكتبه .

وهو فى حاجة دائما إلىّ .
إن أحلامه الكبيرة تكاد أحيانا تعصف به .. وتكاد تلقيه فى
هاوية اليأس .. وهو فى حاجة إلىّ حتى أقويه على أحلامه ..
حتى أسند شخصيته المهزوزة .. حتى أمنحه القدرة ليخطو
خطوات عملاقة نحو أمله .

ودعانى محمود ليوصلنى إلى البيت بسيارته :
ثم أصبح يوصلنى كل يوم .
بل أصبح يمر علىّ كل صباح ليأخذنى معه إلى مبنى
التليفزيون .

كانت صداقة .
لا أكثر من الصداقة .
ولم يكن هناك شىء أخفيه عن مصطفى .. صرحت له
بصداقتى لمحمود ، وكنت أروى له ما يدور بيننا من أحاديث ..

بصداقتي لمحمود ، وكنت أروى له ما يدور بيننا من أحاديث ..
وكنت أطلعته على مشاكل محمود في العمل ، كما أطلعته على
مشاكلي .

وكنت أعتقد أن مصطفى يفهم حقيقة علاقتي بمحمود ، إلى
أن قال لي مرة :

- شفتي محمود النهاردة ؟

وقلت في بساطة :

- طبعا .

قال وهو يتكلم من تحت أسنانه :

- وطبعا وصلك بعربيته .

قلت :

- أيوه .

وانفجر مرة واحدة صارخا :

- انتي بتشتغلي في التليفزيون ، ولا بتشتغلي في محمود .

قلت في هدوء :

- يا مصطفى .. ما تقولش كده .. أنت عارف أن محمود

صديقي .. أنا ماخبتش عنك حاجة .

وصرخ :

- أنا مش مطمئن للصداقة دي .. مافيش حاجة اسمها

صداقة .. راكبه في عربيته رايحة جاية ، وتقوليلي صداقة !

وقلت وأنا أكثر هدوءا :

- يعني عايزني أعمل إيه ؟

قال :

- عايزك تبطلّي تعرفي اللي اسمه محمود ده .

- مش ممكن يا مصطفى .. ده زميلى .. يعنى أقوله إيه؟
قال :

- قولى له بصراحة إنك بتحبنى واحد تانى .
قلت :

- هو عارف أنى باحب واحد تانى .. وعمر الرجل ما طلب
منى أكثر من صداقة ..
وعاد يصرخ :

- ماتجبلش سيرة الصداقة .. إنتى فاكدة أنى مغفل .. أنا
باشغل زيك .. وعارف الصداقة معناها إيه .. اشمعنى سى
محمود ده اللى مصاحباه .. ما فيه ألف واحد فى التليفزيون .
قلت :

- يا مصطفى خلى عقلك واسع .. يعنى أعمل إيه ؟
وصرخ كأنه يطلق أبخرة كثيفة كان يختزنها فى صدره :
- سيبى الشغل .. ارجعى اقعدى فى البيت .
وتردبت برهة .. كدت أضعف كما تعودت أضعف أمام
مصطفى .. ولكن شخصيتى الجديدة التى اكتسبتها من العمل ،
انتصرت على ضعفى ، وقلت له فى ثبات :
- ما أقدرش يا مصطفى .. مابقتش أقدر أقعد فى البيت .
وقال كأنه صدم :

- كده .. طيب اعملى اللى انتى عايزاه .. سعيدة !
وعشت يوما كاملا أراجع نفسى .
واكتشفت أنى فعلا لا أستطيع أن أعود لأبقى فى البيت .
لا أستطيع أن أستغنى عن عملى فى التليفزيون .
ولا أستطيع أن أستغنى عن صداقة محمود .

■ غلطة حبيبي ■

ومصطفى يلومنى .
أبدا .. لا أستحق لومه .. ليس لى ذنب .. لقد كنت له بكل
دقيقة من عمرى .. وكنت سألقي له بكل دقائق عمرى .
ولكنه هو ..
هو الذى أخرجنى من البيت .
هو الذى أخذنى بيده إلى التليفزيون .
خاف على حبنى له من فراغ حياتى .. فملاً حياتى حتى
لم يعد فيها مكان لحبه !

العقل العبير ..

أكثر ما يضايقنى أن يتدخل الناس فى حياتى
الخاصة.. وأن يصدرُوا علىَّ أحكاماً، ليست من
شأنهم.. لقد حكموا علىَّ أنى بائسة.. مسكينة..
غلبانة.. وتمصص العجائز شفاههن ويهمسن..
يا ميلة بختها.. والنبي دى ضفرها بميت بنت.. ثم يتضحكن
قائلات.. آل بنت آل.

وأنا فعلاً، بنت.

بنت فى الخامسة والثلاثين من عمرى.

وحتى أريح الناس، فإنى أقول فى وجوههم.. إنى عانس.
أنا عانس.

ولكن.

من أدراهم أنى مسكينة، بائسة، غلبانة، وبختى مائل.
لأننا يفترض الناس دائماً أن العانس لابد أن تكون بائسة.

لا..

لست بائسة.

أنا سعيدة.

سعيدة جدا.. أسعد من ثمانين فى المائة من الزوجات اللاتي أعرفهن، واللاتى فى مثل سنى.. وسعادتى نابعة من عقلى. الشعراء، وكتاب القصص، يقولون إن السعادة تنبع من القلب.. لا.. هذا كذب.. خيال.. السعادة تنبع من العقل.. وكما استطاع العقل أن يسيطر على القلب.. استطاع أن يحقق لصاحبه سعادة أكبر.

وكنت - ولا أزال - أعتمد على عقلى فى تنظيم حياتى، وفى تحديد تصرفاتى، بحيث أضمن لنفسى أكبر قدر من السعادة.. إنى أرسم صورة محددة لحياتى.. حياة سعيدة.. لا أعرضها لمجازفة، أو لمغامرة، أو لنزوة، قد تنتهى بنكبة.

الفرق بينى وبين بقية البنات.. أنى لا أبيع عمرى فى نظير لحظات سعيدة.. إن سعادتى دائمة، مستقرة ثابتة.. أما بقية البنات فسعادتهن لحظات من العمر، والباقى شقاء. وأنا لا ينقصنى شىء لأتزوج.

إنى جميلة.. مثقفة.. ذكية.. غنية.. معاشى من المرحوم بابا قدره خمسة وعشرون جنيها فى الشهر. ومنذ كنت فى السادسة عشرة والخطاب يقفون على بابى.. المهندس.. والدكتور.. والضابط.. بل تقدم لى مرة أحد كبار الصحفيين.

وكنت أرفضهم.

أرفضهم، لأنى منذ كنت فى السادسة عشرة، وأنا مقتنعة بأن الزواج فى حد ذاته لا يحقق السعادة.. وأن ليس المهم أن أكون زوجة، ولكن المهم أن أكون سعيدة.

عقلى الكبير استطاع أن يجنبنى الخطأ الكبير الذى تقع فيه البنات المراهقات، عندما يندفعن إلى الزواج.. والفرحة الساذجة تملأ قلوبهن.. الفرحة بالثوب الأبيض والطرحة.. والفرحة

بالدبلة الذهبية.. والفرحة بالزينة والهيصة.. ثم يكتشفن بعد أيام أنهن زفن إلى الشقاء.. ويعشن عمرا شقيا.. لا ينفعن فيه لا الثوب الأبيض، ولا الطرحة.

نعم.. أنا عقلى كبير منذ كنت فى السادسة عشرة.

وليس معنى هذا أن ليس لى قلب.

إن لى قلبا.

قلبا كبيرا أيضا.

وقد أحببت بهذا القلب.. أحببت حسين.

وقد التقيت بحسين، وأنا فى الثانية والعشرين من عمرى.. ومنذ اللحظة الأولى أحسست بتقاهم كبير بينى وبينه.. كان عقلى يتجاوب مع كل ما فى عقله، وأخلاقى تتلاقى مع أخلاقه.. ومزاجى مع مزاجه.. وأحببى حسين.. ربما أكثر مما أحببته.. كان يقضى معى كل دقيقة يستطيع أن يكون فيها مع أحد.

ولكن حسين كان ضابطا بحارا على إحدى المراكب التجارية.. وكان يغيب فى البحر كثيرا.. يغيب شهرا.. ويعود ليبقى معى خمسة عشر يوما على الأكثر.

وبرغم ذلك بقينا على حبنا.

وحبنا ينمو.

ولكنه كان حبا عفا نظيفا.. واستطاع عقلى أن يسيطر على قلبى دائما ليبقى حبى عفا نظيفا.

ليس معنى هذا أنى لم أكن أحس بأنى فى حاجة إلى أن أطلق حبى إلى مدى أبعد.. ليس معنى هذا أنى باردة.. عديمة الإحساس.. ليس معنى هذا أنى حنبلية متزمتة.. أبدا.. كل ما هنالك أنى لم أكن أريد أن أعود نفسى على تصرفات لا أضمن نتائجها.. ولا أضمن مدى حاجتى إليها بعد أن أعود

عليها.. دلتني عقلي على أني لو عودت جسدي على حسين..
لو أطلقت معه غرائزي الطبيعية.. فإنني سأتعذب، لأن حسين
يغيب عني كثيرا.. إنني لا أستطيع أن أكون له ليلة، ثم يغيب
عني ستة أشهر، حتى تعود مركبه.. لا.. لا أستطيع.. إنني قد
أجد نفسي في هذه الحالة معرضة للانحراف.. معرضة لمقاومة
حاجتي الجسدية، وقد لا أستطيع مقاومتها، فأنحرف وأخون
حسين مع رجل آخر.. لا.. لن أعود نفسي على شيء من هذا.
وقد تقدم حسين لخطبتي.

ولكني رفضته.

هل هذا معقول ؟

هل معقول أن ترفض فتاة الزواج من الرجل الذي تحبه؟
معقول جدا، إذا اكتشفت بعقلها الكبير أن حبيبها لا يمكن أن
يحقق لها حياة زوجية مستقرة سعيدة.. وإذا كان في زواجها
به ما يعرض حبها للتلف، والضياح والنكبات.
وقلت كل ذلك لحسين.

قلت له إنني لا أستطيع أن أتزوجه لأن عمله يحتم عليه أن
يغيب عني طويلا.. ثهورا بأكملها.. فلن نستطيع أن نقيم بيتا
سعيدا.. بل قلت له إنني لو تزوجته، وتعودت على أن يكون لي
رجل، فلن أضمن أن أصون نفسي من الانحراف، وهو يغيب
عني مددا تصل إلى عشرة أشهر في العام، ولا يمنحني سوى
شهرين توزع أيامهما على مدار السنة.. وفي الوقت نفسه
فإنني لا أستطيع أن أطلب منه أن يستقيل من عمله، ويضحي
بمستقبله، حتى يقيم معي البيت السعيد.

تناقشنا مناقشة منطقية واقعية.

واقتنع حسين.

وقرر أن يبحث عن عمل له في شركة القناة.. فإني ضباط

البحرية فى القناة لا يسافرون فى أعالى البحار.. إنهم لا يغيبون عن بيوتهم أكثر من ليلة أو ليلتين فى الأسبوع. ولكن حسين لم يوفق فى الالتحاق بشركة القناة، ظل يعمل على مركبه التجارى.. واستطعت أن أقنعه بأن نبقى على حبنا فى حدود إمكانياتنا على ممارسة الحب، والتمتع به.. وإمكانياتنا لا تتعدى هذا الحب الرائع الأفلاطونى.. حب أقرب إلى الصداقة الحلوة الجميلة:

وظل حسين معى بعد أن رفضت الزواج به. ثم سافر بمركبه إلى دول أمريكا فى رحلة طويلة استغرقت ما يقرب من عام. وعاد ليعرض على الزواج مرة ثانية. وصمم فى هذه المرة.

إنه يريد أن يكون له بيت يعود إليه.. ويريد أن يكون له أولاد يفرح بهم.

لا تكن ساذجا يا حسين.. إنك لا تستطيع.. ليس المهم أن يكون لك بيت، ولكن المهم أن يكون لك بيت سعيد.. وليس المهم أن يكون لك أولاد، ولكن المهم أن يكون أولادك سعداء.. وأنت لا تستطيع أن تكون سعيدا إلا فى الحدود التى رسمتها لك.. لا يمكن أن تكون سعيدا فى بيت تخشى فيه زوجتك على نفسها من الفتنة والإنحراف.. ولا أن تكون سعيدا بأولاد يعيشون كل حياتهم بلا أب.. كأنهم يتامى.

ولكن حسين صمم.

وأنا أشفق عليه من تصميمه، وعقلى الكبير يرفض أن يستجيب له.

وذهب حسين وتزوج.

تزوج فتاة أخرى.

إنى واثقة من أننى أسعد من هذه الفتاة الأخرى التى تزوجها.. إنى على الأقل لا أقضى عشرة أشهر فى العام، بإحساس الأرملة، أنتظر أن تعود الحياة إلى زوجى، يوم تعود مركبه إلى الاسكندرية.

وانتهت قصتى مع حسين.

وكنيت فى هذه الأثناء قد قررت أن أكمل دراستى فالتحقت بكلية الآداب قسم اللغة الانجليزية.. وقد منحتنى الجامعة مزيدا من السعادة.. إنى سعيدة.. سعيدة.. وقد تقدم إلى وأنا فى الجامعة ثلاثة من زملائى ليخطبونى.. ومعيد.. ولكن.. لا.. إنى لا يمكن أن أتنازل عن إكمال دراستى.. وفى الوقت نفسه لا أومن بأنى أستطيع أن أكون سعيدة لو تزوجت وبقيت فى الجامعة.. لماذا.. لماذا أقسم نفسى إلى اثنين.. وأعيش حياتين.. ما حاجتى إلى كل هذه الريبة؟ إما أن أكون زوجة وأما.. وإما أن أكون طالبة فى الجامعة. وفضلت أن أكون طالبة.

عقلى الكبير هدانى إلى أن أكتفى بأن أكون طالبة.. ورسم لى عالما محمدا أستطيع أن أكون فيه سعيدة.. وكنيت سعيدة فعلا.

وتخرجت.

واشتغلت فى إحدى السفارات.. بمرتبة خمسة وعشرين جنيها، إذا أضيفت إلى معاش أبى فقد أصبح دخلى خمسين جنيها.

إنى غنية.

إن الإحساس بالغنى سعادة أخرى.
سعادة كبيرة.. واطمئنان.. وهدوء بال.
ثم التقيت ببهجت.

كان بهجت هو حبي الثاني.. وكان يختلف اختلافا كبيرا عن حسين.. فبرغم أنه تخرج من الجامعة واشتغل محاسبا، إلا أنه كان يبدو في حاجة إلى في كل كبيرة وصغيرة.. أصبحت أنا التي أنتقى له ثيابه وربطة عنقه.. وأنا التي أحل له مشاكله مع رؤسائه ومع أمه.. وأنا التي أنتقى له الكتب التي يقرأها.. بل أنا التي علمته كيف يبدو إنسانا محترما كاملا.. مهذبا.

وأحبنى بهجت في وله.. كان عنيفا مندفعاً في حبه.. ولكن عقلي الكبير استطاع أن يسيطر عليه كما يسيطر على.. فلم أندفع معه إلى أكثر من الحدود التي رسمتها لنفسى، والتي أصون بها نفسى من التعود على أن أطلق غرائزى الطبيعية.. دون أن أتأكد من مصيرى.

وطلبتى بهجت للزواج.

وكان يمكن أن أتزوجه.

ولكن.. أمه!

إن بهجت يقيم مع أمه ولا يستطيع أن يتركها.. وهو في الوقت نفسه مقتنع بأنى لن أطيق أن أعيش معها إذا تزوجنا.. إنها شرسة.. جاهلة.. لا يمكن أن تفهمنى.. ولا يمكن أن تعيننى على إقامة بيت سعيد، أسعد فيه.. وحتى لو ضحى بهجت بأمه وقرر أن نقيم أنا وهو بعيداً عنها، فهو سيبقى مسئولا عنها ماديا.. وهو لا يستطيع أن ينفق على بيتين.. بيتى وبيت أمه.. مشكلة لا حل لها.

ماذا أفعل.

هل أجازف وأقنع بهجت، بأن نقيم مع أمه.. ثم أحاول أن أتحمّلها.. أو أحاول أن أخفف من شراستها.. ليه.. لماذا؟.. لماذا أضحى بعالى السعيد، لأقتحم عالماً لست واثقة من سعادتى فيه؟!

عقلي الكبير يرفض هذه المجازفة.. هذا الاندفاع.
ورفضت أن أتزوج بهجت.. واستطعت أن أقنعه بأن نبقي
على حبنا في حدود إمكانياتنا.. حب أقرب إلى الصداقة الرائعة
الحارة.. وسر قوتي هو أنى لم أقبل أبدا أن أنقاد إلى الحب إلى
أبعد من هذه الحدود.

لو أنى اندفعت مع بهجت.. لو أنى تماديت معه بحيث أفقد
سيطرة عقلى على قلبى وعلى جسدى.. فربما قبلت زواجه،
وعشت في جحيم أمه.. يا حفيظ.

وأنا الآن في الخامسة والثلاثين من عمري.
عانس.

ولكنى سعيدة.

سعيدة أكثر من سعادة ثمانين في المائة من الزوجات
اللاتى في مثل سنى.

وسعادتى تنبع من عقلى، لا من قلبى، ولا من جسدى.
أقدرى ما يقوله الناس؟

إنهم يقولون إنى لم أتزوج حتى لا أفقد معاش أبى.
أبدا والله العظيم.

لا تصدقهم.

إنه معاش كبير.. خمسة وعشرون جنيها في الشهر..
ثلثمائة جنيه في العام.. إيراد خمسة عشر فدانا.

ولكن لا تصدق الناس.

أرجوك.

إنى سعيدة.

وهذه الدموع.. هى دموع سعادتى.. وفرحتى بعقلي الكبير.

أزمة المثقفين ..

عطيات.. عزيزتى..
وكان يجب أن أناذك : «زوجتى العزيزة»..
ولكن، لا.. سواء كنت زوجتى أم لم تكونى.. فأنت
دائما : عزيزتى، أنت دائما، عطيات العزيزة. □

لقد كذبت عليك يا عزيزتى..
أنا لم أسافر إلى الأسكندرية لأتم بحثى عن البيروقراطية
كما قلت لك.. أبدا، البحث قد تم وستفاجئين به منشورا فى
الجريدة غدا.

لم أسافر إلى الأسكندرية إلا لأكتب لك هذا الخطاب..
منذ متى وأنا أريد أن أكتب إليك؟
منذ سنتين.

ربما قبل أن ينقضى شهر العسل.. عسلنا!
وكنت طول هذه المدة أتردد فى الكتابة إليك، لأنى كنت فى
كل يوم أكتشف فى نفسى شيئا جديدا أريد أن أطلعك عليه..
ثم لأنى لم أكن قد وجدت القرار الذى يجب أن أنتهى إليه بعد
أن أطلعك على نفسى.. فلم يكن الأمر سهلاً.. أبدا ليس سهلاً

أن أحاول اكتشاف أغوار نفسي، وأن أكتشف الروابط بين
عقلي الباطن وعقلي الصاحي، ثم أكتشف الخيط الذي يربط
بين ثقافتى وبيئتى.. لأنتهى من كل ذلك إلى القرار الذى يحدد
مصيرى ومصيرك.

وقد انتهيت إلى القرار.

أمس فقط انتهيت إليه .

أرجوك.. لا تجرى فوق السطور بسرعة حتى تصلى إلى
معرفة هذا القرار.. أرجوك.. أنا فى حاجة لأن تقرئ كل سطر
من سطور خطابى وكل كلمة، بإمعان.. بكل عقلك.. فلا تجرى..
وسأطلعك على القرار منذ الآن، حتى لا تجرى.

القرار هو : أنت طالق.

نعم يا أعز الناس.. طلقتك!

هل صرخت؟

هل بكيت؟

هل غضبت؟

أرجوك يا عطيات.. فلم يكن بيننا أبدا صراخ، ولا بكاء،
ولا غضب.. لقد اختلفنا كثيرا من قبل، وتعودنا أن نناقش
خلافاتنا بالمنطق.. بالعقل وحده.. وكانت ثقافتى وثقافتك
تحمينا دائما من العواصف النفسية التى يتعرض لها السوق
الذين لا تعينهم ثقافتهم على الوصول إلى أغوار النفس.. إلى
البؤرة التى تنطلق منها العواصف، حتى يسيطروا عليها.

إنى أكتب لك هذا الخطاب بثقافتى.

فإن أى قرار مهما بلغت قسوته، يخفف منه الفهم.. وأنا
أريدك أن تفهمينى، كما فهمت نفسى، حتى لا تتهمينى
بالقسوة.. وحتى لا تعرضى نفسك للإحساس بالظلم.. وميلة
البخت.

والآن.

الأسباب.

أسباب القرار الذى انتهيت إليه.

إن من حقلك أن تعرفى هذه الأسباب بتفاصيلها.. ولكى أطمئنتك.. أؤكد لك منذ الآن أنها ليست أسبابا متعلقة بك.. أنت زوجة فاضلة.. أنت خير الزوجات.. أنت عصارة ما فى الحياة من غذاء.. غذاء الروح، وغذاء العقل، وغذاء الجسد.. أنت مشبعة ولكن الأسباب كلها متعلقة بى أنا.. أنا الذى كنت أخوض المعركة وحدى.. وكان يجب أن أكون أنا الذى أتخذ القرار.. وحدى أيضا.

وسأضطر أن أعود إلى الوراء سنوات حتى لا تحتارى فى فهمى.. سأمر بسرعة.. فإن معظم أحداث حياتى تعلمينها، وإن كنت لم تفكرى فى ترتيبها، ترتيبا مسلسلا بحيث تصل بك إلى قرار بالطلاق.

لقد تركت قريتنا فى مديرية قنا لألتحق بالجامعة وأنا فى السابعة عشرة من عمرى.. وكانت نقلة كبيرة بين حياة القرية، وحياة القاهرة بالنسبة لى.. نقلة لم يسبقها إعداد نفسى، ولا إعداد عقلى.. وبهرت.. وبقيت ثلاث سنوات مبهورا.. والبهرة تشل كل إنطلاق يمكن أن يندفع فيه شاب فى مثل عمرى.. كانت بنات الجامعة والنساء اللاتى أراهن فى شوارع القاهرة، مخلوقات غريبة بالنسبة لى.. غريبة بالنسبة لأمى التى لا تخرج من بيتها، إلا وهى مختفية فى زعبوط يخفى حتى عينيها.. وغريبة بالنسبة لأختى التى حجزت بجانب أمها منذ كانت فى السابعة، ولم تخرج من دارنا إلا إلى الدار الأخرى.. أقصد، دار زوجها.. وغريبة بالنسبة لزيينة.. الفتاة التى ذبحها شقيقها لأنها أطلت على ابن عمها مكشوفة الوجه.

ولكن هذه أنجهره.. وهذه الغربية.. بدأت تخف شيئا فشيئا.. ومنذ أصبحت فى السنة الثالثة بكلية الآداب، بدأت أختلط بالبنات، وبدأت أجهد نفسى فى أن أبحث عن مبررات منطقية لتصرفاتهن مع الأولاد.. وبدأت كثير من هذه المبررات تتسرب إلى منطقتى.. وأصبحت أذهب مع البنات إلى الرحلات الجامعية دون أن أفقد احترامى لهن.. وأصبحت أرى الواحدة منهن ترتدى بنطلونا يبرز كل قطعة من جسدها، ودون أن أفقد اقتناعى بها.

والواقع أن سرعة اقتناعى بتصرفات البنات، كانت تصحبها سرعة فى تحررى من إحساسى بالمسئولية عن المجتمع كله.. وعن مجتمع الجامعة بالذات.. كان إحساسى الفردى قد بدأ يطغى على إحساسى بالمجتمع.. وإحساسى بمسئوليتى عن نفسى بدأ يسبق مسئوليتى عن الناس وبنات الناس.. بدأت أقبل البنات كما هن، ما دام هذا لن يتسبب لى فى خسارة.. وما دمت لست مسئولا عن واحدة منهن.

أقول لك هذا، لترى الفرق بين الاقتناع والإحساس.. فالذى تغير فى هذه الفترة ليس اقتناعى، ولكنه إحساسى.. نتيجة تغير المجتمع الذى أعيش فيه.. ففى قرينتنا كان إحساسى يشمل القرية كلها.. ولكن هذا الإحساس تقلص فى القاهرة، إلى أن أصبح إحساسا فرديا.

وقد كان لى فى نهاية سنوات الجامعة، والسنوات التى أعقبتها، علاقات مع بنات كثيرات.. لم أحب.. بمعنى الحب الذى عرفته معك.. ولكنها كانت علاقات تستطيعين أن تسميها صداقة متحررة.. تصل إلى حد تبادل القبلات، وأكثر من ذلك قليلا.. وكنت أقبل هذه الصداقات أيضا بإحساس اللامسئول.. اللامبالى.. وكان هذا الإحساس يترك على ذهنى غلال رقيقة،

أبدو بها كأنى مقتنع بهذا النوع عن العلاقات، وهذا النوع من البنات.. ولكنه لم يكن أبدا - كما اكتشفت أخيرا - اقتناعا أصيلا.

ثم.

سافرت إلى باريس كما تعلمين، لأعد رسالة الدكتوراة. وقد سافرت وأنا أرسم لنفسى عن باريس صورة العاصمة الإباحية، المنحلة، المتهتكة.. ولم تستطع قراءتى الكثيرة عن عظمة الأدباء الفرنسيين أن تخفف من هذه الصورة.. فقد كان يخيّل إلى دائما أن هؤلاء العظماء ليسوا واقعا.. إنهم تاريخ.. إنهم فى السماء.. أما باريس فهى مدينة منحلة، بلا عظماء، وبلا مبادئ.

ولكن عندما عشت فى باريس بهرت بثقافتها.. إن ثقافة باريس، وجديتها، وكفاحها فى سبيل رقى العقل البشرى، أمر واقع.. ليس تاريخا.. إنه واقع باريس.. إن الثقافة على الأرض.. وفى المقاهى.. وفى البيوت.. وفى عقول كل البنات.. حتى العاهرات.. فإذا كان هذا الواقع الثقافى هو الذى فرض مظاهر الانحلال على باريس.. فلا يمكن بعد هذا أن يسمى انحلالا.. أبدا.. هذا الذى يسميه الناس انحلالا، ليس سوى انتصار العقل.. انتصار الثقافة.. إنه التقدم الذى يصنعه الإنسان.

واقتنعت بباريس.

بكل ما فى باريس.

وانتهيت من الدكتوراة فى خلال عامين.. نلتها مع درجة الشرف.. ولكنى بقيت فى باريس لأعد دكتوراة أخرى. وتزوجت كما تعلمين.

تزوجت زميلتى فى الجامعة.. فرانسواز.

ولم تكن فرنسواز عذراء.. عرفت أنها ليست عذراء من قبل أن أتزوجها، وبرغم ذلك تزوجتها.. لم أفكر لحظة واحدة في أنها ليست عذراء.. إن ثقافتى رفعتنى كثيرا فوق هذه التوافه.. عذراء.. ماذا يعنى أن تكون الفتاة عذراء أو ليست عذراء.. لا شىء.. لا شىء بالمرّة.. ولم يكن هذا الموضوع قط مثار نقاش بينى وبين فرنسواز.. ولا حسب أحدنا حسابه.. لم أحس أنها نقصت حقة، لأنها ليست عذراء.. أبدا.. أبدا.. ليس هناك ما أعانيه لا فى عقلى ولا فى إحساسى.. وكل ما عرفته عن فرانسواز أنها كانت تحب شابا قبل أن تلتقى بى، ثم هجرته.. وبرئت من حبه.. وحتى هذا لم يثر فى أدنى تردد فى الزواج بها.. لماذا.. إن من حقها أن تحب.. لم يكن معقولا، ولا منطقيا أن تبقى حتى تلتقى بى وهى فى السابعة والعشرين من عمرها، دون أن تحب.. دون أن يكون فى حياتها رجل. وقضيت معها ثلاث سنوات من أسعد سنوات عمرى. إنى لم أنكر سعادتى معها، عندما حدثتك عنها. ثم.

ماتت فرنسواز.. فى حادثة.

ولم أناقش موتها.. فمناقشة الموت جدل سفسطائى.. والحزن على الموت حزن عقيم.. سخيّف.. تنطلق إليه العواطف الجاهلة.. لا العواطف المثقفة.. ولكنى ناقشت وحدتى بعدها.. وتعذبت بوحدتى.. وحزنت لوحدتى.. ليست وحدة جسدى، ولكن وحدة عقلى، ووحدة روحى ومزاجى وثقافتى.. فقد كانت زميلة روحى، وزميلة مزاجى.. وزميلة ثقافتى. وعدت بعدها إلى القاهرة.

عدت ومعى باريس.

باريس فى عقلى، وفى قلبى.

■ أزمة المثقفين .. ■

وقررت أن أشتغل فى الصحافة حتى أفيد بثقافتى عددا أكبر من طلبة الجامعة.. حتى أساهم فى رفع المستوى الثقافى بين أهل مصر.. حتى أنتشلهم من أحاسيسهم الجاهلة، وأخرجهم من وراء قضبان المنطق العتيق الذى يحبس أفكارهم، ويحبس أحاسيسهم، ويحرمهم من متعة الانطلاق فى عالم أوسع وأرقى.. أوسع من الأسوار البالية التى أقاموها حولهم، وأرقى من التفاصيل الصغيرة التافهة التى يعيشون فيها. إلى أن قابلتك.

وكانت ثقافتك أرقى بكثير من الشهادة الجامعية التى تحملينها.

ولا أزال أذكر أول كتاب قررنا أن نقرأه معا.. لقد قررنا أن نعيد قراءة كل أعمال جان بول سارتر.. ويعيد كل منا تقييمه لها.. ولا أزال أذكر التعليقات التى كنت تتركينها على هوامش الكتب التى أقرأها بعدك.. كانت تعليقاتك كأنها تسجيل لأرائى.. كأنك تتلمذت على يدى.. لقد ارتبطت بك ثقافيا قبل أن ترتبط بك عاطفيا أو جسديا.

ولم يكن لجسدينا دور فى هذه الفترة.. لا أدري، هل عن تعمد منك.. أم لأن ظروف لقائنا لم تكن تتيح لنا التعبير عن حاجة جسدينا.

المهم.

لقد عرضت عليك الزواج، ولم أكن قد قبلتك أكثر من ثلاث مرات.. واحدة فقط على شفقتك.

وترددت أنت قليلا، ومرت سحابة قاتمة على عينيك، ثم قلت :

- دعنى أفكر؟

ودهشت.. فvim تريدin التفكير.. إذا كنا قد ارتبطنا ثقافيا إلى

هذا الحد، وأدى بنا الارتباط الثقافى إلى ارتباط عاطفى.. فماذا
بقى لتفكرى فيه.

وقلت لك فى دهشة :

- تفكرين فى ماذا ؟

ونظرت إلى طويلا.. نظرة ملؤها الحيرة.. وقلت وصوتك
ينضح بالعذاب :

- أريد أن أقول لك شيئاً.

قلت والدهشة تستبد بى :

- ماذا ؟

قلت وأنت تحنين رأسك :

- إنى لست عذراء.

وأذكر ساعتها أنى ضحكت ضحكة كبيرة، وقلت :

- وماذا يعنى هذا؟

قلت :

- ألا يعنى هذا شيئاً؟

قلت وآثار ضحكى بين شفتى :

- لا.. لا يعنى شيئاً.

ولكنى عندما أجبتك، قفز فى رأسى شىء لم أكن أتوقعه.

كأنى تذكرت فجأة أنى فى مصر، ولست فى باريس.. نعم..

طوال هذه الشهور التى مضت منذ عدت من باريس.. أكثر من

عام.. لم أتنبه إلى أنى أصبحت أعيش فى مصر لا فى باريس..

لم أتنبه إلا عندما صرحت لى بأنك لست عذراء.

إن فرانسواز لم تصرح لى بأنها ليست عذراء - لم تكن

تعتقد أن هذا شىء يستحق أن تصرح به إلى.

إن فرانسواز.. باريس.

وأنت.. القاهرة.

■ أزمة المثقفين .. ■

وقد صممت أنت يومها على أن تروى لى قصة وكيل مكتب والدها الذى اعتدى عليك وأنت فى الثانية عشرة من عمرك.. وكيف أن أحدا لا يعلم بخبر هذا الاعتداء.. لا والدك.. ولا أمك.. لا أحد يعلم أنك لست عذراء سوى وكيل المكتب.. وأنا. ولم أكن أريد أن أسمع قصصك.. ولم يكن يهمنى أن أسمعها.. سواء كان الرجل قد اعتدى عليك، أو أنك كنت قد استسلمت له بإرادتك.. فهذا لا علاقة له بنا.

وقد عدت تقولين، كأنك تصرين على إقناعى :
- كنت أستطيع أن أخفى عنك كل هذا.. وكنت أستطيع أن أجرى عملية جراحية تجعل منى عذراء مزيفة، حتى لا تكتشف شيئا بنفسك.. ولكنى فضلت أن أطلعك على الحقيقة ما دمت تريد أن تتزوجنى.
وأجبتك :

- إنك تتكلمين كالجاهلات.. كأنك فتاة قروية.. ماذا يعنى كل هذا الذى تقولينه.. لا يعنى شيئا أبدا.. إنى أريدك كما أنت.. بتجاربك.. إن هذه التجارب هى التى كونت الشخصية التى أحبها.. ثم إنك تنسين أنى إنسان مثقف.. وأنى عشت فى باريس.

وابتسمت أنت ابتسامة مسكينة.

ثم وافقت على الزواج.

ولكنك بعد أن تركتني.. وجدت نفسى يومها أتعرض لتيارات ذهنية كأنها تهب على من عالم سحيق.. بعيد.. عالم ظننت أنى تحررت منه.. هربت منه على أجنحة ثقافتى.. ووجدت نفسى، برغم إرادتى أناقش موضوع الفتاة العذراء من جديد.. كأنه موضوع فوجئت به.. وأخذت أقنع نفسى كأن فى داخلى تلميذا يتلقى المبادئ الأولى للفكر المتحرر.. قلت

لنفسى إن حرية الجسد لا تختلف بين المرأة والرجل.. وقلت
لنفسى إن الفتاة التى فقدت عذريتها ليست أقل شرفا من الفتاة
العذراء.. الشرف لا يمكن أن يعلق على قطعة واحدة من
الجسد، ثم نترك باقى الجسد حرا يفعل ما يشاء، دون أن يفقد
شرفه.. وقلت إن الشرف هو شرف الروح، والعقل.. شرف
الضمير.. وشرف الكلمة.. وقلت إن المرأة ليست زجاجة
مسدودة بالشمع الأحمر، مكتوب عليها : «لا تفتح إلا بمعرفة
الزوج».. قلت لنفسى كلاما كثيرا.

وكان عقلى مقتنعا طبعاً بهذا الكلام.

ولكن بقى فى نفسى شىء يقلقنى.

وأصارحك اليوم بأنى تزوجتك كنوع من التحدى لهذا
القلق.. تحدى نفسى.. تزوجتك لأنصر ثقافتى على هذا المجهول
الذى يعيش داخلى ويقلقنى.

وكننت واثقا أن ثقافتى ستنتصر فى النهاية.

ولكنى منذ اليوم الأول لزواجنا.. ربما بعد أن التقى جسدانا
لأول مرة، مباشرة.. اكتشفت أن الأمر بالنسبة لى ليس سهلاً
كما كنت أتصور.. وأن ثقافتى قد لا تنتصر.. فقد وجدت
نفسى ساعتها أتمنى لو أنك كنت عذراء.. إنى لا أعرف ما هو
الفرق الحسى أو العاطفى الذى يمكن أن أشعر به لو أنك كنت
عذراء.. فلم يكن لى من قبل فتاة عذراء.. ولكنى وجدت نفسى
أفكر فى هذا الرجل الذى اغتصبك وأنت صغيرة.. ولم أكن
أشك فى قصتك التى رويتها لى.. لم يخطر على بالى أنك كذبت
على.. أو.. لم يكن هذا يهمنى.. سواء صدقتك أو كذبتك.. كان
كل ما يهمنى أن هناك رجلاً آخر أخذك قبلى.. وأخذك بلا
زواج.. وكننت أتصور هذا الرجل.. أتصوره بشعاً كريهاً، ثم
أشعر بكراهية عنيفة نحوه.. ثم أشعر بهذه الكراهية تدفعنى

إلى التفكير فى ارتكاب جريمة.. أريد أن أقتله.. نعم.. أريد أن أقتل.. تماما كأي فلاح من قريتنا يكتشف ليلة الزفاف أن زوجته ليست عذراء.. أنا.. أنا.. أنا الذى أحمل فى عقلى وفى ضميرى كل هذه الثقافة.. الكنوز الهائلة التى تحوى كل مستقبل الإنسان.. أنا.. أفكر كفلاح قريتنا.

ولكن فرنسواز أيضا لم تكن عذراء.
وحاولت أن أقنع نفسى بأنك كفرنسواز.
وحاولت أن أقنع نفسى بأنى ما زلت فى باريس.
ولكن، لا.

مستحيل.

أنت عطيات.. ليست فرنسواز.

وأنا فى القاهرة.. لست فى باريس.

ولكن ما هو الفرق ؟

لماذا أمنح فرنسواز حقوقا، لا أستطيع أن أمنحها لك بنفس البساطة؟

لماذا لا أكون فى القاهرة، كما كنت فى باريس؟

فكرى معى.

لماذا ؟

ربما لأن جذورى تمتد فى مصر إلى بعيد.. إلى جد جدى.. إلى آخر أجدادى.. وليس لى جذور فى باريس.

وربما لأن المجتمع الذى كان يحيط بى فى باريس يختلف عن المجتمع الذى يحيط بى فى القاهرة.. إنى لا أستطيع أن أرى الجلايب فى الشارع، وباعة الترمس، ثم أتصور نفسى فى باريس.. وقد كنت فى باريس أساير مجتمعتها حتى فى تقاليده.. وأستسلم له.. ولكنى - وأنا فى القاهرة - لو فعلت ما كنت أفعل فى باريس، وآمنت بما أمنت فى باريس، فإنى

لا أستسلم للمجتمع، بل أتحداه.. وأنا لا أستطيع أن أتحدى المجتمع.. ثقافتى لا تمنحنى القوة الكافية لأتحداه.

وربما.. ربما لأنى لا أشعر بمسئوليتى عن مجتمع باريس.. ولكنى أشعر بمسئوليتى عن مجتمع مصر.. فلم يكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل باريس، ولكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل مصر.

وربما لأن فرانسواز عندما فقدت عذريتها، لم تفقدها وهى تحس أنها ترتكب خطيئة.. أما أنت فقد اعتبرت نفسك ضحية.. واعتبرت نفسك موصومة بالخطيئة.. وربما.. وربما.. عشرات «وربما».. والمعركة تشتد فى داخلى.

وقد اكتشفت أثناء هذه المعركة أنى تنازلت عن كثير من منطق ثقافتى التى تلقيتها فى باريس.

لقد كنت فى باريس أعجب بفن الليدو والفولى برجير.. الفن العارى.. وكان الجسد العارى فى نظرى ليس كشفا عن عورة، ولكنه تعبير عن جمال.

ولكنى عندما عدت إلى مصر كتبت دون أن أدري مقالا أهاجم فيه نجمة سينمائية كشفت عن ساقىها فى أحد أفلام.. وكنت فى باريس أقرأ لسارتر.. وألبرتو مورافيا.. وتنسى وليامز، دون أن أحس بأن أحدا منهم قد خدش ناموس الأخلاق وهو يكتب ويصف المشاهد الجسدية، بصراحة، ولكنى بعد أن عدت إلى مصر أصبحت أصيب كل لذة قلمى على أى كاتب يدمج فى إحدى قصصه مشهدا جنسيا.. و.. و.. تحولات كثيرة.. أو هى انحرافات طرأت على منذ عدت من باريس، وكان أقواها أنى أحاسبك بينى وبين نفسى، لأنك لست عذراء. والمعركة التى تدور فى صدرى لا تريد أن تسكت.

ويوما بعد يوم أفقد ثقّتي في نفسي.. وفي ثقافتى..
وبدأت أشعر بأنى منافق كبير.. وأنى أضحك على الناس
بهذه الشهادات التى أحملها.. بأنى لست مثقفا.. عقلى ليس
مثقفا، وقلبى ليس مثقفا، وإحساسى ليس مثقفا.. الثقافة فى
ذاكرتى فقط. كأنى مقرئ من مقرئى القبور، أحفظ آيات
القرآن وأتلوها مائة مرة فى اليوم، ولكنى لا أعمل بها،
ولا أحس بها.

وقد لاحظت أنت شرودى الدائم.. ولاحظت القلق المرتسم
دائما فى عيني.. وحاولت جهدك أن تخفى عني، ولكنك
لم تستطيعي لأنك لم تكوني تدريين سبب هذا الشرود وهذا
القلق.. وربما لاحظت أيضا أنى بدأت أتردد كثيرا على قريتنا
فى الصعيد .. كنت أذهب إلى هناك وأجلس بجانب أمى،
وأستريح.. أستريح من ثقافتى.. وأشعر أنى فى مكانى.
أدريين.

لقد اكتشفت أن كل هذه الثقافة التى أحملها، ليست سوى
كتاب أضعه فى جيبى، وأخرجه كلما أردت أن أستعين به فى
كتابة مقال الجريدة.. كل هذه الثقافة ليس لها أثر فى منطقى،
ولا فى نفسى.. إنها شئ اشتريته.. ووضعته فى جيبى.

وهزمت أمام نفسى.

وكان يجب كى أستريح أن أفعل ما كان يفعله جدى.

أن أطلقك.

فأنت لست فرنسواز.

أنت عطيات.

فرنسواز كان من حقها ألا تكون عذراء.

أما أنت.. فلا.

حبیبی أصفر منى ..

أنا زوجة طلقت ثلاث مرات.
إنهم ليسوا ثلاثة رجال.. ولكنه رجل واحد
طلقنى ثلاث مرات.
طلقنى.. لا.. أنا التى كنت أطلب الطلاق فى كل
مرة.

وكننت أحبه.. ولكن حبی كان یصطدم بکرامتى.. وکرامتى
كان یجرحها إصراره على أن یقضى لیلتين من کل أسبوع مع
أصدقائه.. وأصدقائه کلهم عزاب.. هذا الصنف المستهتر من
الشبان.. وأكثر من مرة ضببت أثرا من آثار لهوه مع
أصدقائه.. آثار أحمر شفاه فى منديله.. آثار بودرة فوق
قميصه.. ودائما أضبط هذه الآثار فى صباح اللیلتین اللتین
یقضیهما مع أصدقائه.

وحاولت أن أبعده عن أصدقائه.. فلم أستطع.. حاولت أن
أقنعه بألا یسهر وحده.. فلم أستطع.. ثم طالبت أخيرا بأن
یکون لى الحق فى أن أسهر وحدى خارج البيت فى اللیلة التى

يسهر فيها.. لم لا.. إنى أومن بالمساواة.. أنا موظفة مثله..
وأكسب مثله.. فلماذا لا يكون لى نفس الحقوق التى يمنحها
لنفسه.. ولكنه كان يرفض.. ويصر على أن أبقى فى البيت
وحدى.

وكنت أستطيع أن أخونه كما يخوننى.. أن ألهو مثل لهوه..
ولكنى لم أفعل أبدا.. كنت أشعر بالتقزز كلما تصورت نفسى
لرجلين فى وقت واحد.. جسدى يقشعر بمجرد أن أتخيل رجلا
آخر يلمسنى غير زوجى.

لم أخنه.. ولكنى طالبت بالطلاق صونا لكرامتى.
وطلقنى.

قضيت ستة أشهر وأنا مطلقة.. وبرغم ذلك لم أحاول أن
يكون لى رجل آخر.. أبدا، لم أحاول، رغم كل الإغراء الذى
يحيط بكل شابة مطلقة جميلة.. كنت أعتبر نفسى فى كل يوم
من الشهور الستة، كأنى مازلت زوجته.. برغم الحرمان
الشديد الذى كنت أعانيه.

ثم أعادنى إليه.

وعدنى أن يغير من نفسه.

وعدت إليه.. ملهوفة إليه.

ولكنه لم يف بوعده.

عاد كما كان.

وقاومت الصراع الذى اشتعل من جديد بين كرامتى
وحبى.. قاومت طويلا.. إلى أن غلبتنى كرامتى.. فطلبت الطلاق
مرة ثانية.. وطلقنى.

وعشت مطلقة سنة كاملة.. لم أحاول أيضا أن يكون لى
خلالها رجل آخر.. بل لم أحاول أن أتزوج.. اعتبرت نفسى أنى

لا أزال زوجته.. وتحملت الحرمان القاسي.. وكنت أضحك على نفسي عندما تشدد بي قسوة الحرمان، وأتخيل أن زوجي مسافر.. وأنه سيعود.. ويجب أن أحتمل إلى أن يعود.. وقد عاد.

أعادني إليه.. وأسرعت عائدة تحت ضغط عذاب الحرمان.. لم يكن الحب وحده هو الذي أعادني.. ولكنه الحرمان الطويل المر.. و وعد.

ولكنه أيضا لم يف بوعده.. وقد فكرت في هذه المرة أن أخونه، حتى أتخلص من الصراع بين حبي وكرامتي.. ولكني اكتشفت أن الخيانة الزوجية ستفقدني الاثنين.. الحب، والكرامة.. وخير لي أن أحفظ بأحدهما.. واخترت أن أحفظ بكرامتي.. وطلبت الطلاق.. وطلقتني للمرة الثالثة.

هذه المرة أصبح الأمر مختلفا.. فإني لن أستطيع أن أعود إليه إلا بمحلل.. رجل آخر يتزوجني قبل أن أعود إليه.. فهل أستطيع أن أتزوج رجلا آخر.. لا.. لا أستطيع إذا كان الزواج مجرد أن أعود لزوجي الأول.. لا أستطيع حتى إذا كان هذا «المحلل» رجلا صوريا.. مجرد إجراء رسمي على الورق.. أحس أنني سأظل موصومة بهذه الورقة الرسمية إلى الأبد.. إذا لم تترك أثرا على جسدي، فإنها ستترك أثرا على إحساسي.. على كرامتي..

وبرغم ذلك، بعد أن مرت الشهور.. شهور الحرمان.. بدأت كرامتي تلين.. وبدأت أتصور أنني أستطيع أن أقبل على نفسي إجراء «المحلل».

ولكن زوجى لم يعد إلى.

سافر.

سافر إلى بعيد.

وبدا الأمل يذوب.. وبدأت أحس أنى أنتقل إلى عالم آخر..
عالم ليس فيه الرجل الذى كان زوجا لى.. وليس فيه
أصدقاءه.. وليس فيه أهله.. وليس فيه بيجامته المخططة..
ولا فمه المفتوح الذى يتثائب به كل صباح.

وقد انتقلت فعلا إلى عالم جديد.. مجتمع جديد يضم
زميلاتى وزملائى فى العمل.. وأصدقاء جدد.. وجوه جديدة..
وعادات جديدة.. وأصبحت أخرج فى رحلات.. وأسهر سهرات
بريئة.. سهرات ثقافية.

ولكنى بقيت دائما السيدة الفاضلة.

لم أخطئ أبدا.

ولم أفكر فى الخطأ إلا بعد أن عرفت صلاح.

كان صلاح إنسانا رقيقا.. مهذبا.. فنانا.. مثقفا.. وقد
شعرت به منذ أول لقاء لنا، كما لم أشعر برجل آخر ممن
يحيطون بى.

واحترت فى بادئ الأمر فى تفسير شعورى نحوه.. فهو
مختلف عن زوجى الأول.. مختلف عنه فى كل شىء.. زوجى
الأول لم يكن رقيقا، ولا مهذبا، ولا فنانا.. كان عنيفا، ماديا،
يسيطر على جسدى أكثر مما يسيطر على روحى.. وكنت
أحبه.. فكيف أحب رجلا آخر مختلفا عنه.

وبددت الأيام حيرتى.

إنى أحبه.

أحب صلاح.

ولكن.. ماذا أفعل بهذا الحب..
إن صلاح أصغر مني بأربع سنوات.. ولا يمكن أن أتزوج
رجلا يصغرني بهذا الفارق الكبير..
وصلاح يريد أن يتزوجني..
لا..

لن أتزوجه.

لو تزوجته فسأصدم في زواجي الثاني أكثر مما صدمت
في زواجي الأول.. لقد كانت مصيبتى في زواجي الأول أن
زوجي كان يكبرني بعام واحد.. فماذا يحدث إذا كان يصغرني
بأربع سنوات.. إنى واثقة أن صلاح سيشعر بفارق السن بعد
اليوم الأول من الزواج.. إنه يقول الآن إن فارق السن لن يكون
له أثر.. ولكن هذا كلام يقوله قبل الزواج.. وكل الرجال يقولون
قبل الزواج ما لا يقولونه بعد الزواج.

لا لن أتزوج.

إنن ماذا أفعل.

هل أكون له بلا زواج؟

مستحيل.

لقد مضى على علاقتي به أكثر من ستة أشهر دون أن
أمنحه نفسى.. ولم يكن هذا سهلاً على.. أبدا لم يكن سهلاً..
إنى أعانى من كل دقيقة فى عمرى.. فى كل دقيقة أريده.. كله..
وفى كل دقيقة أقاوم ما أريد.. وأضغط على أعصابى لأحتمل
الحرمان.. الحرمان القاسى.. حرمان تشدد قسوته كلما نظرت
فى عينيه المتلهفتين إلى.. وكلما لمحت شفتيه الظامئتين إلى
شفتي.. وكلما لمست يده الساخنة يدى المرتعشة.. وكلما احتكت
كتفه المزدحمة بقوته بكتفى المحرومة.

وبرغم ذلك.

قاومت.

قاومت لأنى كنت أعلم أنى لو أصبحت لصلاح بلا زواج،
فسيكون سهلا على بعد ذلك أن أكون لأى رجل بعد أن يتركنى
صلاح.

خير لى أن أتعود على حرمان جسدى، من أن أتعود على
ابتذال جسدى.

لا يا صلاح.. لنبق أصدقاء.

واضطر صلاح أن يكتفى بصداقتى.

كنا نخرج سويا كل يوم.. نتمشى على النيل.. ونزور
أصدقاءنا.. ونرقص.. ونتناقش.. ونقرأ كتباً.. ونشترك فى
الرحلات الجماعية.

وما زلنا مجرد أصدقاء.

إنى أحبه.

وهو يحبنى.

ولكننا مجرد أصدقاء.

وكانت تمر بى أيام أثور فيها على هذه الصداقة.. أيام أطالب
فيها لنفسى بحقها فى الحب.. ولجسدى بحقه فى الارتواء..
ولكن عقلى كان يخمد ثورتى.. أعقلى يا بت.. لا تتزوجيه، حتى
لا تعيدى تجربتك مع زوجك الأول.. ولا تروى جسدى
بلا زواج.. وإلا عودت جسدى أن يشرب بلا حساب.

إلى أن كان يوم.

وقال لى صلاح ونحن جالسان فى حديقة كازينو قصر
النيل.

- شهيرة.. إنى أفكر فى الزواج لم أعد احتمل وحدتى .

ونظرت إليه بعينين متغطرسيتين وقلت : سنعود إلى سيرة
الزواج.. ألم نتفق أن نكون أصدقاء.

قال فى هدوء :

- إنى أقصد الزواج نفسه.. أى زواج.
وانطلق الذعر من عيني.. ولكنى بسرعة ضبطت أعصابى،
وقلت وأنا أحاول أن أجاريه فى هدوئه :

- ماذا تقصد.

قال مبتسما :

- ألسنا أصدقاء.

قلت :

- نعم.

قال :

- وأنت أقرب صديقة إلى.. بل إنك أكثر من صديقة فإن
أمى كما تعلمين، ماتت.

قلت :

- إنى أحب أحيانا أن أكون أمك.

قال :

- إذن.. أخطبى لى.. أى واحدة تعحبك.

وضغطت على أعصابى بكل إرادتى، وقلت من تحت

أسنانى :

- بس كده.. حاضر.

وبدأت أعرض عليه أسماء بنات أعرفهن، وأنا أقنع نفسى
بأنه فقط يريد أن يغيظنى.. ثم قلت له وأنا أدعى اللامبالاة :

- ما رأيك فى ابنة خالتى.. لقد عرفتكم بها من قبل.

وقال :

- إنها حلوة.

قلت :

- وسنها مناسبة.. ثمانية عشر عاما.. أصغر منك بست سنوات.

قال :

- فارق معقول.

قلت :

- وذكىة.. ومثقة.. وست بيت.

قال :

- ودمها خفيف.

قلت :

- سأكلم أمها.

وما زلت معتقدة أن صلاح يغيظني.. لا يمكن أن يكون جادا في الزواج.. لماذا يتزوج.. إنه يستطيع أن يستغنى عن الزواج كما أفعل أنا.

ولكن.. هل استغنيت أنا عن الزواج.
لا.

ولكنى كنت قد قررت بينى وبين نفسى أن أتزوج رجلا يكبرنى كثيرا.. لا تقل سنه عن خمسة وأربعين عاما.. مركز.. وثروة.. وأخلاق.. رجل أستطيع أن أستقر معه، وأن تهدأ حياتى معه.

ولكن صداقتى لصلاح كانت تؤجل تنفيذ قرارى يوما بعد يوم.. فلماذا لا يؤجل هو الآخر قراره.

ولكنه يلح علىّ لأتصل بخالتي.

وانتابتنى نوبة من العناد، والخطرة الكاذبة. واتصلت فعلا

بخالتي، وعرضت عليها صلاح زوجها لابنتها «تيما».. دلع، فاطمة.

ورحبت به خالتي..

ورحبت به فاطمة.

وكاد الكمد يقتلني.. ولكني بقيت على عنادي، وغطرستي.. أقوم بدور الخاطبة لصلاح.. بل إنى دعوته ودعوت تيما وأمها على الشاي في بيتي.. بيت أهلي.

وأنا أنتظر في كل يوم أن يعدل صلاح عن رأيه.

ولكنه لم يعدل.

وهو يفوضني في السير في إجراءات الخطبة.. ويستعجلني !!

وقلت له والمرارة تشق حلقى :

– الرجال لا يؤتمنون.. منذ شهرين فقط كنت تريد أن تتزوجني أنا.

قال :

– أنت رفضت.

قلت :

– لأنني أكبر منك.. وزواجنا لا يمكن أن يدوم.

قال :

– معقول.

قلت :

– لقد اكتشفت غلطتك بدليل أنك تريد أن تتزوج الآن تيما.. تتزوج والسلام.. أي واحدة.

قال :

– الرجل في حاجة إلى الزواج.. والتوفيق بيد الله.. وأنا

أصغر منك، ولا أصلح لك.. وقد يوفقنى الله مع تيماء.
قلت :

– فعلا.. خير ما فعلت.

و..

وتحدد يوم إعلان خطبته إلى تيماء.

وأنا أتعذب.. وأطوى عذابى فى كبريائى الكاذبة.. وابتسامة
مرة أضعها على شفتى كلما رأيت صلاح.. وكلما رأيت تيماء..
ثم أبكى فى فراشى.. وأصحو ذابلة.. كل شىء فى يذبل..
عينائى.. شفائى.. قلبى.. عقلى.. أعصابى.. لقد نقص وزنى
ثلاثة كيلو فى شهر واحد.

وصلاح يسألنى :

– ما بك.

وأرد فى كبرياء :

– لا شىء.. عاملة رجيم.

و..

وذهبنا أنا وصلاح نشترى دبلى الخطوبة..

انتقيت الدبلىتين بنفسى.. ودموعى مختبئة تحت جفنى.

ورفع الصائغ رأسه إلينا وسألنى :

– الاسم من فضلك.

وترددت قليلا.. ثم قلت :

– صلاح.

وعاد الصائغ يسأل :

– والاسم الثانى.

وفتحت شفتى.. ثم أغلقتها.. ودون أن أنظر إلى صلاح..

عدت وفتحت شفتى، وهمست فى صوت خفيض :

— شهيرة.

اسمى أنا.

وسمع صلاح همستي برغم خفوتها، وصرخ في الصائغ :

— شهيرة.. الاسم الثاني شهيرة.

ورفع إليه الصائغ عينيه كأنه يسأله لماذا هو فرح إلى هذا الحد.. إلى حد الصراخ.

والتقط صلاح يدي وضغط عليها، وعاد يقول للصائغ في

هدوء :

— العروسة اسمها شهيرة.. والعريس اسمه صلاح..

والتاريخ تاريخ النهاردة.

ثم جذبني.

وسار بي كأنه يجري.

ودفعني في أول سيارة أجرة.. وذهب بي مباشرة إلى

المأذون.. كتبنا الكتاب.. بلا خطبة.. أغنتنا فترة الصداقة عن فترة الخطوبة.

أتدري ماذا تقول خالتي.

إنها تقول إنني خطفت عريس ابنتها.

إنها لا تعلم شيئاً.

ولا تعلم أنني أعيش خائفة.. الخوف يمزقني.. فحبيبي..

زوجي.. يصغرنى بأربع سنوات.

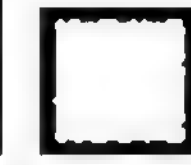
استقالة عالمة الذرة ..

سيدى الوزير.

صباح الخير.

هذا خطاب استقالة.. وكنت أستطيع أن أكتب

استقالتي فى كلمات قليلة.. «أرجو التفضل بقبول



استقالتي لأسباب خاصة، وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق

الاحترام».. وقد فكرت فعلا فى أن أرسل إليك استقالتي فى

هذه الكلمات القليلة، حرصا على الطابع الرسمى بين الوزير

وأحدى موظفات وزارته.. ولكنى تذكرت ما يمكن أن تسببه لك

استقالتي من ألم.. وتذكرت برقيتك التى أرسلتها إلى وأنا فى

أمريكا، بعد أن نلت شهادة الدكتوراه فى علوم الذرة من جامعة

هارفارد.. لم تكن برقية وزير، كانت برقية أخ كبير، وما زلت

أذكر كلماتها حتى اليوم : «عزيزتى عنايات، إنى فخور بك»..

كلمات ملأت قلبى بالفرحة.. أحسست أن مصر كلها فخورة

بى.. وأن كل من فى مصر أخ لى وأب وابن عم.. وكلهم

فرحون بى.. ثم تذكرت الحياة التى عشتها بعد أن عدت،

وعينت في المعهد القومي للبحوث.. لم تكن حياة موظفين، كانت حياة تسودها روح العائلة الواحدة.. ربما لأن العلم يرفعنا جميعا فوق روتين الحياة الرسمية التي يعيشها الموظف العادي داخل جدران الوزارة.. وربما لأننا كعلماء نحس أننا أضعف بكثير من الكون الهائل الذي يسعى العلم لاكتشافه، فنشعر بحاجتنا إلى أن نقرب بعضنا من بعض، عقليا وعاطفيا، لنتساند ويحتمي أحدهنا بالآخر، حتى لا نضيع في هذا الكون الهائل.. وربما لأنك وأنت عالم كنت تنسى دائما أنك وزير.. فكنت معنا أخا وصديقا.

لذا.. لم أكن أستطيع أن أكتب استقالتى فى كلمات رسمية قليلة.. حقك علىّ يتطلب منى أن أسرد لك كل مشكلتى.. بتفاصيلها.. إنها تفاصيل لا تهمك كوزير.. وربما أضحكك كعالم يستغرق العلم كل رأسه.. ولكنى واثقة أنها تهمك كأخ كبير.. واثقة أنك بروح الأخ تستطيع أن تقدر وتفهم كل ما سأرويّه لك.

تبدأ المشكلة يا أخى الوزير، منذ أن تزوجت.. وانتقلت أنا وزوجى إلى بيتنا الصغير فى عمارة السعودية المطلة على النيل.. لقد أحببت هذا البيت.. وضعت فيه كل أحلامى، وكل ذوقى، وكل حنانى ولكن البيت لم يشغلنى أبدا عن العمل.. كنت أنساه بمجرد أن أصل إلى المعهد وأرتدى المعطف الأبيض وأقف أمام مائدة البحث.. لا، لا.. لم أكن أنساه، ولكنى كنت أخبئه فى قلبى، وأترك قلبى ينام بين ضلوعى، ويبقى عقلى وحده صاحيا.. يعمل.. وتذكر سيادتك أنى كنت منكبة خلال هذه المدة على التجارب الخاصة بتأثير النظائر المشعة، فى علاج مرض تسوس العظام، وفى كل يوم.. فى الساعة الثانية

تماما.. كنت أشعر بقلبي يستيقظ من نومه، ويأخذني من فوق العظام المسوسة، ويذهب بي إلى بيتي.. بيتي الذي أحبه.. ولم أكن أصل إلى البيت قبل زوجي، كما هو المفروض.. غالبا كنت أذهب بعده، برغم أن سيادتك أمرت بتخصيص سيارة لتوصيلنا إلى منازلنا.. ولم يكن زوجي يغضب.. أبدا.. فأنت تعرف أنه أستاذ الألكترونيات في كلية الهندسة.. عقله واسع.. تلقى علومه في سويسرا.. ويستطيع أن يقدر حلاوة الحياة التي يعيشها زوجان يشتغلان بالعلم.

وكنت أجده عادة، قد أعد المائدة ووضع الطعام، الذي طهوته في الليل، على البوتاجان، ليسخن.. ونضحك ونحن نأكل.. وأروى له ما وصلت إليه في بحثي عن تسوس العظام، ويروى لي ما وصل إليه في بحثه عن الألكترونيات.. ثم نقوم ونغسل معا الصحون والأواني.. ثم يخرج زوجي إلى الشركة التي يعمل مستشارا لها، يعد الظهر.. وأعود أنا إلى المعهد.. ولم يكن نظام العمل يضطرني إلى العودة إلى المعهد، ولكني كنت متحمسة لأن أنتهى من بحثي، حتى أجعلك تفخر بي مرة ثانية، كما افتخرت بي يوم تلت الدكتوراة بدرجة امتياز.

هكذا كنت أعيش أنا وزوجي.

لم أفكر أيامها في أن أستأجر خادمة.. أبدا.. كنت أخاف على بيتي من الخادمت.. ولم أكن في حاجة إلى خادمة.. كنت أفضل أن أعيش على نمط الحياة العائلية في أمريكا.. أنا وزوجي نتعاون في خدمة أنفسنا.. وفي كل يوم جمعة كنت أدعو البواب ليعاونني في تنظيف البيت نظافة كاملة.

إلى أن حملت يا سيادة الوزير.

هل رفعت حاجبك وأنا أحدثك بهذا الكلام.. لا تنس أني

امراة.. صحيح أنى أشتغل فى علوم الذرة.. وصحيح أنى نلت
الدكتوراة.. وصحيح أنى قضيت ثلاثة أرباع عمرى بين الكتب
والمعامل.. ولكن كل هذا لا يعنى أنى لست امراة.. لا يعنى أنى
أصبحت عقلا الكترونيا.. ولا يعنى أنى أصبحت رجلا، مثلك،
أو مثل زميلى الدكتور عوض.

إنى امراة.. ولأنى امراة رفضت أن أستعمل أى دواء يمنع
الحمل. برغم أنى قدرت أن الحمل قد يشغلنى عن انهماكى
واندفاعى فى بحث تأثير النظائر المشعة فى علاج تسوس
العظام.

أتدرى ماذ كان أول ما فكرت فيه بعد أن حملت ؟
خادمة.

لم أكن أستطيع أن أضع أى تنظيم لحياتى بعد الوضع،
دون الاستعانة بخادمة.. ولم أكن أتصور أن الخادمة يمكن أن
تكون مشكلة.. أبدا.. لم أكن أتصور هذا.

وكنت حاملا فى الشهر الخامس عندما أوصيت البواب أن
يبحث لى عن خادمة.. أوعلى الأصح مربية.. وقد مضى أكثر
من أسبوع دون أن يرسل لى البواب أحدا.. وعدت أسأله، فقال
وهو يهز رأسه فى أسى :

- أصلهم عزاز قوى اليومين دول يا ست هانم.

ولم أصدق.. اعتقدت أنه كسلان.. وبدأت أوصى زملائى،
وأقارب زوجى، أن يبحث لى كل منهم عن مربية، أو خادمة.

وأخيرا. بعد شهر.. جاءتنى زينب.. امراة فى الثلاثين من
عمرها.. ضاحكة الوجه.. مليئة بالصحة والعافية.. نشطة.

وفرحت بها.

عاملتها، أحسن مما يعامل أصحاب الملايين الأمريكان

خادما تهم.. أعددت لها سريرا فى الحجرة التى أعددتها للمولود المنتظر.. وخصصت لها أربع ملائات سرير، لتغيرها فوق سريرها.. و.. و.. لن أضيع وقتك يا سيادة الوزير، فى هذه التفاصيل النسائية.. ولكنى كنت أعامل زينب، كأنى رزقت بها قبل أن أرزق بطفلى.. وأعدها لتحمل معى الأمانة الكبيرة.. أمانة تربية الطفل.

وعاشت معى زينب شهرين.. وفى كل يوم أثق فيها أكثر، إلى درجة أنى سلمتها كل مفاتيح البيت.. وكنت أعود من المعهد لأجد كل شىء معدا لى ولزوجى.. كأنى أعددتة بنفسى.. بل إنى تحسرت على الأيام التى ضاعت من عمرى قبل أن تدخل زينب بيتنا.

وفى يوم.

خرجت زينب فى اجازتها الأسبوعية لتعود فى اليوم التالى.. ولكنها لم تعد.. ومر اليوم الثانى والثالث ولم تعد.. وارتعش قلبى.. لم أعد أستطيع أن أنيمه بين ضلوعى، ليتفرغ عقلى للبحث فى تأثير النظائر المشعة على مرض تسوس العظام.

ثم عادت زينب.

عادت لتبلغنى أنها لن تعود.

— ليه يا زينب؟

وأجابت وهى خجلة من بشاعة الجرم الذى ترتكبه فى

حقى :

— أصل جوزى رجعتى يا ستى.

قلت وأنفاسى تتلاحق :

— وماله يا زينب.. ما يرجعك وتفضلى برضه معانا.

وخبطت على صدرها قائلة :
- يا خبر يا ستي.. أنا جوزى ما يرضاش أنى أشتغل أبدا..
ده أسطى مكوجى قد الدنيا.
وقلت، وأنا أتوسل لها بعينى :
- وهو الشغل عيب يا زينب.. مانا باشتغل أنا كمان.
وقالت زينب :
- لآى يا ستي.. مش ممكن.. أنا جوزى حاجة ثانية غير
البيه بتاعك.
وغلبت فى إقناعها.. إلى أن قلت فى يأس :
- طيب خليكى لغاية مالاقى واحدة ثانية.
وقالت :
- معلش والنبي يا ستي.
قلت :
- بس الأصول أنك تدينى إنذار، القانون بيقول كده.
ونظرت إلى كأنها تتحفز للدفاع عن نفسها :
- قانون إيه يا ستي.. أنا لا سرقت، ولا قتلت.
و...
ولا أطيل عليك يا سيادة الوزير.. خرجت زينب من
خدمتى.. هل يمكن أن تشعر بما شعرت به يوم خرجت زينب..
لا.. فأنت لست امرأة.. لعل السيدة زوجتك تستطيع أن تقدر
حالى.. حالة زوجة صغيرة على وشك الوضع تركتها خادمة
مثالية.
وبدأت أبحث عن خادمة أخرى.
كأنى أبحث عن كنز من كنوز الفراعنة.
وبعد أسابيع أرسلت لى زوجة ابن عمى خادمة.. عصمت..

ولم أسترح لعصمت منذ رأيتهـا.. كانت فى العشرين من عمرها.. تحس بجمالها.. ونظراتها وقحة.. وبعد يومين بدأت تختفى أشياء صغيرة.. قلم روج.. فوطة.. قميص.. كرافتة.. وبعد أسبوعين قررت أن تختفى عصمت من حياتى.. طردتها.

ثم أرسلت لى أمى من الأسكندرية مربية عجوزا.. أم سنية.. واسترحت لها فى بادىء الأمر.. ولكنها كسولة.. غبية.. قدرة عملت طول حياتها فى بيوت لا تهتم اهتمامى بنظافة بيتى ودقة نظامه.. ووجدت نفسى بعد أيام أنظف وراءها.. طبق طعامها الذى تلقيه فى الحوض وتتركه ساعات قبل غسله.. ثيابها المبللة دائما التى تفوح منها رائحة العطن.. وكانت تأكل كثيرا.. لم أر فى حياتى يا سيادة الوزير عجوزا تأكل كل هذا الأكل.. وأنا لست بخيلة.. ولكن هذه المرأة تأكل بلا نظام.. تأكل كلما وجدت شيئا تأكله.. وتقززت منها نفسى.. وطردتها.

ثم وضعت ابنتى.. وضعتها وليس عندى مربية أو خادمة.. وتذكر سيادتك أنى أخذت أيامها إجازة شهرين، قضيتهما وأنا أفكر كيف أدبر حياتى وحياة ابنتى، فى الوقت الذى أعمل فيه بالمعهد القومى للبحوث، وأتفرغ بعقلى لعلاج تسوس العظام بالانظائر المشعة.. وكنت أقدر عملى.. لم يكن عملى مجرد مساهمة منى فى نهضتنا العلمية، بل كان هوايتى.. كان حياتى.. وابنتى أيضا حياتى.

وفكرت.. فكرت كثيرا.
فكرت أن أرسل ابنتى إلى أمى فى الاسكندرية لتربيتها..
ولكنى أم يا سيادة الوزير.. ولا تستطيع أم أن تتنازل عن
ابنتها حتى لأمها.
فكرت أن أقنع أمى بأن تأتى وتقيم معى فى القاهرة.. ولكن
مستحيل.. لا أستطيع أن أربك حياة أمى إلى هذا الحد.
فكرت أن أضع ابنتى فى دار من دور الحضانة.. ولكن أين
هى دار الحضانة التى أستطيع أن أضع فيها طفلة فى شهرها
الثالث، وأنا مطمئنة.. ليس عندنا دور حضانة.
فكرت أن أطبق نظام «رعاية الأطفال» أو «البيبي سىتر»
المطبق فى أمريكا.. ولكننا فى مصر، ولبننا فى أمريكا.
فكرت.. فكرت.. وكان كل تفكيرى منحصرًا فى تدبير حياة
ابنتى، بحيث اتفرغ لرسالتى الكبرى.. رسالة استغلال الذرة
فى سبيل سعادة الإنسان.
ولم يهدنى تفكيرى إلا إلى أن أعود وأبحث عن مربية من
جديد.
وجاءت.. سعدية.. شابة سمراء مدربة.. فرحت بها، كما
فرحت بزينب.. ومنذ اليوم الأول اطمأنت على ابنتى بين
يديها.. ودفعت لها الأجر الذى طلبته.. كنت قد قدرت لها
خمسة جنيهات، ولكنها طلبت سبعة.. ودفعت لها السبعة..
وقطعت إجازتى.. وبدأت أذهب إلى المعهد.. صحيح أنى لم أعد
أستطيع أن أتفرغ بكل عقلى للبحث الذى أقوم به.. ولكنى كنت
مطمئنة.. مطمئنة على ابنتى بين يدى سعدية.
ولكن.
بعد شهر واحد.

شهر واحد يا سيادة الوزير.. عادت سعدية من يوم إجازتها
وطلبت حسابها لتخرج من خدمتي :
وصرخت :

- ليه يا سعدية.. حد زعلك.. ناقصك حاجة.
وقالت :

- أبدا يا مدام.. بس الجماعة اللي كنت عندهم عايزيني
تاني.. وأنا الحقيقة متربية عندهم.
ولا أمل.

وقال لى البواب بعد أيام إنها لم تذهب إلى بيت مخدومها
السابق، بل ذهبت لتعمل فى العمارة المجاورة، عند عائلة رفعت
أجرها إلى تسعة جنيهاً.

وعدت وانقطعت عن العمل لأجلس مع ابنتى.
فكرت أيامها أن أطلب منك أن تسمح لى بأن أعمل بعد
الظهر، حتى أبقى مع ابنتى فى الصباح إلى أن يعود زوجى،
فأتركها له وأذهب إلى المعهد.. ولكن.. مستحيل.. مستحيل أن
أطلب من زوجى أن ينقطع عن عمله فى الشركة التى يعمل
فيها بعد الظهر.. ثم أنها مسئوليتى أنا، وليست مسئولية
زوجى.

وبدأت أستقبل خادومات جديداً.
فتحية.. كانت صريحة.. لم تبق إلا ثلاثة أيام، ثم جاءت إلى
واعترفت أنها كانت متقدمة بطلب للعمل فى مصنع.. وقد قبل
طلبها.

وخرجت.
ثم أخيراً.
خديجة.

كانت خديجة صغيرة.. فى الثامنة عشرة.. حلوة إلى حد
أنى غرت من جمالها.. وجاءت إلى تلبس بلوفر «موهير» وجيب
ترجال، وحذاء فرنى بكعب عال.. كلها مظاهر تخيفنى منها..
ولكن لماذا أخاف.. إن الخادومات فى أمريكا يبدوون أكثر أناقة..
ثم إن خديجة لها ابتسامة تفتح القلب.. وقد فتحت قلبى..
ومرت أيام، وأنا لا آخذ على خديجة إلا كثرة تطلعها فى
المرآة.. وكثرة وقوفها فى شرفة البيت.. ولكنها كانت حنوناً
على ابنتى.. وكانت تعرف كيف تداعبها.. وكيف تجذب النوم
إلى عينيها.

وبدأت أواظب على الذهاب إلى المعهد..
ولكنى لم أكن مطمئنة.

أصبحت أعمل بنصف عقلى.. أحياناً بربع عقلى.. وأحياناً
يضيع عقلى كله، وأسرح وراء ابنتى.. وأتساءل.. هل ناولتها
خديجة رضعة الساعة الثانية عشرة.. هل هى بجانبها الآن..
هل.. هل.

وفى يوم.

كنت فى المعهد.. وكنت منكبة فوق الميكروسكوب أفحص
العظام المسوسة.. وفجأة شعرت بنغزة فى قلبى.. قلب الأم..
شعرت بأن شيئاً قد حدث لابنتى، ولم أحاول أن أتساءل عن
سر هذا الشعور.. لم أحاول أن أكذبه.. وقفت جامدة برهة.. ثم
انطلقت وأنا ما زلت أرقدى المعطف الأبيض، وجريت إلى خارج
المعهد، وركبت تاكسى وعدت إلى البيت.. والهلع يشد فى قلبى
دقيقة بعد أخرى.. وأصرخ فى السائق :

— قوام من فضلك يا أسطى.

إلى أن وصلت.

وجريت إلى المصعد.
وجريت من المصعد إلى داخل الشقة.
وسمعت شيئاً كالصراخ.. صراخ ضعيف.. ووضح الصراخ
فى أذنى وأنا أقترّب من غرفة ابنتى.. ابنتى تصرخ.
ورأيتها.
واقعة من فوق سريرها على الأرض.
والحمد لله لقد كان تحت السرير سجادة سميقة، وإلا كان
رأسها قد تهشم.
وانحنيت عليها ملهوفة.. جزعة.
الحمد لله.. سليمة.
ولا أدري ما حدث لى.. ولكنى تركت ابنتى على الأرض،
لم أرفعها لأضعها على السرير، وجريت كالمجنونة أبحث عن
خديجة.. ووجدتها واقفة على سلم المطبخ مع شاب يبدو عليه
أنه طالب.. وقبل أن أفكر.. وجدت نفسى أندفع إليها وأرفع
ذراعى وأنهال عليها ضرباً، وأنا أصيح :
- يا مجرمة.. يا مجرمة.. أمشى اطلعى برة..
اطلعى من بيتى
وجرى الشاب من أمامى.
وخرجت خديجة من بيتى.
حدث هذا أمس.
واليوم أجلس لأكتب لك هذا الخطاب.
لأستقيل.
سيدى الوزير.
أرجوك.. لا تحاول أن تذكرنى بواجبى نحو بلدى، ونحو
نهضتنا العلمية.. ولا تذكرنى بالسنين الطويلة التى قضيتها

لأجعل من نفسي إنسانة تستطيع أن تخدم وطنها فى مجال لم يتسع بعد لكثير من المواطنين، لا تذكرنى بالسلام.. وتقدم الإنسان.. فإنك لا تستطيع أن تضع كل ذلك فى كفة ثم تضع ابنتى فى الكفة الأخرى.. وتجعلنى أختار.. مستحيل.. إنك تنسى أنها ابنتى.. وأنتى أم.. وقد أستطيع أن أستقيل من واجبى كعالمة فى الذرة، ولكنى لا أستطيع أن أستقيل من واجبى كام.

والذنب ليس ذنبى.. إنه ذنب الدولة.. ذنب المجتمع.. إن الدولة عندما تشتري آلة جديدة فإنها تخصص لها عمالا يعاونونها على العمل.. واعتبرنى آلة.. ولكن عندما بدأت هذه الآلة تعمل لم تخصص لها الدولة عمالا يساعدونها حتى تؤدي عملها على الوجه الأكمل.

الدولة لا تستطيع أن تطالبنى بالعمل إلا إذا طمأنتنى على راحة ابنتى.. وحياتها.

وأرجوك يا سيادة الوزير.. أرجوك إذا صممت على أن ترفض استقالتي، أن تبحث لى أولا عن مربية لطفلتى، وتضمن لى أن أطمئن عليها.
وتفضل أيها الأخ الكبير بقبول خالص تحيتى.

كلام سيات

لا أدري لماذا قررت أن أعمل « رجيم » .. إنى
لست سمينة .. ومدام أسبريدون الخياطة تقول
إن قوامى يجن ، وإنى أصلح لأكون موديلًا ..
مانيكان .. وإنها تعتبر كل ثوب تصنعه لى دعاية ☐
لها .. وحتى لو كانت مدام أسبريدون تنافقنى .. فإنى
أستطيع أن ألع جمال قوامى فى عيون الرجال إذا استثنيت
زوجى .

وبرغم ذلك قررت أن أعمل رجيمًا .. ربما لأنه لم يكن لى
شئ آخر أعمله .. وكان من ضمن الرجيم أن أمشى فى كل
يوم ساعة .. لتنشيط الدورة الدموية .. ولم أكن أستطيع أن
أمشى وحدى .. ولا مع زوجى .. فى قدم زوجى كالو
ولا يحب المشى .. فاتفقت مع صديقتى ، روحية وأنجى ، أن
نمشى معا .. كل يوم .. ابتداء من الساعة الثالثة بعد الظهر
حتى الرابعة .. فى الشمس الدافئة .

روحية رفيعة .. ومشاكلها كثيرة .. وربما وافقت على

ممارسة رياضة المشى ، كرجيم لعقلها أكثر منه رجيما لجسدها .

وأنجى .. تعتقد فى نفسها أنها جميلة ، يابختها فالمرأة التى تعتقد فى نفسها أنها جميلة امرأة سعيدة ولم تكن أنجى أيضا فى حاجة إلى رجيـم .. وربما لم تكن تحب المشى .. ولكنها قطعاً تحب الاستعراض !!

وأنا أحب روحية وأنجى .. إنهما أعز صديقاتى .. ونحن الثلاثة نشير حسد كل النساء ب صداقتنا والحب المتبادل بيننا .. كل منا تعرف عن الأخرى كل شىء .. بل إنى أستطيع أن أقلد شخير زوج روحية وهو نائم ، وأستطيع أن أعرف النقود التى يحملها زوج أنجى فى جيبه كل صباح .. إنها تعطيه كل صباح خمسين قرشا .. كمصروف خاص .. وهما لا يعرفان عنى أى شىء .. لا لأنى أتعمد أن أخفى عنهما شيئا .. ولكنى لا أحب أن أتحدث عن حياتى الخاصة .. كل ما يعرفانه هو الكالو الذى يتألم منه زوجى .

المهم ..

خرجنا فى اليوم الأول .. كنت ارتدى ثوبى البرتقالى الصوف .. صوف مصرى ، وكأنه صنع بباريس .. كل صديقاتى اعتقدن أن زوجى اشتراه لى من بباريس .. مدام اسبريدون الخياطة أيضا .. برغم أنها تعتبر خبيرة فى الأقمشة، اعتقدت أنى اشتريته من أوربا .

وكانت روحية ترتدى الجيب الأسود الذى أراه عليها منذ عامين .. جيب ترجال .. لا أدري كيف تطيقه كل هذا العمر .. وبلوزتها الخضراء .. والجاكت الجلد التى تبدو فيها كسائق

الأتوبيس .. غلبت فى أن اجعل روحية تهتم بثيابها .. إنها بخيلة .. ولا تشتري إلا ما يحتمل السنين .. ولكتها طيبة والنبي .. إنى أحبها .

وهلت علينا أنجى وهى ترتدى بنطلون « سترتش » لونه أحمر ، ويلوفر أسود .. والنبي ده كلام .. ده احنا طالعين سبور .. مش رايعين حفلة .. يبقى لازمة البنطلون إيه .. ولكن هكذا أنجى .. إنها تعتبر نفسها صغيرة .. نونو .. مع أنها ليست أصغر من ابنة خالتي عدلية .. إلا بستة أشهر .. ولكن أنجى دمها خفيف .. إنى لا أستطيع أن أستغنى عنها يوما واحدا .. حبيبتي .. صاحبتى .

وقد صحبت معى كلبى روك .. ليمشى معنا .. إن المسكين محبوس فى الشقة طول النهار والليل .. حرام .. وقد قالت لى روحية بمجرد أن رأت روك :

— ولازمة روك إيه .. عامل رجيم هو راخر .
وأجبتها :

— علشان يبقى معانا راجل على الأقل !!
إنى سريعة النكتة .

وبما أنى صاحبة فكرة الرجيم ، فقد بدأت أدرب روحية وأنجى على طريقة المشى الرياضى .. افردى ظهرك .. اشفطى بطنك .. ارفعى رأسك .. وأحكمت وضع نظارتى على عيني .. وبدأنا نسير نحن الثلاثة ، كثلاث فدائيات .. إن النظارة تجعل لى شخصية قوية .. وأنجى تغار من نظارتى .

وكنا قد اخترنا أن نمشى فى شارع النيل ابتداء من عمارة أبو الفتوح حتى كوبرى عباس .. إن صديقتى عزة حرم محمد

فهى مدير شركة الصاروخ ، تسكن فى عمارة أبو الفتوح ..
وقد اشترت خاتما من عند باروخ فى الأسبوع الماضى ، وقالت
إنها اشترته بثلاثمائة جنيه .. عزة تحب المبالغة .. إنها لطيفة
ومهذبة ، ولكن عيبها هو المبالغة .. وقد ساومت باروخ منذ
شهرين على نفس الخاتم وطلب فيه مائة وخمسين جنيها ،
ولكنى لم أشتره ، لأنى سبق أن رأيت مثله فى إصبع فريدة
هانم .. ولكن روحية تقول إن عزة لم تشتتر الخاتم ، ولكنها
أخذته هدية من صديقها عبد العزيز .

- حرام عليكى يا روحية .

وقالت روحية وهى تمشى مشية الفدائيات :

- حرام ليه يا أختى .. الحق يقال .. وعزة مزوداها حبتين
.. دى ما بتحترم مش جوزها أبدا .. زى ما يكون مش عايش
معاها ..

وقالت أنجى :

- دمه ثقيل عبد العزيز ده .. وعنيه لا يده على الستات ..
ده ما يبطلش بص .

إن أنجى تعتقد أن كل رجل يطمع فيها ، حتى أزواج
صديقاتها .. وحتى أصدقاء صديقاتها .. يا بختها .. إنى لست
مغرورة ، ولكنى أحيانا أحسد المغرورات .

وقلت :

- حرام عليكى يا أنجى .. ده راجل مؤدب ، وما بيرفعش
عينه عن الأرض .

وقالت أنجى وهى تنظر فى نظارتى :

- صدقينى .. أنا عارفاه كويس ، ومستعدة أحكى عنه

للصبح .. بس انتى اللى ما بتخديش بالك .
وقالت روحية :
- سيبكم من عزة وعبدالعزيز .. تعرفوا اللى حصل
لخديجة .
وقالت أنجى :
- مين دى خديجة ؟
وقالت روحية :
- خديجة شكرى :
وقالت أنجى :
- آه قصدك دودى .. مالها .. حصل لها إيه .. دى صاحبتي
قوى .
وقالت روحية :
- مش اكتشفت أن جوزها واخد شقة لواحدة طليانية .
وقالت أنجى :
- السافل .. كل الرجالة كده .
وقلت :
- يا روحية .. خافى ربنا .. بلاش سيرة الناس .
وقالت روحية :
- أمال حانتسلى فى إيه .. وأصل دى حاجات ما ينسكتش
عليها .
وقالت أنجى :
- على كل حال دودى ما عملتش شوية .. هى المحقوقة ..
ده كان جوزها لازم يطلقها من زمان .. وأهو بدل ما يطلقها ،
عرف عليها .

ومرت بجانبنا سيارة فيها بعض الشبان .. يبدو أنهم من
طلبة الجامعة واحد منهم شعره أصفر .. والثاني تخين وشكله
مضحك .. والثالث جالس على حافة نافذة السيارة وجسمه
خارج منها .

وصاح الأشقر :

- البنطلون الأحمر يكسب .

وابتسمت أنجى .

إن أنجى لا تستطيع أن تمشى مشية رياضية .. إنها تمشى
كأنها فى عرض أزياء .. وبنطلونها يبرز كل قطعة من
جسدها .. عيب .. ما يصحش .. وبرغم أنها طيبة ، ودمها
خفيف ، إلا أنها أحيانا تزودها حبتين .

إنى لا أطيق الشبان الشقر .. إنهم أقرب إلى البنات .

وعادت روحية تقول :

- وتعرفوا خديجة عملت إيه .. راحت بنفسها على الشقة ..

وهجمت على البنت الطليانية ونزلت فيها بأديها ورجليها ..
ماخلتش فيها .

وقالت أنجى :

- ياي ..

وقلت :

- تبقى غلطانة .. كان لازم تحترم نفسها .. ثم إن الست

ذنبا إيه .. الذنب ذنب الراجل .. والحساب يبقى مع الراجل .

وعادت روحية تقول :

- ما هي حسنية كانت أعقل يوم ما ظبطت جوزها ..

تعرفوا عملت إيه .

وارتفع صوت رجل من ورائها يقول :
- أموت فى الشيش بيش .
إنى أحتقر الرجل الذى يتلهف على قوامى .. إنى أعرف أن
قوامى مثير ، ولكن الرجل يجب أن يضبط أعصابه .. ولكن ..
كيف رأى هذا الرجل نظارتى وهو يسير خلفنا .
وحيرنى هذا السؤال .
وقالت روحية :
- يوم ما حسنية عرفت أن جوزها .
وقبل أن تتم ، انطلق كلبى روك يجرى وراء قطعة .
وصرخت :
- روك .. روك .. تعالى هنا .. با أقولك تعالى هنا .
وصاح الرجل الذى يسير وراءنا .
- ماتزعليش يا قطعة .. الكلب حايرجع لك .. كل الكلاب
تحت أمرك .
وفجأة وقفت بجانبنا سيارة .. وأطل منها وجه رجل ، وقال
مبتسما :
- أنجى هانم .
وشهقت أنجى ، ثم التفتت إلينا وقالت فى ارتباك :
- ده محمود ابن عمى .
وقالت روحية وهى ترفع حاجبها الرفيع :
- ابن عمك من أمتى !
وقالت أنجى :
- اخص عليكى ياريرى ، مش مصدقانى .. تعالوا أعرفكم
بيه .

وقلت :

- لا .. لا يا أنجى .. أنا ماحبش أتعرف بحد فى الشارع .
وقفزت أنجى نحو السيارة وصافحت الرجل المبتسم ،
وأخذت تتحدث معه .

إنه رجل عجوز .. أكبر من أنجى بكثير .. وإن كانت روحية
تؤكد أنه لا يتجاوز الأربعين من عمره .

وعادت أنجى إلينا بعد حديث طويل .. وقالت :

- عن إذنكم يا جماعة .. محمود يقول إن مرات عمى عيانة
قوى ، ولازم أروح أقعد جنبها .

وقلت فى حدة :

- احنا ما اتفقناش على كده يا أنجى ..

وقالت أنجى :

- وأنا إيه كان عرفنى أن مرات عمى عيانة .. ده محمود
كان جاي لى البيت دلوقتى ، علشان يقول لى .

وقالت روحية :

- حلال عليك يا ستى .

وقالت أنجى ضاحكة :

- لا والنبي يا روحية .. ماتبقىش وحشة أmaal .. أنا بعد
نص ساعة حاكون فى البيت .. يدوبك أطل على مرات عمى
وأرجع على طول .

وقفزت أنجى فى السيارة بجانب الرجل المبتسم .

ومشيت أنا وروحية .. مشية رياضية .. الظهر معتدل ..
والبطن مشفوط .. والرأس مرفوع .. وبيننا صمت ووجوم .
وعاد روك من وراء القطة ، وسار بجانبى .

وقطعت روحية الصمت قائلة :

— بأه دى عمايل تعملها أنجى .

وقلت لها :

— ما انتى عارفة أنجى يا روحية .. يعنى مش عارقاها ..

وقالت روحية :

— بس مش كده .. طيب ده أنا ممدوح قعد يتحايل على فى

التليفون إنه ييجى يتمشى معانا ، مارضيتهش .. قال لى إنه

حايمشى ورانا بالعربية برضه مارضيتهش ، قلت له إن شفتك

مش حايحصل لك طيب .. أصل كل حاجة ، لها أصول ..

الواحدة ما تكونش بالشكل ده .

قلت :

— إنتى لسه بتعرفى ممدوح .

قالت :

— أعمل إيه .. مش راضى ينكشع أبدا .. مش سايبنى

أتنفس لوحدى .

والرجل لا يزال يسير خلفى ، وقال بعد أن كح كحة غليظة :

— أجيب تاكسى أنا كمان .

وقلت لروحية :

— شفتى الراجل بيقول إيه .. طبعاً .. بعد ما شاف اللى

عملته أنجى ، من حقه يتجراً علينا .

وقالت روحية :

— إنما تعرفى أن ممدوح مخلص صحيح .. ده شاف منى

الويل .. وبرغم كده مخلص .

قلت :

- بس إنتى حقتك تعقلى بأه يا روحية .. ده ضفر جوزك بعشرة زى ممدوح .

وقال الرجل الذى يسير خلفى :

- يعنى لازم أجيب عربية ملاكى .. بكرة ربنا يفرجها .. أنا موظف فى وزارة التموين .. وكلها شهرين وأكمل حق عربية نصر ١١٠٠

وقالت روحية :

- ومين قال لك إنى أقدر أستغنى عن جوزى .. حقه مالكيش حق .. إنما أعمل إيه .. ما هو كمان قاعد فى مكتبه ليل ونهار .. ويخرج سرحان ، ويرجع سرحان .

وقال الرجل الذى يسير خلفى وهو يصفر لروك :

- روك .. روك .. تعالى أما أقول لك كلمة تقولها لستك ..

وإذا بروك يذهب إلى الرجل فعلا .

والتفت خلفه وأنا أصبح فى عصبية :

- روك تعالى هنا .

ولكن روك يلحمس يد الشاب ، ويهز له ذنبه .

وقال الشاب وهو يرفع إلى عينيه :

- أنا نفسى أصاحب روك .. عندك مانع .

وقلت فى حدة :

- من فضلك .. أنا ما أعرفكش .

ثم استدرت للشاب ، وقلت لروحية :

- ياللا بينا نرجع يا روحية .

إنه شاب صغير .. لا يزيد على الثانية والثلاثين .. وهو يضع نظارة مثلى .. ولكن نظارته أسمك بكثير من نظارتى ..

وعيناه تطلان من خلفها ، كأنهما نجمتا الصباح .. وشاربه
صغير أنيق .. ولكن حلقه لا تعجبني .. ذوقها بلدى .. وكرافتته
تقرف .. ويشبك فيها دبوسا .. إنى أكره الرجل الذى يشبك
دبوسا فى كرافته .



وعدنا إلى البيت ..

وقد اتصلت بأنجى بمجرد وصولى فلم أجدها قد وصلت
إلى بيتها .. واتصلت بها بعد ساعة أخرى فلم أجدها قد
وصلت .. وفى الساعة الثامنة مساء اتصل بى زوجها فى
التليفون وقال فى ضيق :

- أنجى عندك ..

وبلعت ريقى وقلت :

- كانت عندى هى وروحية ، ولسه نازلين دلوقتى ..
زمانها جاية لك .. أصلنا خرجنا نتمشى علشان الرجيم ،
وبعدين عزمتهم على الشاى عندى .. وازيك يا رحمى بيه ..
أخبارك إيه.

وقال رحمى بيه :

- كويس .. بونسوار بأة .

ووضع السماعة ..

إنى أكره نفسى عند ما اضطر أن أكذب .. وأنجى تضطرنى
دائما لأن أكذب .

وفى اليوم التالى خرجت لأتمشى أنا وروحية .. لم نأخذ
أنجى معنا .. حتى لا يبوظ الرجيم .. بل إنى من يومها قاطعت
أنجى .. تصوروا .. أنها تذيع عنى فى كل مكان أنى أحب

■ كلام سقات ■

موظفا فى وزارة التموين .. يضع على عينيه نظارة .. ويشبك
فى كرافتته دبوسا .. وعنده سيارة نصر ١١٠٠ .. يل إنها
تقول إنى أنا الذى اشتريت له السيارة .
أعمل فيها إيه يعنى .
ربنا يسامحها .



الفهرس

الصفحة

٥	علبة من الصفيح الصدىء
٤٤	كل هذا الحب
٦٤	الله .. الله .. يا ست
٧٢	المدرسة الحديثة
٨٠	غابة من السيقان
٩٥	عبد الله .. وفاطمة
١٠٥	كل هذا الجمال
١١٥	اكتشاف الألومنيوم
١٢٦	الهزيمة
١٤٠	لا تذبحوا الفراخ
١٥١	صائد الغزال
١٦٢	القضية الأخيرة
١٧٢	الحب والعدالة
١٨١	وسام للمتهم
١٨٩	غلطة حبيبي
١٩٩	العقل الكبير
٢٠٧	أزمة المثقفين
٢٢٠	حبيبي أصغر منى
٢٣١	استقالة عالمة الذرة
٢٤٣	كلام ستات

رقم الإيداع ٩٩/٧١٣٤

الترقيم الدولي

I. S. B. N.

977 - 08 - 0823 - 7

طبع بمطابع دار أخبار اليوم



قرش جنينة
٤٩٠٠ هـ

طبع بمطابع اخبار اليوم

To: www.al-mostafa.com